دعاء زعبي

جوبلين بحري

رواية





لـو اسـتبدلنا عنـوان روايـة «چوبليـن بحـري» للروائيـة دعاء الزعبي بعنوان آخـر : « التحدّي»، وهـو عنـوان مباشـر غيـر رمـزي، لـكان المعنـى واحـداً .

المحـور الأساسـي والمفصلـي للروايـة هـو مواجهـة فلسـطينيي الـ 48 وتحدّيهـم لنهـج القـوة والعنصريـة الإسـرائيلية، عـن طريـق العلـم والدراسـة والمعرفـة فـي مواجهـة العسـف والظلـم.

حيـن أشـارت «سـارة فنكلشـتاين» لميـار، ابنـة يافـا الفلسـطينية، بـأن تتـرك العلـم والدراسـة لصالـح الـزواج وتربيـة الأطفـال، كان ردّ ميـار ردّاً يليـق بأصحـاب الأرض والحـقّ والمـكان مضمـرة فـي أعماقهـا: لـن نكـون سـقاة أو حطابيـن وسـنقهركم بالعلـم والثقافـة والمعرفـة.

وهـكـذا تمضـي ميـار إلـى فضـاء العلـم والأفـق المسـتقبلي لجذورهـا الفلسـطينية الراسـخة حيـث تتابـع دراسـتها فـي ألمانيـا وتحصـل علـى شـهادة الدكتـوراه موجّهـةً بهـذا رسـالة إلـى سـارة وإلـى العالـم أجمـع بصـورة حضاريـة تشـرّف وطنهـا وفلسـطينيتها.

مسـيرة شـابة فلسـطينية، تعيـش واقعـاً مركّبـاً، لا يخلـو مـن صراعـات داخليـة وخارجيـة تعبّـر فيهـا عـن واقـع الأقليـة العربيـة الفلسـطينية داخـل إسـرائيل.

الأهميـة فـي هـذه الروايـة أنهـا شـهادة رائعـة ومسـتقبلية للضـوء والنـور فـي مواجهـة الظـلام والوحـش الأعمـى.

تبقـى روايـة «چوبليـن بحـري» علامـة فارقـة ومميـزة فـي سـجل الأدب والروايـة الفلسـطينية مواصلـة درب غسـان كنفانـي وبقيـة الروائييـن الفلسـطينين الذيـن كتبـوا بالحبـر والـدم سـجل تاريـخ فلسـطين وذاكرتهـا التـي لـن تنسـى أبـداً.

حيدر حيدر



چوبلين بحري


9 789933 508432

چوبلين بحري

* چوبلين بحري
* دعاء زعبي

* الطبعة الأولى 2021
* الناشــــر: ورد للنشــــر والتوزيــع
دمشق - سوريـــة
* الاستشـارة الأدبية: حيدر حيدر
* تصميـم الغـــلاف: ورد حيدر
* التوزيـــع: دار ورد ☎ 5141441 11 963+ ص.ب 30249
* التـرقيـم الـــدولي: ISBN 978-9933-508-43-2
* الموقع الإلكتروني: www.ward-books.com
* البريد الإلكتــروني: info@ward-books.com
darwardsy

دعاء زعبي

چوبلين بحري

رواية

إلى الذين جعلوا روايتي وطناً حاضراً يُنير لنا وحشة الدّرب وغربة القلب في منافي الانتظار.

وإلى روحين هما الأغلى... أبي وأمي.

دعاء

سارة فنكلشتاين... لولاكِ ما كان ليحدث لي كلّ هذا!

أراكِ الآن تحدّقينَ في السّطور، تلتهمينَ حروفها النّاريّة بنهمٍ مسعورٍ دون أن تفكّري حتّى في هضمها وكأنّ الأمر لا يعنيك أو يُشغل لك ذرّة بال. نصيحتي لك أيّتها السيّدة أن تأخذي نفساً عميقاً ولا تتعجّلي بلعَها. فحروفي ستكون حارقةً هذه المرّة وأنا لا أريدكِ أن تصابي بقرحةٍ تأتي على كامل الجدران في معدتك. أريدك معي حتّى النهاية. حتّى آخر رشفة نجاحٍ من نجاحاتي. تلك التي أقلقت صفاء روحك وهدّدت أمنك القومي فحاولتِ وأدها قبل أن تولد وتنمو مياسم أمنيات أراد اغتيالها بغيض حقدك.

أتعلمين؟ منذ أن غادرتْ أحلامي تلك المدينة الكبيرة التي عرفتكِ فيها، لا أظنّ أنّ شيئاً فيك قد تغيّر. ربّما الزمن فقط هو من فعل ذلك. فعشر سنين بل أكثر من عمر خمسينيّةٍ كانت حين التقيتها، تكفي لصبغ خصلاتٍ من الشعر بلونٍ ما كان لـ «نسويّتك» التّنازل عنه، كما أنّها كانت كفيلةً بشقّ أخاديد هنا وهناك في جبينِ عمرٍ أرعبه جرفُ أحلامنا. أمّا أنفك الشّامخ تغطرساً وتعالياً فإنّي أراه رغم المسافات الفاصلة بيننا باقياً على ما هو. أنفٌ ولد ليشتمّ روائح البغض والبارود والعداء، تماماً كابتسامتك اللئيمة الصفراء. تلك التي اتّسمت بخبثٍ فوقيّ توارى خلف ستارةٍ

لامرأةٍ «بيضاء» تحاول جاهدةً الظهور بمظهرٍ حضاريٍّ داعم يُسدي نصائحَ ما كانت في حقيقة الأمر لتكون سوى طلقاتٍ ناريةً صوّبَتها نحو صدورنا إحباطاً ويأساً. هذه اللامبالاة المصطنعة الّتي شكّلت نهجاً ثابتاً لديك، ما هي إلّا حقدٌ ممأسسٌ أيّتها المرأة الحديديّة الّتي راهنت بقوّةٍ فاشيّةٍ على فشلي في يومٍ من الأيام ولَم تكن تعلم أنّني سأشكّل لها صداعاً مزمناً يلازمها طويلاً.

كنتُ أتساءلُ دوماً كيف لعسكريةٍ مثلك استطاعت أن تحلّقَ فوق أجواء «العدو» كقائدةٍ لإحدى طائرات سلاحه الجوّي، مخترقةً حدودَ جيرانها منفّذةً عمليّاتٍ ضدّ شعوبه، أن تعودَ إلينا كعضوٍ فعّالٍ في مؤسّسةٍ أكاديميّةٍ لها مكانتها ووزنها؟ كيف لهاويةِ حربٍ أن تُمنح حقّ البتّ في مصائرنا بعد أن تخلع عنها ثوبها المصبوغ بالدمّ ولون الرّصاص، وتبدّلَ كحرباءٍ جلدها ورائحةُ شواءٍ لجثثٍ أحرقتها نار القذائف تنبعثُ من مساماتها؟ وتساءلتُ: كيف للعلمِ أن يضمَّ بين ضلوعهِ قنابلَ موقوتة تزرعها مؤسّسة تعليميّة في حقول طالبي علم، وهي على يقينٍ أنّها ستنفجرُ يوماً في حدائقِ مستقبلهم فتحرق ورودهم وتشوّه زرعهم؟ وجاءت النتيجة متوقّعة ومطابقة للصيرورة التاريخيّة الّتي أدّت إلى قيام مؤسّستكم العظيمة. هذا يحدث فقط في أماكن تعظّمُ فكراً كفكرك، ولدى كياناتٍ تتّخذ من هذا الفكر نهجاً وعنواناً لسياساتها، أيّتها الـ «كابتن طيّار»... لقبٌ راقني أن أطلقهُ عليك دائماً كطلقةٍ سدّدتها نحو صدري ذات يوم.

ها أنا أرى عينيكِ الخضراوين تشتعلان دهشةً وذهولاً وأنت تتابعين بعصبيّةٍ غير مسبوقةٍ حروفي. أراهما تطلقان العنان لبؤبؤيهما طلباً في البحثِ عن توقيعٍ مذيّلٍ باسم صاحب الرسالة، أو تفصيلٍ صغيرٍ يشير إلى مصدر مرسلها بينما يسرعُ إبهامك في

دفع شاشة هاتفك الخليوي إلى الأعلى دعماً للعينين المتّقدتين تساؤلاً وفضولاً عمّن أكون. تريّثي ولا تتعجّلي الأمر. فرسالتي ستكون طويلة. كطولِ نفسٍ أردتِ له أن يكونَ قصيرا. كنت تخطّطين وتهندسين وترسمين لي طريقاً آخر يرضي غرور حقدك، طريقا أختصرُ به دروب العلم والدّراسة وأنشغلُ عنهما بالزواج والإنجابِ وتربية الأطفال. فوقعتِ في مطبٍّ ديموغرافيّ-فكريّ أقلق حلمك القومي «بأرضٍ كبرى»، وقضّ مضاجع كثيرين ممّن يحملون راية فكرك. بحرٌ من الأرحام تُبشّر بولاداتٍ مستمرة لأجيالٍ باقية في وطنٍ ليس لها من وطنٍ سواه، وعلمٌ ينتفعُ به يشكّلُ خطراً وتهديداً على وجودك ووجود كلّ هؤلاء المؤمنين بربّ سياسات التّجهيل والعنصريّة المقيتة. وكان أن اخترتِ الأوّل نصيحةً تنصحينني بها وكأنّها أهون الشرين. هل تذكرين هذا؟ هل تذكرينَ لماذا؟ كان هذا قبل عقدٍ من الزّمن بل أكثر عندما صادفتُ صعوبةً في دراستي، فكنتِ أنت، سارة فنكلشتاين، الاسم اللّامع الذي تمّ تنصيبه حينها كي يساعد ويوجّه من هم بحاجة إلى المساعدة، هو من قرّر أنّني لا أصلح إِلّا للزّواج والإنجاب. وجاء حكمك جائراً ليختصرَ عليّ الطّريق ويحكمَ على براعمها بالإعدام قبل أن تزهرَ محاولاتي من جديدٍ نجاحاتٍ ساحقة.

ها أنت تنتفضين انتفاضة المذبوح بسكّين الرّيبة والشكّ، تتساءلين والحيرةُ تلفحُ أنفاسك المضطربة، من ذا الذي يجرؤ على اقتحام حدودك الإقليميّة وهدّ أسوارها بسياط كلامه؟ من ذا الذي يجرؤ على اختراقِ صناديقك السوداء وكسر أقفالها بحروفٍ من صدماتٍ لم تتوقّعي أن يرسلها أحدهم إليك ذات يوم. أراك وأنت تصوّبينَ الآن نيران أسلحتك في كلّ اتّجاه، ترصدينَ كلّ حركة حرف... فاصلة... نقطة، علّك تفلحين في اصطيادي

وسجني داخل خيوطك العنكبوتيّة انتهاءً بمصّ دمي. سأختصر عليك الطّريق، فنفسي لم تعتد التستّر وراء حروفٍ مفخّخة وحروفي لم تعتد الخوف والهزيمة.

هل تذكرين ميار؟ ميار يوسف. هل يقول لك هذا الاسم شيئاً؟

حاولي نبش ذاكرتك جيّداً. حاولي التنقيب فيها عن آبار حقدٍ حاولتِ تفجيرها في أرضٍ خضراء جميلة ما كانت لتبقى جميلة، لولا أن انتفضتْ إرادتي واستنفرتُ جميع قواي رافضةً نصيحتك، محبطةً هجوماً عسكريّاً شننتهِ بتوحّشٍ على أحلامي.

أمّا رسالتي إليكِ فهي كرةٌ قرّرت تسديدها في شباك حقدك اللّعين لتكون رفيقَ وقتٍ ثقيلٍ يرافقك طويلاً. هي هديّة كان عليّ إرسالها إليك منذ زمن بعيد لكنّني كنت مشغولةً ببناء مستقبلٍ رائع لم تتوقّعي له أن يحدث وقد حدث. لقد اخترتُ توقيتها خصّيصاً هذا المساء لتستقبلي بها عامك الجديد. احتفظي بها، أعيدي قراءتها، قلّبي حروفها على مهلٍ، وحاولي هضمها بعصاراتٍ جديدةٍ تحلّ مكان تلك الّتي ملأت جوفك بغضاً ورعباً من أمثالي.

لك كلّ الوقت أيّتها الـ... «كابتن طيّار»، يا من خسرتِ رهانك معي ولم تَطلني هزيمتك.

الاثنين 31-12-2019

الساعة الحادية عشرة ليلاً

برلين

مستلقيةً على أريكةٍ توسّطت صالون شقّتها، متدثّرةً بالوحدة والغياب كتبت ميار رسالتها. كان الفرح غائباً هذه الليلة، والحزن يحتلّ المكان. واثق الخطى مضى إليها بكامل هيئته السوداوية ومعدّاته الحربيّة، راصفاً بصلصاله جميع الطرقات إلى قلبها، مشيّداً بهذا جداراً من ألمٍ وقهرٍ عزل الفرحَ تماماً عن قلبها المرهف العنيد. هي دعوةٌ صريحةٌ للحزنِ بالقدوم وتبوّؤ الوقت صرحَ بها قلبها صارخاً. ضيفٌ ثقيلٌ يمضي بكلّ تلكّؤٍ في شرايين ليلها، يوغلُ فيه بكامل سلطانه واستبداد قوّته، يستوطنُه حتّى تخومه، يعبث به هازماً فجره مستبيحاً دمه. بل هي أكثر من مجرّد دعوةٍ عابرة أو صرخة روح. إنّها مؤامرةٌ دمويّةٌ دنيئة تحاك خيوطها بحرفَيّةٍ هنا الليلة. يمدّ الليل فيها للحزنِ يده، يشاركه استعماره لعروقِ فتاةٍ غلبها الشّجن متناسياً أنّه رفيق حرفها ونديم صخبها. هوذا يقبلُ حاملاً أصفاده ساجناً بعتمته ملامح الليمون في أريكتها، فيغيب الأصفر ويرتبك رونقه في قلب عتمةٍ شقّت سماء برلين، واخترقت حدود نافذةٍ زجاجيّةٍ انفرد بها صالون شقّتها جعلت من هذه الدّفيئة الصغيرة جناحاً شاحباً وكنفاً حزيناً ينوء تحت أضواءٍ حرصت ميار على خفوتها تناغماً مع موسيقا روحها هذا المساء.

في هذه الليلة الاستثنائيّة استنُزِفت قوى الكلام من روحها والجسد وضاقت أنفاسها بكآبةٍ بدت وكأنّها الأبد. أهي كآبة الغرب؟ ذلك الوحش الذي أمسى يقضّ مضاجع كثيرين وينهش أحلامهم بأظافرَ من أرق. أم كآبة الغربة التي باتت ثمناً باهظاً يدفعه كثيرون ممن يعيشون الغربتَين مشتتين مبعثرين بين ارتدادات الوحدة وانعكاسات القلق؟ أم أنّها المدن الغريبة، مدن الرّيح والضّباب والقصدير، تلك الّتي نأتيها مسكونين بالأحلام والأضواء، تأخذنا إليها من حيث لا ندري، تثير فينا لهفة الحياة المشتهاة إلى الحريّة والتّحليق، تسحرنا، تبلعنا، تنسلُّ إلى حدائق عمرنا بخفّة جنيٍّ شقيّ، مغازلةً حمائم أيكنا مداعبةً ثغر فَراشِنا سارقةً منّا ورد العمر وزهر السّنين. وإذ نشتاقُ لأعماقنا النديّة القديمة، ودواخلنا المنتفضة شوقاً لزوايا هجرناها وروائح أثقلها الحنين، يكون العمر قد فات والوقت قد خان، عندها ندرك فقط مدى خسارتنا وحجم فقداننا الكبير.

غرباء نحن كغربة التاريخ في هذه المدن. نمرّ عبرها كما مرّت جيوشٌ وداستها طوابير أمم. ريشةٌ في مهبّ الرّيح نأتي ونغادر، نتلاشى كغبارٍ في قعر صحنها وكأنّا لم نطأ يوماً أرضها، لم نعتنق أبداً زمنها، لم نمكث لحظةً فيها. تسفونا الرّيحُ حيناً نحو سهوبها، نتعثّرُ بحجارتها صارخين ألماً من وخز شيحها متذمّرين من شحّ مائها وبلادة هوائها، وحيناً تدفعنا بشراسةٍ نحو هضابها، نتسلّقها والروح متعبةٌ والجسد هزيل فتكاد تنقطعُ الأنفاس وتزلّ الأقدام ويبيتُ الاستمرارُ للقمّةِ مستحيلاً. ثمّ لا تلبث أن تعود لتلقي بنا في بحورها الشّاسعة، نغتسلُ بملحها مرغمين، نرتشف أنين موجها دافنين رؤوسنا

كالنّعامة في رملها ظنّاً منّا أنّنا نستطيع التحدّي والتصدّي للزّمن ومعاندة القدر. وبرلين كانت جزءاً من قدر. لكنّه قدرٌ أبيض أحاط ميار بهالةٍ من الرعاية والحبّ، جاعلاً من رياح المدن الغريبة نسمةً لطيفةً حملت لها السّعد والحظ الجميل.

في حضن يافا عام 2004...

كلّ شيءٍ يبدو صامتاً هنا الليلة. ستائر المخمل المقصّب التي رقصت فرحاً يوم ولادتها، وورود الشّرفات التي اعتادت أن تصحو على شهد عينيها الناعستين كلّ صباح، وروائح الحبّ المعتّق في خوابي ما مضى من عمر، نثرته السنين ضحكاتٍ ولمّات أهلٍ وضجيج أطفالٍ طالما شهدت كرمة وليمونة لهوهم وشجارهم في حاكورة بيتٍ دافئٍ صغير. صمتٌ لم يعتده هذا المكان. لم تعتده راقصات الباليه ولا عرائس البحر اللّواتي تصدّرن جدرانه عبر لوحات جوبلين نسجتها أمّها بحرفيّةٍ وبراعةٍ تنمّ عن فنّ وذوقٍ رفيع. سكونٌ حزينٌ لا يسمع فيه سوى هدير موجٍ لبحرٍ بعيد، ونواح ريحٍ خريفيّة جاءت لتودّع معها آخر ليالي أيلول. في الفجر ستغادر ميار يافا. سيمسك بها المجهول ليقودها نحو مواسم الوداع الثقيلة والبلاد البعيدة وصقيع الأيّام القادمة، تاركاً لتشرين روائح السّفر وذكرى بدايات الغياب.

سنونوتنا الحلوة... يا تغريدةً حلوة صدحت بها دنيانا الصغيرة. ها قد حان يا ابنتي موعد السّفر واقتربت ساعة التّحليق والطيران. غداً ستغادر عصفورتنا عشّها الصّغير لتلحق بقاطرة الحلم الذي انتظرته طويلاً. طيري يا ابنتي وحلّقي بعيداً. لا تخافي

الرّيح، لا تهابي صفيرها. امضي نحو حلمك بقدمين ثابتتين وقلبٍ واثقٍ متين. كوني كما عهدناك دائماً الواثقة القويّة الّتي...

يطوّق ابنته بحنانٍ دامعٍ غصّت به عباراته وهو يحضن حلمها القادم بنظراته القلقة.

ثقي أنّنا سنمضي معك حتّى النهاية. لن نترك الحلم وحيداً يعاني كوابيس الغربة وظلم ما كان. سندفعه وإيّاك إلى الأمام. قالها بصوتٍ ارتعشت له لحظات فراقهما القادمة وهو يجاهد إخفاء دمعةٍ فرّت من عينيه. أراد بهذا الكلام حمايتها من غربةٍ باتت وشيكة. فوداع ابنةٍ ملأ شذاها فضاء البيت وضجّت أركانه بشقاوتها وشغبها ثلاثة وعشرين عاماً، لم يك بالأمر الهيّن أبداً. في محاولةٍ منها للتحكّم بمشاعرها والتكتّم على دمعٍ خنق شوقها إلى والدين لمّا تغادرهما بعد، تمازح أباها:

ألا تخاف من تحليقي بعيداً يا أبي؟ لربّما استهوى الفضاء الرّحب سنونوتك الصغيرة فلا تعود راغبة بالعودة، أو لربّما خطفها فارسٌ جرمانيٌّ أشقر اللون، أزرق العينين، وهرب بها بعيداً على حصانه الأبيض مخبّئاً عصفورتك داخل قلبه وعينيه. فماذا كنت ستفعل بدونها أيّها الختيار الوسيم، أقصد ماذا عساك أن تفعل بدونها أيّها الكهل الوسيم؟ تستدرك نفسها ضاحكةً وهي تحاول أن تبدو عبارتها الأخيرة منمّقةً جميلة تليق بابنة معلّم لغةٍ عربيّة قضى جلّ عمره مسافراً بين النحو والصّرف، مبحراً في بحور شعرها ومحيطات أدبها، هائماً في دروب المتنبّي وأخبار المعرّي. لفظتها وهي تمدّ رأسها وذراعيها نحو الأعلى كما لو أنّها أمام جمهورٍ جاء ليستمع لخطبةٍ من خطبها التي طالما راق لها إلقاء بعضها على مسامع والديها منذ أن كانت طفلةً صغيرة.

كثيراً ما كانت تطالبهما بترك أعمالهما والجلوس أمامها لتبدأ بعدها رحلتها في بثّ ما يحلو لها من الكلام، وما على الوالدين العزيزين سوى الانصياع لأوامرها والإصغاء لها. كانت تعلم كم يستهويه أن تحدّثه بلغةٍ عربيّةٍ فصيحة ولو من باب الدعابة والمزاح، فجادت عليه بهذا ناثرةً دلعها الفصيح في فضاءات بيتٍ عشق اللغة العربية وقدّسها معتبراً أنّ الحفاظ عليها في بلادٍ تسعى إلى تهويدها وتهميشها هو أوّل أشكال الصّمود وأقواها.

عبارتها هذه كانت كفيلةً بأن تجعل أمّها تجهش بالبكاء. حتّى هذه اللحظة لم تكن أمّها لتستوعب فكرة سفرها أو غيابها الطويل. فميار كانت حلماً طال انتظاره. ثلاثة عشر عاماً من الانتظار والترّقب ذاق فيه الوالدان مرارة العلاجات المستمرّة وحُسن دعوات الآخرين لربٍّ قادرٍ عساه أن يمنّ عليهما بطفلٍ يملأ عليهما دنياهما، حتّى تحقّق الحلم وولدت ميار. لم يسعفهما الحظّ في إنجاب أطفال آخرين كان من الممكن أن يملؤوا فراغ غيابها القادم، فبقيت ميارهما وحيدةً مدلّلة. بدلع طفلة لم تكبر، تحضن أمّها وهي تسند رأسها على كتفها بغنجٍ طفوليّ يخاف الانفصال والبعد.

لا تبكِ يا ستّ الكل. بضعة أشهرٍ فقط وتجدينني أتنطّط هنا أمامك كالقردة. سأمكث حتّى تملّين وجودي وتتمنّين عودتي سريعاً من حيث أتيت. لا تقلقي يا أمي... أعدكِ أن أهاتفك يوميّاً وسأقوم بزيارتكما كلّما سنحت لي الظّروف بذلك. يتجدّد بكاء أمّها خانقاً ما جثم على صدرها من عباراتٍ مكتومةٍ لم تستطع معها إكمال الحديث. تحاول ميار تدارك موقفهما المؤثّر هذا بجعله هزليّاً بعض الشيء.

وهل صدّقتِ فعلاً يا الغالية أنّ فارساً جرمانيّاً سيخطفني؟

وهل أنا ساذجة إلى هذا الحدّ الذي يمكن لأحدهم أن يتجرّأ ويخطفني بهذه السهولة؟

يقاطع حديثهما بحزمٍ لأمرٍ يبدو مستحيلاً.

سنونوتنا الحلوة ستعود حتماً لعشّها. اطمئني يا أم ميار ولا تجعلي القلق يغزو قلبك. كان ينظر إلى ابنته باحثاً في وجهها عن ملامحِ يدرك كنهها جيّداً لكنه أراد التّأكّد منها كي يطمئن قلبه، تاركاً لعينيه البوح بما لم ينطق به لسانه وكأنّه يريد طمأنة والدتها بأنّ غاليتهما لن تترك العشّ للغربان تنهش قشّه، ولا الحقل للجرذان تنهب زرعه. ستعود لتكمل الحلم وتزرعه من جديد سنابل قمحٍ وزيتون بقاء. فهما لم يتركا أرضهما وبلادهما كي تفعلها هيَ. تبتسم ميار لعيونهما القلقة، تطمئن قلبهما الجزِع وهي تومئ برأسها أنّها حتماً عائدة. فلا بدّ من العودة يوماً ولو طال الغياب.

لكنّ غربتها طالت بحيث لم يحسب لها أحدٌ حسابا. خمسة عشر عاماً وهي بعيدة عن يافا وعن رائحةِ أهلٍ لم تكن ظروفها لتسمح لها بزيارتهم سوى مرّةً واحدةً في السنة. ظروف دراسيّةٌ ضاغطة ومشاغل عملٍ كثيرة، سلبت وقتها وسرقت عمرها من حيث لم تدرِ ولم تشعر. كان حنينها للوطن والأهل ثورة شوقٍ دائمة، لم تخبُ نارها يوماً ولم يهمد أزيزها. تراها تتأجّجُ داخل صدرها كما لو كانت في بدايتها عندما غادرت يافا لأوّل مرة.

برلين، المدينةُ الممشوقةُ الجميلة. كم أهدتها من الجمال ليالي كثيرة، وكم داعبت مساءاتُها المجدولةُ بالثلج أفق خيالها. خيالٌ شطط وتاه في رحلةٍ أرجوانيّة الظلال، بين شفقٍ حالمِ الخطوات أمسى ملاذها، ومدى أنيق الروح بات يشبهها، ومساءاتٍ مثيرةٍ أشعلت بوهجها شذرات قلبها فلم تخلُ من التنسّك ولم تبخل عليها بالحبّ. غير أنّ ليل برلين هذا المساء كان آخر. كان كمن قلبت له الظلالُ ظهر المجن فأردته قاتماً لا يرحم.

ليلةٌ غريبةُ الزّوايا والنّوايا يفجّرها صبرها وصدرها. تتسكّع عقارب الزّمن فيها بدهاء من يقبض على الزّمن بأبعاده الثلاثة ماضيه حاضره ومستقبله. تخترق دقّاتها جلدَ ذاكرتها، تلسعُ بحدّة غضبها وسمّها المكبوت لحظات الظلم والإجحاف التي

أصابتها، ثمّ تنفرجُ متمطّيةً كهرّةٍ كسولة أتخمها الدّلالُ والدّلع، ترجو الحبَّ بذراعين مفتوحتين ومشاعرَ قلبٍ وأدته أنثى بيديها علّ نبض هذا الشقيّ يبعثُ من جديد. ثمّ لا تلبث أن تراها تعودُ لواقعها، فيستقيمَ الزّمنُ مجدّداً وتعودُ عقاربه إلى رشدها تتكتكُ بانتظام.

تنظر حولها لتجد أنّ الفوضى تعمّ المكان. فوضى من الأشياء والمشاعر وكثير من فوضى الوجود لكلّ ما خلّفه هذا الوجود في سنوات عمرها الثّماني والثلاثين. كتبٌ بُعثِرت بشبه إغفاءةٍ فوق منضدةٍ صغيرة حملت هواجس مؤلّفيها مزاحمةً بغرور أحرفهم فراغ المكان، أقراصٌ ألقيت بعشوائيّة موسيقاها ووجوم أصحابها تلعن الصمت الذي لم تولد لأجله، كوبٌ يقيمُ منذ الصباح في أرضه راضياً بقدره منتظراً تسريح ما علق على حوافه من بقايا قهوةٍ ومتاهات غيب، وجسدٌ مزّقته رياح الشهوة ولفحته خماسين الحنين. أمّا هو فقد جلس في أحد الأركان بعيداً عن كلّ هذه الفوضى مأخوذاً بسحر ماضيه مسكوناً بعظمة أمجاده. كانت تفاصيل جسده العاري تروي بطولة الأسطورة. أسطورة البحر والعواصف والزلازل. رواية مدينة بحريّة بناها هذا الإله الأسطوريّ، لكنّه لم يستطع إنقاذها عندما حوصرت ودمّرت بالكامل على أيدي جيوش إسبارطة.

تتأمّله ميار ممعنةً النظر في جسده الصّلب، ملقيةً نظرة إعجابٍ كتلك التي ألقتها نحوه عندما قرّرت اصطحابه معها عند زيارتها الأخيرة لبلاده. جسدٌ صُقِلَ بمنتهى البراعة والدقّة، وتفاصيلُ نحتها فنانٌ بحرفيّة وإتقانٍ كبيرين يكاد الجسد المفتولُ بها أن ينطق. تغور نظراتها في حدقتيه مبحرةً في سوادهما الدّامس، تتوقّفُ قليلاً عند ضفافهما المتلألئة محاولةً

استدعاء أسرار البحر فيهما وأسرار طروادة، لتكمل بعدها إبحارها جائلةً بنظرها في تقاسيم وجهه الواجم من تحدّي أوديسيوس له. سماتٌ ملكيّة أمازيغية ميّزت لحية بوسيدون وشعره الطويل، وغضبٌ إغريقيّ لمعت به عيناه جعل المؤرّخين يتوهون في حسبه ونسبه ويحتارون في أصله. تسترجع ميار بعضاً من ذاكرتها وحيرتها أيّها تختار وهي كثيرة، مستعيدةً تفاصيل حديثٍ شيّقٍ دار بينها وبين نيكولاوس، ذلك البائع اليوناني الذي امتهن بيع «الآلهة»، حول أصل وفصلِ هذا الإله.

يقول معظم الباحثين إنّه أمازيغيّ الأصل، وإنّه ما من شعب عرف عبادة هذا الإله في القدم إلّا الأمازيغ، أمّا الإغريق فأخذوه عن الليبيين القدامى. تروي الأساطير أنّ بوسيدون، بطل البحار وسيّد المحيطات، تزوّج من غايا إلهة الأرض، أم الجبابرة وابنة كاوس. هل سمعتِ عن كاوس؟ غير منتظرٍ إجابةً منها يكمل حديثه قائلاً وهو يشير إلى لوحةٍ حملت رسماً مبهماً لهذه الإلهة.

هي مصدر الكون والربّة الأوليّة الأقدم للخلق. الفراغ الأوّلي الذي وُجد منه كلّ شيء. يصمت قليلاً مزهواً بما يقدّمه للسائحين والسائحات من معلومات تثير فيهم الرضا والإعجاب ليكمل بعدها:

زواج هذين الإلهين أثمر ابناً أسطوريّاً هو عنتي أو أنتايوس. العملاق الذي ارتبط اسمه بالمدينة المغربية التي جمعت بين الأرض والبحر، أرض غايا أمّه وبحر بوسيدون أبيه. يقال إنّ عنتي هذا اعتاد أن يهاجم المسافرين ويقتلهم ويقطع رأس كلّ غريبٍ يحاول التسلّل إلى البلاد التي حكمها. يسود صمتٌ تفرضه الآلهة رهبةً ووجلاً على المكان، يرتشف خلاله نيكولاوس بعضاً

من قهوته الدّاكنة مصدراً مقطوعةً موسيقيّة جعلت ميار تشيحُ بوجهها جانباً كي لا تحرج ابتسامتُها وقارَ موسيقاه. يسحب نفساً عميقاً من سيجارةٍ غاصت مرغمةً بين فلج أسنانه المهملة، مكملاً حديثه الّذي بدأه:

من جماجم قتلاه صنع معبداً أهداه فيما بعد لأبيه، ثمّ قام بإنشاء مملكةٍ عظيمة أطلق عليها اسم زوجته طنجة.

وكرصاصةٍ أزّت، فانطلقت مرتطمةً بجدار الذاكرة لتعود بعد ذلك أدراجها مهرولةً تبحث عن ملاذٍ لها يحميها من ذعر ذلك المشهد ووجعه، صرخت ميار، طنجة؟ يا لها من ذكرى قاتمة. قالتها بصرخةٍ من كانت له طنجة قدراً يلاحقه في كلّ مكان. فهي ذاتها طنجةَ التي رفضتها يوماً ولم تستقبلها كونها تحمل جواز سفرٍ إسرائيليّ.

تتذكّر ذلك الحدث الذي ضرب كزلزالٍ تكتونيٍّ عمق عروبتها، مزعزعاً بارتجاجاته ثبات شعورها، مشكّكاً بحقيقة الوطن الأكبر وقدرته على احتضان إعيائها بعد طول إبحارٍ وتعب سفر، وهي الفلسطينية التي جاءت بلاد أجدادها زائرةً فاستقبلتها إسبانيا بترحابٍ سخيّ القسمات ولم تستطع طنجة احتضان أشواقها وعناق وحشتها. لم تستطع طنجة أن تفهم معادلة الوطن المحتل وأوراقه الرسمية. لم تدرك وجع الأسماء التي أضحت بين ليلةٍ وضحاها يتيمة الوطن مسلوبة الهوية. أسماءٌ حملت راية الأبجديّة ضاداً عربيّةً فصحَ بها اللسانُ وجادَت بها المعاني، لكنّ قاطعَ طريق غزا أرضَها لحظةَ غدر كبرى، حرث زرعها بأقدامه الهمجيّة، طارد الأسماء واقتادها، آسراً حروفها داخل زنزانةٍ بلون السماء والثلج مطبقاً خناقه عليها، حتّى ازرقّ الحرف ظلماً

وجمدت شفاهه قهراً وما زالت أسنانه المصطكّة وجعاً تدعو السماء أن تفكّ أسره من جور هذا القيد. كلّ هذا الوجع لم تره طنجة حينها ولم تفهمه، فأعادتها وأصدقاءها على متن ذات العبّارة التي قدموا بها حاملين معهم شوق الوطن للقاء الوطن.

هل أنت متأكّد من أنّنا نستطيع زيارتها؟ سألت ميار ذلك الشاب المغربي الذي كان يجلس خلف نافذةٍ زجاجيّةٍ صغيرة يبيع التّذاكر للراغبين في الانضمام لإحدى الرحلات البحريّة، في إشارةٍ منها إلى طنجة.

بالتّأكيد تستطيعون ذلك.

لكنّنا نحمل جواز سفرٍ إسرائيليٍّ ولا توجد بحوزتنا تأشيرة تمنحنا الدخول إلى الأراضي المغربيّة. لقد أخبرونا أنّنا نستطيع فقط زيارة سبتة كونها... قاطعهم هذا الشاب، والأمر يسري على طنجة أيضاً.

هل أنت متأكّد ممّ تقول؟

بالتّأكيد، وغداً تستطيعون الإبحار إليها عن طريق العبارة رقم 12 المنطلقة من هنا في تمام الساعة السادسة صباحاً. مشيراً بيده إلى الخارج حيث ترسو عشرات البواخر والعبّارات المحمّلة بالبضائع بانتظار إبحارها من ميناء «الجزيرة الخضراء - ألخثيراس» أهمّ المواقع البحريّة في جنوب إسبانيا.

متشبّثين بحبال جملةٍ اجتاز بريقها ذبذبات صوته الواثقة ممّا يقول، مطبّقين نظرية الضوء والصوت في تدرّجها، معلّقين آمالهم على حلمٍ ضبابيّ الانتماء سقط كغشاوةٍ زائفة على أعينٍ لم تعد ترى أو تسمع معه أيّ شيء، سارَعوا في شراء التذاكر لرحلة الغد. كانت لهفة الفرح لجغرافية الأماكن المحفورة في القلب،

ولتاريخها الساكن أوردتهم الدقيقة، تزيد من ضربات القلب وتوتّره بحيث طغت دقّات وجع الوهم القادم على صوت عقولهم واتّزان تفكيرهم.

كان هذا قبل صيفين، عندما قامت ميار وأصدقاء لها بزيارةٍ للجنوب الإسباني «أندلوسيا». هناك وعلى وقع صيحاته المنبعثة من حناجره الورديّة وخفق أجنحته الحزينة، رقصت غانيات الفلامنكو رقصاتها الغجريّة، تمايلت قدودهنّ في نكهةٍ شرقيّة الجذور بثّتها بشرتهنّ السمراء وجدائلهنّ الطّويلة السّوداء، مؤكّدةً أنّ في هذا المكان نمت وتنامت حضارةٌ عربيّة روت بأمجادها قصّة ماضٍ تليد عاشه أجدادها هنا ردحاً من الزمن. «الأندلس» وجع ذاكرةٍ يتيمة تتنفّسها الأماكنُ هنا حجارةً وفسيفساء لم تُبقِ لنا سوى فتاتِ خبزٍ نقتات منه أكذوبة الشموخ وبريق أمجادٍ ذهبت أدراج الرّيح ولمّا تعد.

ها هي الشمسُ تتمطّى في عليائها مسترسلةً في تأمّلها للشّاطئ المسكون بالزّوارق والبشر. يتمازج الأزرقُ والأبيضُ في تناغمٍ سرياليٍّ مشكّلين لوحةً من موجٍ وزبد نطقت حديثاً صاخباً لم يدم طويلاً، بعد أن قطع أوصاله صوت محرّك الحافلة وهي تدوسُ بعجلاتها نسائمَ أنفاسه البحرية فتخرسها. من مالقا درّةِ ساحل الشمس الفريدة Costa del sol تلك التي عبقت موانئ أمسها البعيد بروائح أسماكها المملّحة وخشب زوارق العابرين الطّامعين فيها، كان الانطلاق. من هذه المدينة الساحلية أيضاً، انطلقت صرخات طفلٍ أضجره المألوف والكلاسيكي فتخطّى بذلك دروسه وهام على وجهه في شوارع مدريد كي يرسمَ الفجر والمتسوّلين وعازفي الغيتار.

تمرّ الحافلة من أمام بيت بابلو بيكاسو، يتباطأ زحفها رويداً رويداً حتّى يتوقّف الزّحف نهائياً عند إشارة مرورٍ نصبت في الشارع الصغير حيث يقبع بيته. لا شكّ أنّها فرصة ذهبية لجميع المسافرين للتمعّن أكثر في تفاصيل المكان والاستماع بشغفٍ أكبر لتفاصيل الحكاية. يعلو صوت المرشد السياحي، تشتدّ نبرات صوته في محاولةٍ منه للتّغلّب على صوت محرّك الحافلة أو على الأقلّ للتّخفيف من حدّة ضجيجها مشيراً بسبّابته الضّخمة نحو بيت ذلك الطفل الذي شكّلت فيما بعد ريشته حالةً إنسانيّة وطفرةً إبداعيّة مضى بها نحو النجوميّة كفنّانٍ ثائرٍ ورسّام مجدّد. تمضي بهم الحافلة بعينين مغمضتين وقدمين ثابتتين، مجترّةً قلب الأماكن وأوردة الطّرقات بثقة من حفظها عن ظهر قلب، مشنّفةً أذنيها لحديثٍ ببغاويّ ردّده المرشد السياحيّ كما في كلّ مرة. ومع كلّ كلمةٍ رافقت حديثه، كانت تخبّطات القهر والضّيق تشتعل في صدور من كان أجدادهم يوماً هنا واقعاً عابراً وتاريخاً مشرقاً عصيّاً على النسيان صارخةً بصمتٍ مقموع:

هل حقّاً كنّا هنا ذات حياة نصول ونجول أرض هذه البلاد منشئين من طوبها وطينها قاعدةً راسخةً لحضارةٍ وارفة الظّلال أبديّة التّطويب؟ أهي لوثةٌ أصابت أعضاءنا التناسلية واستأثرت بأرحامنا الأبيّة فأورثتنا ما نحن عليه اليوم من قبحٍ وبئس مصير؟ أم هو خللٌ جينيٌّ عبث بخلايانا ونال من عقولنا فأقعدنا وشلّ أدمغتنا عن العمل والتّفكير؟ أو لربّما هو داءٌ عقيمُ الشّفاء ابتلينا به ولّدَ هذا النّسلَ العاجز المهزوم؟ عراةٌ نحنُ إلّا من تاريخٍ قديمٍ نباهي به، ننشدُ فيه أشعار الأوّلين، نقف أمامه مهانين مهزومين نتّكئُ على دعواتٍ مهترئةٍ وصلواتٍ بالية نمضي بها إلى الجحيم ويا بئس هذا الجحيم.

تيّاراتٌ من وجعٍ ولوعةٍ سرت في عروقهم، وشطحاتٌ من هواجس قاتلة أرغموا على مضغها وبلع مرارتها معها أكملوا سيرهم والقهر يسكنهم وانقباض الرّوح حارق.

مستمرّون في خوض أعماق الأماكن والأحداث متعةً وغصّات، تغادر ميار وأصدقاؤها هذه المجموعة السياحيّة بعد قضاء يومين كاملين برفقتها يكملون سيرهم حسب مخطّطٍ سابقٍ يقضي بالانفصال عن هذه المجموعة ومتابعة المسار بشكلٍ شخصيّ ومنفرد. في هذه المنطقة الآسرة «كوستا دي لسول» حيث الشّمسُ تغمر ذاكرة البحر والموج، قضوا بعضاً من الوقت.

الحياةُ هنا كما الذّاكرة تماماً ذهبيّة. ولدت من رحم شمسٍ وإيقاعات ذهب. شمسٌ هوائيّةُ المزاج ترمي بأثقالها على كاهل بحرٍ حارقةً بنيرانها المجنونة أجساد مستجمّيه، مغازلةً موجَهُ كقصيدةٍ أندلسيّةٍ خطّها بماء الذّهب شاعرٌ محبّ فذاب الغضب وتكسّرت حربه على سطح ماءٍ غدا كالبلّور في تجلّيه الجديد. مياهٌ رقراقةٌ صافية تدغدغ النّظر وتحيّره ببريقها الآسرِ للعيون، تعبث بها ريحٌ متقلّبة الهوى ساحقةً بأصابعها الغليظة بريقَها، هازمةً أنظار المستجمّين المنتظرين عودته متلألئاً مستعيداً عافيته المغتصبة. من بين تلال الموج البعيدة، ترى الزوارق الشراعيّة تلوح مختالةً بانتصاب أشرعتها المضطربة من معارك لا تنتهي مع الريح والبحر. ما بين أصفر وأحمر وبرتقاليّ تحتدّ الأصباغُ إثر حربها مع العميق، تلذع بحرارتها جفونه الباردة قامعةً بلهيب نارها زرقة جسده. مماراةٌ مستمرةٌ وجدالٌ عقيمٌ يشهدهما المصطافون عن بعد. زوارقُ تعاندُ الرّيحَ بتمرّدها المشاكس لها،

وأخرى تتهادى متبخترةً في رقصها مع البحر مثيرةً بصعودها وهبوطها فوق موجه شهوته الجامحة. يهتاج الأخير، تُستفزُّ مشاعره محاولاً التّخلّص منها وإلقاءها بعيداً عن خفق صدره، لكنّه يفشل في صدّها لتعود بعدها تمتطيه بانتصاب الظّافرين المنتصرين. أمّا في الجهة المقابلة للبحر، فترى الهضاب تطلّ بسفوحها الصخرية ومنحدراتها القويّة، لتكون شاهداً أبديّاً على قصص البحر والبحّارة والبشر. أشجارٌ من النّخيلِ تنام في حضن السفوح معلنةً ولاءها للهضاب وللسّماء، صنوبراتٌ عملاقة تعلو وتعلو مصافحةً يد الغيوم وطيب أنفاسها تسبقها لاهثةً إلى الأعالي بحثاً عن أسرار الوجود وخبايا الكون هناك، وشجيراتٌ من الجهنميّة (بوغانفيليا) تتدلّى فوق الصخور وحولها مبتلعةً بعبثيّة كؤوسها الورديّة والذهبية وجنونها المنفلت فضاء المكان، نافحةً روحاً ومسك حياة في كآبة ملمحه. ومن شقوق هذه الطبيعة الساحرة، حيث بات الاستيقاظ باكراً متعةً ملحّةً لا غنى عنها، تسطع الفنادق بمبانيها الفخمة وانعكاسات أضوائها، فاضّةً عذريّة المكان، محتلّةً جسده برونقها وحضورها الفاتنين.

فجرٌ جديدٌ تتلألأُ فيه الشّمسُ من بعيد. تراها تتثاءب بغرور من يملك زمام هذا الكون ونظام تسييره مثيرةً بسطوتها حرارة الرمال وارتعاشات الأجساد تحت سلطان عرشها. تسير ميار فوق رملٍ ما زال يعاني برودةً أشعلها الليل بأطرافه الرّطبة، باحثةً عن مكانٍ لها تقضي فيه بعضاً من ساعات الصباح ريثما يلحق بها أصدقاؤها.

الازدحام البشريّ كثيفٌ جدّاً هنا في مواسم الصّيف، والحركة السياحية أشبه بخليّة نحلٍ لا تهدأ ولا تنام. على امتداد السّاحل الرّمليّ المليء بالحكايا والأحلام، ينتشر

المصطافون بألوانهم وأجناسهم المختلفة ساحقين بثقل أجسادهم رمله الوثير، مبعثرين ضوضاءهم في ثنايا المكان. أجسادٌ تتوهّجُ حرّاً وعرقاً، وأخرى تتلوّى حبّاً وعشقاً، وأخرى موشومةٌ يترنّمُ جلدها بتعابير الحبّ وهمسات حياةٍ عزفت موسيقاها أوركسترا عالميّة صدحت بها كلّ لغات العالم.

متمرّدةً على موجٍ تكسّر غضباً عند قدميها الحافيتين، تجلس ميار على حافته المزبدة تراقب البحر بدهشة من يراه لأوّل مرّة وكأنّ يافا ولدت من رحم صحراءَ لم يعرف له الماء فيها يوماً أيّ قرار. ساقان مكتنزتان أهدتهما الأرض لون ترابها اللّامع، وشامةٌ صغيرةٌ زيّنت أعلى فخذها اليمنى قد فضح البحرُ وكشف الصّيفُ جمالَ شكلها. باسطةً ساقيها إلى الأمام، مستمتعةً بسجالهما اللّاهي مع الموج، تداعب ميار شامتها بنظراتٍ طغى عليها دمع الحنين مبتسمةً لطيف الحبيبة وهي تخبرها سرّ هذه الشّامة. إنّه اشتهاء أمّها الحامل واشتداد رغبتها لتذوّق التوت البريّ في غير موسمه. فعندما تاقت أمّها لتذوّق بعضٍ من هذا الشهيّ، كان الشّتاء قد حلّ والبرد قد ضرب خيامه عميقاً في الأرض وموسم التوت قد انقضى. والنتيجة توتةٌ بريّةٌ زيّنت فخذ طفلتها. هكذا ساد الاعتقاد حينها بين الأمّهات وما زال سائداً عند بعضهنّ حتّى اليوم. اشتهاء حاملٍ لأمرٍ يصعب الحصول عليه، يعني وشماً أبديّاً على صورة المشتهى يزيّن جسد المولود أو وجهه.

حسناً فعلت أمّي باشتهائها التوت البريّ وليس غير. ماذا لو تاقت نفسها لتناول البطيخ في غير موسمه مثلاً أو الباذنجان؟ كم كان الأمر سيبدو مضحكاً بل مأساويّاً. بطيخةٌ تتصدّر جبيني أو باذنجانة تورِّدُ خدّي بسوادها الداكن. أيّة كارثةٍ ستكون هذه... ضاحكةً من معتقداتٍ ساذجة آمنت بها الأمّهات والجدّات ولم

تقنعها يوماً، تحضن ميار تفاصيل شامتها بجزع من تحاول الغربة أن تسلبه أمّه وخرافات الجدّات وذكرى التوتة، أو ربّما ينسيه العمرُ ذلك الطفل الذي يسكن فينا ويخاف أن يكبر. فشامتها هي تفصيلٌ صغيرٌ من تفاصيل كثيرة دغدغت روحها وآنست وحشتها في غربةٍ طالت لم تعد ترى لها نهاية.

تتابع الساقان لهوهما الطّفوليّ مع الموج. تغيبان في كلّ مرّةٍ يضرب فيها الموجُ ساحلهما الأسمر راسماً بزبده فقاعاتٍ من غيظٍ أبيض سرعان ما يختفي عند ملامسته رخامهما الأملس، لتعودا وتظهرا عند انحسار الموج عنهما، سمراوان لامعتان، تثيران غيرة النهار وحفيظة من يقضي جلّ وقته في التسفّع ولا يحظى في النهاية بلونٍ شرقيّ دسم كهذا. بشيءٍ من الرّضا والإعجاب ترمق ميار ساقيها انتهاءً بطلاَّئهما الأحمر، محدّثةً نفسها أنّ الأحمر هو ملك الألوان. لونٌ صارخٌ مثيرٌ، شديد الوضوح، غنيّ بالعواطف، مليءٌ بالرغبة والشغف. لونٌ يشبهها. فالأحمر صاحب فكرٍ وعقيدة، لا يحبّ النّفاق كما أنّه لا يرضى بالصّمت له خياراً أمام خطأ أو إزاء ظلم. هكذا عرفها الجميع من مدرّسين وأصدقاء وأقرباء. طفلةٌ «حمراء». جسورةٌ، جريئةٌ، معتدّةٌ بنفسها، ومحاربةٌ عنيدة تعشقُ الجمال والحياة. والأحمر في سواده الأعظم حياة. حياةٌ بكلّ ما فيها من عشقٍ وإثارةٍ وجمالِ روح.

بوضوح الأحمر وعفويّة أنثى تخاف خيانة الجسد وغدر السنين، تلقي ميار نظرةً سريعةً نحو جسدها. تتحسّس ذراعيها، تتفحّص ساقيها بفزع من يريد الاطمئنان عليهما من ترهّلٍ هنا أو تجعّدٍ هناك. ويأتي الجوابُ مُرضياً لكبرياء أنثى ما زالت في نظر نفسها مثيرة. اكتنازهما الصّلب وصفاء لونهما الخالي من كدمات الزمن وضرباته، كان ردّا كافياً بدّد مخاوفها وطمأن

قلبها أنّ جسدها لا يزال فتيّاً شهيّاً. لكن لم عليها أن تقلق؟ ألم يقدّم لها أمير الكلام ولأخرياتٍ وعداً منه عندما قال، سيّدةٌ تترك الأربعين بكامل مشمشها. هذا يعني أنّه لا يزال لديها متّسعٌ من الوقت كي تنعم بمشمشٍ طويل الأمد وعدها به شاعر فلسطين ووسيم رجالاتها. لا داعيَ إذن لكلّ هذا القلق. ثمّ إنّ الشعراء لا يكذبون. نعم لا يكذبون. هذا ما أكّده صديقٌ لها أحبّها يوماً بجنون الشعراء ومجون حروفهم، مقدّماً لها حبّه شعراً وعشقه مطراً من قصائد أشعلت غيرة الحبر وأثارت نيران الغيظ في نفوس بعضهنّ. ما زالت تذكر ما باح به قلبه يوماً عندما أرسل لها يقول، محظوظةٌ من أحبّها شاعرٌ. فالشعراء لا يكذبون. إن أحبّوا صدقوا وإن عشقوا حوّلوا حبرهم إلى أنهارٍ من عسل جاعلين من حروفهم قطائف وردٍ كسوا بها الحبيبة. لكن حذار ثمّ حذار من غيظهم وغضبهم. إن غضبوا فسيحرق حبرهم أخضر الحرف ويابسه، وإن طُعِنوا بسكين الخيانة أو تجرّأ أحدهم ومسّ شعرةً من طيف الحبيبة، تحوّلت أقلامهم إلى بنادق وحبرهم إلى رصاص، وأصبح فضاء شعرهم ساحة وغى وسماؤه أرض معارك. فلا تجرّبوا الشعراء فهم لا يكذبون.

مبتسمةً لحديثٍ قديم عفا عليه الزمن، ممتنّةً لحبٍّ صادقٍ أحاطها به يوماً صديقها الشاعر، تتناول زجاجة ماءٍ باردٍ كانت قد جلبتها معها إلى الشاطئ خشية جفافٍ قد يصيبها جراء هذا القيظ الحارق فقد شعرت بالعطش يزحف إلى حلقها لاسعاً حنجرتها ولسانها. ترتشف بعض جرعاتٍ منها تبلّل بها عطشها قبل أن تعاودَ التحديقَ والتّحليق بعيداً عبر هذا الهائج ولسان حالها يقول:

البحرُ ثقافةٌ منذ الأزل. سرٌّ من أسرار هذا الكون العظيم. كم

من الحضارات انتقلت عبره وكم من الثقافات تبادلتها شعوب وغذّتها أمم كان هذا العميق خير شاهدٍ لها. لا شكّ أنّه من الصّعب فهم تطوّر جميع هذه الحضارات وتاريخ هذه الثقافات دون المرور عبر هذا الأزرق الجميل.

لطالما أثار البحر بأسراره وتاريخه منذ بدء التّكوين وحتّى اليوم فضولها. أغرمت بقصصه المثيرة، بمغامرات أبطاله وأساطيره التي أدهشتها وسحرتها منذ أن كانت طفلةً صغيرة. ربّما طبيعتها المائيّة هي التي جعلتها مشدودةً إليه هكذا، أو ربّما كانت يافا وبحرها هما السبب وراء تعلّقها وولعها به. حكاياتٌ كثيرةٌ حدّثها بها جدّها عن يافا. عن بحرها وناسها الطيّبين، عن رحلات الصّيد والصّيّادين وشباكهم التي نسجت بخيوطها حكايا الزمن الجميل، عن أطباق السّمك الشهيّة التي كانت جدّتها تخصّ بها والدها كالصيّاديّة والسّلفوح المطبوخ بالفلفل الأحمر الحارّ والثوم والليمون، عن قصص التّهجير والتّرحيل وصمود من بقي من أهلها حتّى اليوم وعن نكبتهم التي ما زالت مستمرّة. جرحٌ يرفض أن ينفضَ عنه ذاكرة الألم والاغتصاب، يصرّ أن يبقى نازفاً ليذكّر بقضيّة شعبٍ عالقة.

لكن لماذا عليّ أن أستذكر كلّ هذا الوجع في لحظة صفاءٍ كهذه أنا بأمسّ الحاجةِ إليها؟ هل ينقصني وخز هذا الألم الآن؟ هذا ما يسمّى جلداً للذّات. أظنّ أنّني جئتُ إسبانيا كي أرتاح قليلاً وأنعم بقسطٍ من الاستجمام استعداداً للقادم، جئتها وروحي أشبه بقِدر ضغطٍ توشك على الانفجار، فما بالي أستحضر كلّ هذا الألم الآن؟ عليّ أن أتغاضى عن كلّ شيء من شأنه أن يكدّر مزاجي وينغّص عليّ لحظات الهدوء هذه.

تحاول الاسترخاء بعيداً عن أيّة فكرةٍ سوداويّة تراودها وتعصف بذهنها. ما تحتاجه فقط في هذه اللحظات هو الاسترخاء والانفصال عن واقع الدراسة والعمل وهموم الوطن. يكفيها ما رافقها في السنتين الأخيرتين من ضغوطات وجهدٍ وتعب. عملٌ جادّ ومضنٍ من الدرّاسة والبحث شكّل لها أرقاً مستمرّاً أجهدها جسديّاً وأرهقها نفسيّاً. فنقاش أطروحتها بات قريباً. بضعة شهورٍ وتنهي مسيرتها التعليميّة في جامعة برلين الحرّة لتنال بصورةٍ رسميّة لقب الدكتوراه في موضوعيّ الصّحافة والإعلام. بضع خطواتٍ وتصبح الدكتورة ميار يوسف. حلمٌ يوشكُ أن يتحقّق بعدما كاد أن يُجهض بمبضعٍ معادٍ وسامّ رفضه رحمها بعنادِ جنينٍ أصرّ على الحياة وعلى التشبث والبقاء رغم محاولات القتل المتعمّد.

لكنّ وجع الأوطان المسلوبة والمنهوبة حارق. حتّى في لحظات الفرح هذه يأبى هذا الوجع أن يفارقها. يصرّ أن يطاردها غارزاً أنيابه في لحم ذاكرتها مولجاً سمّه في ضميرها الذي يجلس الآن يستمتع بشمس إسبانيا وبحرها، وكأنّه نسي الوطن ونسي القضيّة. وكيف له أن ينسى وجميع مَن هنا من مستجمّين ومصطافين يذكّرونه في كلّ لحظةٍ وكلّ ثانية أنّه حالةٌ من التّعقيد والتّركيب لقضيّةٍ عويصةٍ مستعصية، أمّا هم فحالةٌ إنسانيّةٌ طبيعيّة، لبشرٍ يملكونَ دولةً وعلماً وهويّة.

نظرةٌ حزينةٌ تغزو عينيها المتعبتين، فيما يستمرُ الموجُ في مداعبة ساقيها الممدودتين ضارباً برذاذه خدّيها المتورّدين وجبهتها المتعرّقة. ومع هذه اللآلئ المائيّة التي أغرقت بلمعانها وجهها المشرق، تصحو عروس البحر في ذهنها من جديد لتعود

معها طفلةً تغوص في أعماق عالمها الكريستالي المحاطِ ببريق الكائنات البحرية المدهشة من نباتات وأسماك ومحار وقناديل بحر ومرجانٍ غمر يوماً طفولتها بألوانه الورديّة وأشكاله الغريبة السّاحرة. هي قصّةُ حبٍّ أمتعت طفولتها وأبكت قلبها وعينين صغيرتين غلبهما النّعاس، لكنّهما بقيتا تجاهدان في سبيل أن تظلّا مستيقظتين كي تشهدا خاتمة الحكاية. أعادت قراءتها مراراً وتكراراً ولم تملّ منها يوماً. أجمل العرائس كانت عروسها وأكثرهنّ إشراقاً وعشقاً.

لمحته من بعيد وهي تقوم بإحدى جولاتها البحرية فوق سطح الماء. مركبٌ ملكيٌّ ضمّ الأمير وحاشيته. افتتنت بهذا البشريّ الوسيم الذي ملأت قهقهاته فضاء البحر محتلّةً أعماق قلبها الرقيق. أحبّته بجنون عالمها البحريّ وعشقها لمكنوناته السحرية. أرادته حبيباً وزوجاً أبديّا لها، لكنها لم تكن تعلم أنّ الثمن الذي ستدفعه مقابل هذا الحب سيكون باهظاً. كان عليها أن تستغني عن ذيلها وتتنازل عن موطنها من أجل أن تحظى بحبّه والزّواج منه. هذا ما نصحتها به حوريّة البحر الشريرة.

«إن أردتِ أن تحظي بحبّه والزواج منه، عليك أن تتناولي هذا الشراب السحريّ الذي أعددته لك. لكن اعلمي جيّداً، أنّه حال تناولك لهذا الشراب ستفقدين ذيلك وموطنك إلى الأبد. هل سمعت؟ إلى الأبد. ستنبت لك بدلاً منه ساقان بشريتان تشكّلان جواز سفرٍ لك يمنحك فرصة الزواج من الأمير، لكنّك لن تستطيعي العودة أبداً إلى عالمك الأصليّ، إلى البحر، موطنك الذي نشأت وترعرت فيه. ستفقدين حقّك فيه إلى الأبد. تذكّري هذا جيّداً... ستصبحين آدميةً تنتمي لبني البشر ولن تستطيعي العودة إلى ما كنت عليه في

السابق، عروس بحر جميلة. سيكون هذا آخر يومٍ لك معنا هنا، في عالمنا، عالم البحار».

أخافها جدّاً مصير عروسها الجميلة. أحزنها أنّها أطاعت الساحرة الشريرة واستغنت عن ذيلها وموطنها مقابل حبٍّ خذلها في النهاية. أرعبتها فكرة حبّ من شأنه أن يفقدها الوطن. قاومت نزعاتها ورغباتها في العوم عميقاً في محيطات الحبّ والعلاقات الجديّة. فضّلت أن تبقي مرساتها على الشاطئ وتكتفي بعلاقات حبٍّ عابرة كان مصيرها في النهاية الفشل. كانت تدرك جيّداً هذا المصير وهذه النهايات. توقّعتها قبل أن يحلو مذاق شهدها في فمها. ظلّ وعيها واقفاً لها بالمرصاد كجنديّ يقظٍ التزم الحدود كي يرصد حركة كلّ عدوّ من شأنه أن يداهم أرضها في كلّ لحظةٍ وفي كلّ حين، فترى دواخلها تنتفض رافضةً أيّة علاقةٍ جديّةٍ في غربةٍ خافت أن يبتلعها فيها هذا الحبّ الذي يُفقدها بلادها وأهلها. ظلّت نهاية عروسها الأثيرة، ناقوس خطر يدقّ طوال الوقت في حجرات قلبها محذّراً من حبّ لها خارج الوطن. نهايةٌ حزينة كمعظم قصص الحبّ الملتهبة التي قرأت أو سمعت عنها. أو كقصّتها معه. تلك التي انتهت عندما غادرت يافا قاصدةً برلين. قصةٌ لم يلتئم جرحها بعد، رغم مرور كثيرٍ من الوقت على قرارها بتجميد حبّها وإلقائه في ثلّاجة الموتى استعداداً للتّكفين والدّفن. تتذكّره كثيراً. يزورها طيفه كلّما اشتدّ شوقها للبلاد وعصف الحنين بقلبها لتفاصيل صغيرة عاشتها معه. تذكره بحنين نحلةٍ تاهت في عيونٍ أهداهما الشّهدُ لونَ عصارته ولا يزال التّيهُ يلاحقها بحثاً عن العسل.

نديم... أين أنت الآن يا ترى؟ ماذا فعلت بك السّنون يا عشقاً صفقتُ بابي في عقر وجهه ذات خريف؟ كم كانت مهمّتي صعبة بل

كادت تكون مستحيلة وأنا أرسم لوحة وداعنا الأخير. لا أدري أيّة قوّةٍ تلك التي استوطنتني وأنا أقوم بدورٍ كاذبٍ مخادعٍ لا يناسب حبّي لك؟ أيّ جبروتٍ سند أنفاسي وأنا أقوم بنسج كلمات الوداع رغم الحبّ ورغم العشق ورغم الجنون؟ كنت أتساءل دائماً، كيف استطعتُ الدّوس على قلبي وأنا أخبرك بنيّتي في السّفر والرّحيل؟ كيف تجرّأتُ وتطاولت على ممالك الحبّ والعشق عندما قرّرتُ أنّني لن أستطيع الاستمرار في علاقةٍ تعاكسها الظروف ويعاكسها القدر؟ كنت تقف مذهولاً، تنظر إليّ غير مصدّقٍ ما تراه عيناك وما يسمعه قلبك. لم أعرف حينها معنى الخيانة ولم أعِ معنى الغدر إلّا حين سلّمتك بيدي لزمنٍ آخر لا يشبه زمننا. لا يشبه حبّنا. سلّمتك وعدوتُ هاربةً إلى قدري دون أن أفكّر ولو للحظة واحدة في الالتفات إلى الخلف. جبنتُ أمام وداعك. جبنت أمام الحبّ وأمام الموج وأمام البحر. بدا الأخير حزيناً حينها لا يتقن الحديث ولا يحسن الإقناع. كان الصّمت يرثي نفسه بنفسه ويرثينا بعد أن تقوّض جسرُ حكايتنا وانهارت جميع أفلاكه. لم تعد هناك نجومٌ تسطع ولا نيازك تلمع في سماء ما وعدنا به الحبّ. هوت جميعها في بحر الغياب إلى غير رجعة. لم يصدّق رفيق بداياتنا البحريّة أنّه سيكون أوّل من سيشهد نهاية قصّتنا الّتي غابت مع غياب شمس ذلك اليوم الخريفيّ الحزين.

تنهيدةٌ طويلةٌ شقّت صدر البحر وقلبه لفظها فمها الصغير حنيناً جارفاً لأيّام خلت باتت تحتاجها أكثر من أيّ وقتٍ مضى. كم تشتاقه وكم يقتلها حنينها إليه. منذ أن قرّرت إنهاء علاقتها به، لم تسمع منه شيئاً. كما لم تسعَ أن تعرف عنه أيّ شيء. كلّ ما تعرفه أنّه لم يتزوّج حتى الآن، وأنّه يقضي معظم أوقاته متنقلاً ما بين أوروبا والبلاد بحكم عمله كرجل أعمالٍ ووكيلٍ لشركة

حواسيب عالميّة. هذا ما سمعته عنه قبل فترةٍ وجيزة من صديقةٍ لها التقتها مصادفةً. كان انفصالهما انفصالاً يليق بحبّهما الكبير. انفصلا بكامل ما في هذا الحبّ من حبّ. أودعاه قلبهما باحترام ما كان عهداً بينهما ومضى، وغادراه مرغمين كي لا ينزف القلب أكثر.

لم يتضاءل عشقها للبحر وحكاياته يوماً. ظلّ يكبر داخلها رغم ما سبّبه لعروسها الجميلة من خيبةٍ وألم وما حمله في قلبها من أسى وذكريات. كغوّاصٍ احترف قطف اللؤلؤ عن عروشه البيضاء الساحرة، غاصت بعيداً في أعماقه. قربها منه وغرامها بتفاصيله المدهشة جعلها تبحث عنه في أعماق الرّوايات وعلى ضفاف الحكايات. كثيرة هي القصص الّتي أثارت مشاعرها وحرّكت عواطفها، وكان البحر فيها خير سفيرٍ للأدب الجميل. كان محرّضها الأوّل على القراءة والتفكير.

شجّعتني على قراءتها وأنا في سنّ الخامسة عشرة من عمري. قارئة نهمة شغوفة بالأدب والفنّ الجميل، كانت أمّي. ما أصعب أن تصبح أمّي فعلاً ماضياً ينصاع لمطبّات الشيخوخة والتواءات الزمن وتعليمات الأطباء. تبّاً لرمد العيون الذي أعيا عينيها فلم تعد قادرةً على القراءة أو حياكة الصوف أو نسج لوحات الجوبلين التي أحيت بها بيتنا الصغير، مالئةً فراغ جدرانه بالراقصات والحوريّات، وعاشقين تيّمهما الحبّ وجمعهما الموج والبحر ومغيب شمس. لا أذكر يديها الحنطيتين النحيفتين دون كتابٍ أو صحيفة، أو قطعة صوفٍ داعبت بخيطانها الملونة حضنها وأرض المكان وقضيبي حديد تعاركا في حربٍ حامية الوطيس طالما استهواني وأغراني متابعة صولاتها وجولاتها. يداها، عيناها، شفتاها، نبض قلبها، كلّ ما فيها كان ينطق أدباً

وفنّاً جميلاً. أذكر يوم جاءت به إليّ وقد نال البكاء منّي جانباً جراء خيبةٍ سبّبها لي أحد امتحانات الرياضيات اللعينة قائلةً، خذي هذا الكتاب، اقرئيه. كانت تلك رائعة همنغواي الشيخ والبحر. كتابٌ صغير الحجم لا يزال يحتلّ رفوف مكتبتنا الصغيرة بغلافه الأبيض والأزرق. أمسكتُ به وأنا أتمتم، لم أعلم أنّ للشيوخ أيضاً قصصهم مع البحر. أفضّل قصص العرائس والحبّ أكثر. ثنّت عليّ قائلةً، اقرئيه. ستتعلّمين منه الكثير. أمسكتُ به، خضت في تفاصيل العجوز والبحر والوجود، وفهمت لماذا تصرّ أمّي على أن أقرأه. أرادت أن تجعل من قصّة العجوز رقصتي الأبديّة مع الحياة. حافز يعلّمني أنّ لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس وأنّ على معركة العجوز أن تستمرّ حتى النهاية. كذلك هي معركتي. حينها أدركت فقط أنّ أيّ إخفاقٍ في الحياة يجب أن يزيدني إصراراً وتشبّثاً بالحلم وأنّ لا تنازل عن الأحلام مهما غلت الأثمان. وثقتُ بهذه الصمّاء التي أرادت أن تجعلها أمّي مصدر قوّةٍ وأملٍ لي وتحقيق أحلام. تماماً كما كانت لها دوماً مصدر دموعٍ وابتساماتٍ وفرحٍ وآهات.

تبعث بابتسامة شكرٍ وعرفان لمن علّمتها فنون الحياة، ولهذا الفيروزيّ الذي استمرّ في إغوائها واستمالتها طويلاً كي ترقص معه أجمل رقصاته على وقع أقدام السندباد البحريّ وموبي ديك وروائع كازانتزاكيس وحنّا مينة. كان جسدها ينتشي ابتهاجاً وهي تخطو كنسمةٍ بحريّة اعتلت ظهر موجةٍ حالمة، نحو ذلك الراقص اليوناني، تمسك بيده طمعاً في أن يعلّمها «زوربا» الرقص. حدّ أنّها سعت لأن تكون بلاده، بلاد الإغريق العظيمة، أولى الأماكن التي داستها قدماها. كانت أثينا أوّل محطّةٍ لها قصدتها خارج الوطن قبل أن تنطلق بعدها حيث السحر والجمال،

حيث العراقة والتاريخ والحضارة وبدء التكوين، حيث لا نهاية للحبّ ولا معنى للموت. عند سواحل الخلجان والشطآن اللازورديّة انطلقت في رحلاتها تجوب فضاءات الجزر اليونانية، مالئةً رئتيها بأنفاسِ آلهتها، مغذّيةً روحها بملاحم أبطالها الشعريّة.

هوذا عالمها البحريّ الذي عشقته حكاياتٍ زرقاء ومدى أحلام، يزورها اليوم مثيراً فيها المشاعر والرّقص على حبال الذكريات مغتصباً منها اعترافاً بعظمته وقدرته على سحرها. لكنّ رائحةَ حبٍّ قريبةٍ دهمت حضوره الطّاغي، خلطت أوراقه معها، بعثرتها، واضطرته إلى التّنحّي جانباً كي يفسح الطريق لعاشقين اختاراه ملعباً لحبّهما، جاعلين من الموج فراشاً للهوهما.

كانت تنظر إليهما يعتليان الموج. يتراشقان بالمياه والقبل. يطبعُ هذا قبلةً خلفيّة على عنق فتاته غير آبهٍ بإخفائها عن عيون الموج وفضول البشر. تضحكُ هذه ضحكةً تزيدها تمسّكاً والتصاقاً به ما أربك ميار وجعل من الأفق البعيد وجهةً لنظراتها الخجلة. ومع كلّ موجةٍ ضربت جسديهما المشتعل حرّاً وشوقاً، كانت أعماقهما العاشقة تضطرب من جديد ومعها تضطرب نظرات ميار ويبكي قلبها شوقاً لنديم. كان الهواءُ في تلك اللحظة كثيفاً مالحاً بطعم حبٍّ ينوءُ تحت وابلٍ من الذّكريات والقبل. حالةٌ من هيجانِ بحرٍ وهيجان عاشقين واضطراب فتاةٍ لا يلتفت إلى ارتباكها أحد. حتّى ذلك الصّغير الذي بات يقترب منها مدغدغاً قدميها بشيءٍ من اللامبالاة، لم يعد يكترث لارتباكاتها ولا لما يعتريها من أحاسيس.

يشتدّ هيجان البحر، فيشتدّ العناقُ وتذوب القبل ملحاً يحرق الشفاه ويكويها. أيّ سحرٍ هذا الذي جعل قبلةً واحدةً تستحضرُ كلّ

هذا الشوق، مثيرةً فيها كلّ هذه الأحاسيس والتخبّطات وحساباتها القديمة مع الخلف؟ الخلف الذي أرهقها تخلّفاً وخلافات وشكّل لها اسماً مرادفاً للفشل؟ ها هي تشتهيه اليوم قبلةً خلفيّة يطبعها أحدهم على عنقها. تتلاطمُ الأفكارُ في رأسها كتلاطم شهوةِ هذين العاشقين. فكلّما ازداد هيجان البحر وغلت ثورة الحبّ على سطحه، كلّما اهتاجت أفكارها واشتدّت تخبّطاتها أكثر فأكثر. ماذا تريد بعد من هذه الحياة؟

كثيراتٌ يغبطنها لما حقّقته من نجاحاتٍ علميّة وإنجازاتٍ مهنيّة زيّنت بها رحلتها الطويلة في قلب قارةٍ أوروبية هزم البرد فيها دفء المواقد في الوطن ونخرت فيها الغربة لحم عظامها الليّنة الطريّة. فميار مثالٌ لجيلٍ فلسطينيٍّ ألهبه جمر أحلامه. أحلامٌ سعى إليها بعزمٍ وإصرار قابضاً على جمر الحياة بكلتا يديه. مضى وفي عروقه تسري دماء التحدّي وشموخ الآمال الكبيرة محاولاً الوثوب فوق زمنٍ أثقلته هزائم الماضي وأحبطته الانكسارات التاريخيّة المستمرة. لم تفكّر في الزّواج حتّى الآن. حتّى عندما تجرّأ قلبها وأحبّ نديم، لم تترك لقلبها قيادة دفّة مستقبلها. لم تدعه يتحكّم في عقلها. استطاعت أن تكبح جماح مشاعرها وتجعل من العقل سيّد الموقف رغم صغر سنّها في ذلك الوقت. كانت تعلم جيّداً أنّها لو خيّرت بين السّفر والدّراسة، وبين قلبها وحبّه، لاختارت الأوّل ضماناً لها ولمستقبلها. فمستقبل كثيرين مثلها لم يعد آمناً في بلادٍ لم تُبقِ لها وللأجيال القادمة غير إمكانيّة التسلّح بالعلم. به يتسلّحون، وبه يحاربون، وبه يعمّقون وجودهم في فلسطين. لم تنسَ يوماً حديثهما. بقيت ذاكرةً له، حافظةً لكلّ حرفٍ قاله «أبو سامي» أحد أصدقاء عائلتها المقرّبين عندما جاء وزوجته ليودّعاها، كما جرت العادة، قبل مغادرتها يافا قاصدةً برلين.

- كلّ التّوفيق نتمناه لك يا ابنتي. هكذا نريدكنّ بطلات نرفع بهنّ الرؤوس. هذا ما عليكم، أنتم الجيل القادم، السعي إليه والتسلّح به. العلم. هو كلّ ما تبقّى لنا هنا في هذه البلاد. هو الأمر الذي طالما أقلق نوم المؤسّسة الحاكمة وشكّل صفعةً للمؤسّسات الصهيونيّة الّتي سعت طوال الوقت كي نبقى نحن، المواطنين العرب، مهمّشين سقاة ماءٍ وحطّابين. احترامي الكبير لك يا ابنتي ولخطوتك الجريئة هذه. تقاطعه أم سامي وهي تبدي انفعالاً شديداً من حديثه.

- هذا ما ذكّرنا به سامي وسمر دائماً. العلم ثمّ العلم. لم نتنازل يوماً عن فكرة تعليمهما الجامعيّ. كانا يعيان تماماً أهميّة هذا الأمر ويحسبان له ألف حساب. قلنا لهما أنّنا على استعداد أن نبيع كلّ ما نملك من أجل أن يكملا تعليمهما ضماناً لمستقبلهما. مسترسلةً في حديثها وانفعالاتها تصوّب نظرها نحو والدي ميار:

- كلّ الاحترام لكما. قد لا يكون من المفهوم ضمناً تفهّمكما ودعمكما لقرارها لكن هذا الدعم يستحقّ كلّ تقدير. وفقّها الله

مؤكّداً على ما قالته زوجته، يتابع أبو سامي ما سبق من كلام موجّهاً حديثه للجميع:

- يا إخوان هذه صيرورة تاريخيّة واكبنا مسيرتها نحن أبناء هذا الجيل، جيل النكبة، خطوةً بعد خطوة. تغييرات كثيرة شهدها ولا يزال يشهدها مجتمعنا العربيّ الفلسطينيّ هنا داخل إسرائيل. ألا تلاحظون التزايد المستمرّ في الإقبال على التّعليم والدّراسة خاصّةً بين فتياتنا ونسائنا؟ هذه مثلاً إحدى التغييرات التي لمسناها بشكلٍ كبير في العقدين الأخيرين على وجه التحديد. أردنا بها ترسيخ وجودنا وبناء مستقبلٍ واضحٍ وثابت لنا في هذه

البلاد. بلادنا. والبنت اليوم مثلها مثل الشاب إن لم يكن أكثر. باعتقادي أنّ هذا أقلّ شيء يمكننا تقديمه للأجيال القادمة وخاصة لبناتنا. بذل كلّ ما نستطيع لدعمهنّ ودعم مسيرتهنّ التّعليميّة.

يوافقه الجميع. تحلو السهرة ويطول الحديث وينضمّ للجلسة آخرون جاؤوا هم أيضاً لوداع ميار. مؤازرةٌ لطيفةٌ يحاول من خلالها الجميع التخفيف من وطأة الغربة القادمة ووحشة الغياب القاتلة. فجميعهم يدرك أيّ فراغٍ ستترك وراءها ميار وكم سيكون غيابها صعباً على والديها.

تشعر بسخونتها تكاد تحرق خديها وهي تستعيد تفاصيل تلك الزيارات الدافئة التي غمرهم بها الجيران والأقارب والأصدقاء في الليالي التي سبقت سفرها. تمسحها بأطراف أصابعها محاولةً ألّا يثير ما علق بكفّيها من ملحٍ وجنتيها المتوهّجتين وعينيها الدامعتين. يختلط عليها طعم هذا السائل المالح الذي تسلّل إلى شفتيها حاملاً معه بعضاً من دمعها، وبعض قطرات تاهت فيها أهي عرقٌ تصبّب من جبهتها أم رذاذ ماءٍ رماها بها هذا الغاضب؟ الدمع لا يعني الندم أبداً كما البكاء لا يعني الحزن. لم تشعر يوماً بالندم لاتّخاذها هذا القرار المصيريّ الذي استدعى سفرها خارج البلاد رغم علمها المسبق بما سيتركه قرارها من أثرٍ كبيرٍ في نفسها ونفس والديها. لم تشأ أن تغيّر مجرى الحلم. دعته يجري كما الأقدار. كما الهواء في صدر طفلٍ وليد تنشّق لتوّه إكسير الحياة. ساعداها في ذلك. كانا على قناعةٍ تامة بضرورة دعمها بعد أن عصفت رياح اليأس بها وسدّت في وجهها طرق الدّراسة في بلادٍ أصبحت فيها كلمة الحقّ سوط رعبٍ يسلّطه قائلوها على رقاب الجلّادين. شجّعاها على دراسة ما

حلمت به دوماً، الصحافة والإعلام. حضنا حلمها في أن تصبح محاضِرةً جامعيّةً أو إعلاميّةً مشهورة كما تاقت نفسها دائماً، رغم أنّ القلب كان ينزف وجعاً لفراقها. داسا على هذا القلب الذي ربّى ودلّل ورقص انتظاراً لمجيئها، عندما أدركا أنّ أبواب الدراسة جميعها أوصدت في وجهها وأنّه ليس هناك من حلّ سوى المضي معها قدماً نحو حلمها ونحو هدفها السّاعي إلى إنصاف قضيّة شعبها وإسماع صوته في فضاءات عالمٍ يحاول فيه المغرضون تشويه التّاريخ وتزويره، من خلال روايةٍ سردوها وخاطوها بما يناسب مقاساتهم ومخطّطاتهم. شعرا برغبتها في أن يكون قلمها وصوتها سفيراها إلى العالم. قوّتها الإنسانيّة والحضاريّة الّتي تحارب بها وتقاوم من أجل نيل الحريّة وإحقاق الحقّ والتّوكيد على الوجود. آمن والداها أنّ معركة ميار هي معركةٌ حضاريّةٌ طالما أعلنها قلمها صرخةً ضدّ إبادة تاريخ وضدّ تجذّر الرّوايات المزعومة فيه. نضالٌ مشروعٌ لدحر الظّلمِ عن جبين شعبٍ يرزح تحت احتلالين، احتلال الأرض واحتلال المستحيل. مستحيل طمس الهويّة والثقافة واللّغة، ومستحيل سلب مسمّيات المكان وانتحال الزّمان.

ويأتي حكم سارة فنكلشتاين الجائر ليبتر حلمها وهو لا يزال هلالاً في مهده. سحابةٌ من دخانٍ أسود ارتفعت كسدٍّ منيعٍ في وجه طموحاتها حاجبةً عنها نور فجرٍ حلمت بلقائه. بإصرارٍ عنيد، رفضت الانصياع لهذا الدخان الذي طاول سواده العنان. انتفض حلمها بكلّ عنفوان دافعاً بها خارج مساحات الليل المظلمة، متتبّعاً بزوغ فجرٍ جديد تشهد فيه اكتمال البدر لحلمٍ قادمٍ آت.

في إحدى مدارس يافا تنهي ميار دراستها الثانويّة. يتمّ قبولها في إحدى الجامعات الإسرائيليّة لما طمحت إليه دوماً،

دراسة الصّحافة والإعلام. هناك يبدأ مشوارها وتزهر أحلامها. تلمعُ في دراستها منهيةً سنتها الأولى بنجاحٍ منقطع النّظير، فارضةً حضوراً مميّزاً بين الطلاب والمحاضِرين. حتّى الآن كلّ شيءٍ يبدو على ما يرام لا يوحي بأيّ خلل. تدخل عامها الدراسيّ الثّاني، وشهقات الفرح لا تزال ترافق خطواتها الواثقة. تنهي فصلها الأول بنجاح باهر مباشرةً الاستعداد لامتحاناته.

هناك وعلى بياض الورق يتعثّر حلمها ويكبو. يسقط كسقوط الجياد الأصيلة إن كبت إنّما لتنهض بعدها وتتابع سيرها قافزةً نحو القمم. يبكيها الورق ويبكيها العدل وتبكي هي حظّها. تكبو مرة واثنتين وثلاثاً معاودةً النهوض في كلّ مرةٍ وهي تزيل عنها تراب السّقوط من أجل إكمال الطريق. والسبّب أجوبةٌ طرّزتها على ورق أحد الامتحانات أزعجت «ضمير» أستاذها لأنّها عبّرت فيها عن الأنا الجمعيّة، عن آلام شعبها ومعاناة متقّفيه النازحين. لم تلائم أجوبتها إيديولوجيّة أستاذها العنصريّ، فرسبت في الامتحان وسقط هو بين براثن فكره العنصريّ ومصداقيّة مهنته. اختيارها لغسان كنفاني ابن يافا، ابن بلدتها المنكوبة، كنموذجٍ لذلك الصحافيّ الفلسطينيّ الذي عاش النّكبة والتّهجير ورحلة النزوح بدءاً من يافا فدمشق انتهاءً ببيروت، لم يعجبه. أغاظه أنّها كتبت بألم المهّجرين النّازحين الذين أرغموا على ترك بلادهم وبثقة من يملك حقّا في هذه البلاد. استفزّه تماهيها مع أدقّ تفاصيل الرواية لمسيرةٍ طويلةٍ عاشها هذا الكنفاني بين الصحافة والأدب والمقاومة. بعزيمةٍ وإصرار تتقدّم مرّةً أخرى للامتحان، وترسب ثانيةً وثالثةً مستوفيةً الثلاث المتاح بها ولسان قلمها يصرّ في جميعها على إطلاق صرخته قائلاً، لن تستطيعوا هزم أعماق الرواية ولن تنجحوا في إخراس أقلامنا وأصواتنا.

تلتصق كلماتها بفكرها لا تتزحزح عنه قيد أنملة. تتمسّك بما آمنت به طوال الوقت تمسّك النّاسك بالله وكتبه وقيامته، فيقومون بتقديمها للجنةٍ خاصّةٍ من أجل أن تبتّ في أمر دراستها المستقبليّة. ويأتي القرار لا لَبس فيه.

ليست ملائمة للعمل الصحافيّ مستقبلاً. ننصحها بتغيير موضوع دراستها. هناك إمكانيّة أخرى أن تعيد فيها سنتها الدّراسيّة الثانية، ربّما تنضج وتصبح أكثر موضوعيّة وعقلانيّة في تحليلاتها ونقاشاتها.

لجنةٌ مكوّنة من ثلاثة أعضاء، ترأسها الدكتورة سارة فنكلشتاين. المرأة التي عرفها الجميع بقوّتها العسكريّة والأكاديميّة. عيّنتها الجامعة قبل عدّة سنوات مسؤولة عمّا يواجهه الطّلاب من مشاكل وصعوباتٍ دراسيّة. تجلس سارة مع زميلين لها للنّظر في أمر رسوب ميار المتكرّر في امتحان «أخلاقيات المهنة»، آخذين بعين الاعتبار ما ادّعاه أستاذها وما كتبه عنها من تقييم. يتمّ استدعاء ميار لتدلي بما لديها من أقوال وكأنّها في محكمةٍ عسكريّة تنتظر إدانتها بجرم اسمه «عشق الوطن». يستمع ثلاثتهم إلى أقوالها الواثقة غير المتأتئة، يتمّ التداول فيما بينهم في أمرها ثمّ يطلبون منها الانتظار خارجاً ريثما يبتّون ويدلون بقرارهم الأخير في شأن دراستها.

في الانتظار يرافق المحبّون حبيباتهم، حيث الخوف من القادم أشبه بانتظار موتٍ لم يبلّغ عن لحظة وصوله. موتٌ من شأنه أن يغافلك في كلّ لحظة لا تتوقّع حدوثها. منتظراً معها خارج الغرفة، يجلس نديم محاولاً طمأنة ميار أنّ كلّ شيءٍ سيكون على ما يرام. كان حبّهما في أوجه بحيث لم يستطع أن يتركها

وحدها تواجه مصيرها الدراسيّ. أصرّ على مرافقتها ودعمها حتّى النهاية.

جلسا صامتين ينتظران نتيجة القرار وفي العيون ترقّبٌ حذرٌ لما سيؤول إليه هذا الاجتماع. كان يمسك يدها مطوّقاً راحتها اليسرى بكلتا يديه عندما خرجت سارة فجأةً من الغرفة معلنةً انتهاء الاجتماع. نظرت إليهما مبتسمةً بخبثٍ بدا واضحاً لكليهما، موجّهةً حديثها إلى ميار:

- من هذا؟ صديقك؟

- زميلي...

قالت وهي تُبعد يدها عن يده وتبعث بنظرات غضبها نحو سارة كنوعٍ من التّحذير أنّها تعدّت حدودها واخترقت بسؤالها هذا خصوصيّتهما.

غير أبهةٍ لنظرات ميار الغاضبة تفجّر سارة جملتها في وجه ميار وهي تنظر إلى نديم قائلةً بخبثٍ لم تجتهد في إخفائه: ليس من الخطأ أن تتزوّجي يا عزيزتي وتبني أسرةً. لن ينتهيَ العالم هنا إن لم تصبحي صحافيّة. فالحياة الأسريّة مهمّة جدّاً أيضاً. أنصحك بالتفكير في هذا الأمر. قالتها وهي ترمق الحبيبين بنظراتٍ نضحت خبثاً شعرت معها ميار بالازدراء والإهانة لها ولحلمها ولمستقبلها مع نديم. جملةٌ غلّفتها سارة بحرصٍ كاذبٍ لمستقبل فتاةٍ لم ترَ في هذه المرحلة من حياتها غير دراستها وتعليمها كمستقبلٍ آمنٍ لها يليق بها وبقدراتها الذهنيّة. تغادر ميار جامعتها رافضةً كلّ اقتراحٍ جاء في فحوى القرار.

- لن أستبدل موضوعي الدّراسيّ بآخر. أرجو أن تفهماني

جيّداً. فأنا لا أرى نفسي خارج دائرة الصحافة والإعلام. هو الهواء الذي أتنفسّه، بدونه لا أحيا.

تحاول والدتها إقناعها بقبول الاقتراح الذي يقضي بإعادة سنتها الدراسية الثانية.

- وماذا عن إمكانية إعادتك لـ...

فتقاطعها ميار:

- لن أعيد عامي الدراسيّ الثاني. لن أقبل بهذا الاقتراح. هذا هو الظلم بعينه يا أمّي وأنا أرفض الظلم جملةً وتفصيلاً. لن أستمرّ في دراسةٍ تحيط بها كلّ هذه الأجواء العنصريّة المسمومة.

- وما الذي تنوين عمله الآن؟ يسألها والدها.

- لا أدري. عليّ أن أفكّر مليّاً في هذا الأمر. وأرجو أن تساعداني في قراري هذا يا أبي.

في البداية كان من الصعب عليها إقناع والديها بضرورة العمل بعدما توقّفت عن الدراسة وغادرت جامعتها إلى غير رجعة. لكنّها عادت ونجحت في إقناعهما بأنّ عليها أن تعمل كنوع من قتل الوقت وكمساعدةٍ منها أيضاً في تمويل دراستها القادمة التي بدأت بشائرها تظهر خارج البلاد. في أحد فروع «ماكدونالدز» المنتشرة في مدينة تل أبيب، عملت ميار ما يقارب السّنة كعملٍ مؤقّتٍ قبل أن تنتقل بعده للعمل في أحد المجمّعات التجارية الكبيرة كبائعةٍ في أحد محلات بيع الملابس الموجودة هناك. في هذا المكان عملت سنةً إضافيّة قبل أن تحزم أمتعتها استعداداً للسّفر.

في برلين، هذه المدينة المثيرة، انطلقت ميار تحمل أحلاماً

كبرى بحجم حبّها لفلسطين ولبلدتها يافا. تحديداً في جامعة برلين الحرّة Freie Universität Berlin كان لقاؤها مع العلم استعداداً لنيل الدكتوراة. لقاءٌ أرادت له سارة الموت قبل عقدٍ من الظلم بل أكثر. لكنّ صنّاع الحلم لا يستسلمون ولا يرضون بالموت لهم طريقاً. يعرفون جيّداً كيف للأحلام أن تزهر وكيف لها أن تنمو وكيف تصبح واقعاً يؤرّق منام من قصدوا اغتيالها وتمنّوا لها الموت. في هذه «الحرّة» يتجدّد لقاء ميار مع الأحلام ومع الحريّة، ومع رقم عصيّ على الموت والنسيان. صرحٌ تعليميٌّ سيبقى عام إنشائه تاريخاً يرافق نكبة شعبها. فللأقدار يدٌ سخيّةٌ تعرف كيف ترتّب الأحلام والأرقام وتصفّي الحسابات. فهي لا تحتاج مشورةً من أحد ولا تنتظر إذناً من أحد كي تقوم بواجبها على أتمّ وجه. تتبع ميار حلمها بعزيمةٍ وإصرار، جعلاها تتصدّر قائمة الطلاب المتفوّقين في موضوعي الصحافة والإعلام على مدار سنوات دراستها جميعها. في هذه الجامعة البحثيّة، والتي تعتبر الأكبر بين جامعات برلين الأربع وإحدى جامعات الصّدارة في ألمانيا بل في القارّة الأوروبيّة كلّها، تنهي ميار لقبها الأول في الصّحافة والإعلام بدرجة تفوّق، متزوّدة بزادٍ ثريٍّ من المعرفة والفكر، مقبلةً بشغفٍ على الاستزادة من الثقافة الأوروبية والعالمية من خلال قراءاتها الكثيرة وانخراطها الكبير في المجتمع الألماني المثقّف. تبدأ بترسيخ أقدامها عميقاً داخل المجتمعات الأكاديميّة والصحافية في برلين، تلمع في دراستها وتتميّز، الأمر الذي يمكّنها من إيجاد عملٍ لها كمراسلة لإحدى الصحف الألمانيّة، استطاعت من خلاله أن توصل رسالتها ورسالة شعبها التي عبّرت فيها عن آلامهم وآمالهم وطموحاتهم. ما بين الدراسة والعمل كان سفرها طويلاً. قطعت فيه مسافاتٍ اكتفت في

بعضها بالعمل فقط ريثما تستجمع قواها وتواصل من جديد مسيرتها التعليمية.

- لا نريدك أن تشغلي بالك أبداً يا ابنتي في كلّ ما يتعلّق بتمويل دراستك أو إقامتك أو معيشتك اليومية. أنا ووالدتك قمنا بترتيب جميع هذه الأمور مسبقاً واحتطنا على ذلك منذ صغرك وأنت تعلمين ذلك جيّداً. هناك مشروع التوفير الخاص بدراستك، وهناك معاش التقاعد الخاص بي وهذا يكفينا نحن الثلاثة. كلّ ما نريده منك هو الاهتمام فقط بدراستك وجامعتك وإنهاء مشروعك التعليميّ بأسرع وقت ممكن. أمّا بخصوص دراستك للّقب الثاني فلا نرى أيّ داعٍ للتّأجيل خاصةً أنّ لديك جميع الإمكانيات التي تؤهلك لمباشرة دراستك وفوراً.

- أبي... أرجوك أن تسمعني جيّداً. أتفهّم وجهة نظرك وأقدّر كلّ كلمة قلتها. لكنّ العمل ضروريّ جدّاً بالنسبة لي خاصّة في هذه المرحلة بالذات. أنت تعلم ماذا يعني لي العمل. هو بالنسبة لي وجود وكيان وشعور بالمسؤوليّة... مسؤوليّة الرسالة التي من أجلها سافرت وتغرّبت وتركت البلاد. هل تفهمني يا أبي؟ هذه ليست المرة الأولى التي أعمل فيها وقد تحدّثنا سابقاً في هذا الأمر. أنت بالذات خير من يعلم أيّ شعورٍ يمنحني العمل. لقد تعدّى كونه مصدر رزق لسدّ حاجةٍ لي هنا أو هناك فأنتما لم تقصّرا أبداً في تلبية احتياجاتي ولم تتخلّيا يوماً عن دعمي. تقديري كبير لما تبذلانه من أجلي لكن الرسالة التي أحملها أكبر بكثير من أن أجلس وأحصي ألقاباً وشهادات أعلّقها على الجدران. عليّ أن أعيش التجربة الصحافيّة على أرض الواقع. الصحافة تعني لي الكثير. لا تنسى أنّني من أجلها تغرّبت وتركت البلاد.

ـ أفهم من حديثك أنّ إقامتك في برلين ستكون طويلة يا ميار، وأنّنا ما زلنا في أوّل المشوار. هكذا ستطول الغربة يا ابنتي.

ـ عائدة يا أبي... عائدة. لا تقلق. سأعود. كن واثقاً بما أقول.

عيونٌ كثيرة تنصبّ عليها كأستاذةٍ جامعيّةٍ لها مستقبلٌ لامع. يبدأ مشوارها الأكاديميّ يأخذ طابعاً بحثيّاً أكثر جدّية بعدما أنهت لقبها الثّاني بدرجة امتياز، مثيرةً انتباه أساتذتها وطمعهم في مرافقتها مسيرتها الدراسيّة للقبها الثالث.

موجةٌ أخرى تصفعها بملحها وشهد ذكرياتٍ تدفّقت كأشعة شمسٍ اخترقت بدفئها غيوم يوم باردٍ في برلين. كانت دائمة التّساؤل حول مدى رغبتها في ترك علامةٍ مميّزة في عالمٍ شكّكت فيه أنّ الأطفال هم ذلك الشيء الوحيد الذّي يضمن لها استمراريّة الوجود على هذه الأرض. هل من المعقول أن تكون سارة هي السبب وراء هذا كلّه؟ هل من الممكن أن تكون نصيحتها لها في يومٍ من الأيّام قد أثارت ردّ فعلٍ عكسيّ لديها جعلها تبتعد عن فكرة الإنجاب والولادة كي تثبت لنفسها أنّها لم تولد فقط للزواج والإنجاب؟ وهل فعلاً هي لا ترغب في إنجاب طفلٍ يشاركها رحمها وأنفاسها ووجودها كلّه؟

هل هناك أجمل من طفلٍ يكبر معي، يكون امتداداً لي، لجذوري؟ أزرعه سوسنةً شامخةً في أرض آبائه وأجداده، أسافر معه عبر الحكايات الجميلة ويسافر معي عبر ذاكرتي القديمة. أحدّثه عن يافا التي كانت، أقصّ عليه قصص أهلها وبساتينها وصمود من بقي منهم. سأجعل البحر رفيق حكاياتنا الدائم. أصطحبه إليه كلّ يوم. إلى الميناء الذي بات حزيناً وغريباً بفعل أنفاس الغاصبين الظالمين. هناك سأروي له الكثير من الحكايا. تماماً كما رواها لي جدي يوماً. طفلٌ، يحمل هموم وطني وأمل

العودة، مثلي تماماً. أحقّاً لا أرغب في طفلٍ كهذا؟ تبتسم لطفلٍ صغيرٍ تراءى لها جالساً على شاطئ البحر في يافا، يستمع إليها وهي تروي له الحكايات وتقصّ عليه الذكريات، ينتظران معاً عودة الغائبين.

إلحاحٌ مستمرٌّ ودائمٌ بضرورة الزواج وتكوين أسرة شنّتهُ كحرب عليها أمّها والجدّات منذ اللحظة الأولى التي كانت تطأ فيها قدماها أرض الوطن. محاولاتٌ جادّةٌ لإقناعها بأنّها مهما حصّلت من درجات علمٍ ومعرفة فإنّ هذا لن يغنيها عن التفكير في الزواج والإنجاب والارتباط بشريك عمرٍ يكون لها سنداً وعوناً. هذه الأهزوجة من هذا الكورال الحبيب أصبحت بمثابة أهزوجة صيفيّة كرّرتها الحبيبات وغنّينها بصوتٍ واحدٍ كلّ عطلة صيفٍ زارت فيها يافا. أمّا صديقاتها اللّواتي تزوّجن وأنجبنَ، فقد بدأت تفصلها عنهنّ مسافاتٌ شاسعة من اختلاف فكرٍ ونهج حياةٍ مارسنهُ لم يكن ليناسبها أبداً. ها هي أسماؤهنّ الهاربة من أراجيح الطفولة الضاحكة وأحاديث الصّبا الممتلئة بالآمال والأحلام تطفو أمامها بحراً من ذكريات مثيرةً بتموّجاتها الراقصة على سطحه قلبها الصغير اشتياقاً لهنّ. نورا، جيدا، أمل، وجوهٌ تغيّرت ونفوسٌ تبدّلت، معها تغيّر لون الوجود وشحُبَ لون خرائط العمر. مِزقٌ من صورٍ وذكريات تحاول ميار بعثها وربطها بسلاسل من حديد كي لا ينقطع وصلُها معهنّ رغم المسافات الشاسعة التي بدأت تفصلها عنهنّ. لم تُخْفِ امتعاضها يوماً عن صديقتها عندما أخبرتها الأخيرة عن نيّتها ترك ميدان العمل من أجل البقاء في البيت والاهتمام بالأولاد والزوج. ساء ميار أن تتنازل نورا المبدعة عن حقّها في العمل لأنّ زوجها طلب منها ذلك بحجّة أنّ مصلحة الأولاد هي فوق أيّ اعتبار. بدا عليها

الانزعاج وسارعت إلى إقناع صديقتها بضرورة رفض هذا الإملاء الذي فرضه عليها زوجها وواقعها الجديد. لم تستسغ فكرة رضوخ نورا المغلّف بحجج واهية لواقعٍ لا يليق بإبداعاتها الفنية، كعدم استساغتها لحديث جيدا الدائم معها بلغةٍ ترنّحت بين العربية والعبرية هي أقرب منها للأخيرة. لطالما طلبت من جيدا عدم إقحام الدخلاء أرض الضّاد المقدسة، والحفاظ عليها سليمة أثناء حديثها معها معبّرةً عن اندهاشها من هذا الانصهار غير المسبوق الذي بات جزءاً من هويّتها الخطابية. حتى المواضيع التي باتت تُطرح أمامها عند لقائها بهنّ، بدت غريبةً عنها. عن عالمها الجديد. كثير من المظاهر البرّاقة والشكليّات الفارغة التي لم تناسب ذهنها ولم تقنع فكرها. رغم هذا كلّه ما جمعها بهنّ من صبا جميل وأيّام دراسيّة وذكريات شقيّة، كان أكثر بكثير من أن يفرّقهنّ. بقيت مخْلصةً لهنّ وللزمن الجميل الذي عاشته معهنّ فلم تبخل عليهنّ بلقاءٍ بين حينٍ وآخر حين كانت تزور يافا.

وتعود الأفكار تتناحرُ في ذهنها. عالمٌ مركبٌّ يمتدُّ وراءها بكلّ تفاصيله الدّقيقة التي أفرحتها يوماً وأحزنتها أيّاماً. مجتمعٌ فلسطينيٌّ يعاني غربة انتماءٍ داخل مجتمعٍ إسرائيليّ يحاول طمس هويّته وتغذيته ببذور لغته وسطوته وأسطورة بقائه على هذه الأرض كشعب الله المختار. كلّما اتّسعت تجاربها في الحياة واشتدّ عودها، برز المشهد أكثر وباتت الرؤية أشدّ وضوحاً. مجتمعٌ فلسطينيّ يعيش انتقالاً مركّباً صعباً وسط ضجيج الحداثة يحاول فيه الحفاظ على ملامح هويته الأصلية وعلى تراثه وعاداته، مع تحدّيه الأكبر، التصدّي لوجود هذه «الأسطورة» كواقعٍ عليه التعايش معه دون أن يفقد من جيناته الأبيّة شيئاً.

عراكٌ مستمرٌّ لأفكارٍ لا تهدأ رغم قرارها بالسفر والابتعاد

ومنح روحها هدنةً من تعب دراسيّ وذهنيّ لازمها في الفترة الأخيرة أرهقها كثيراً وأثقل روحها بضغوطاته. سفرها إلى إسبانيا جاء كمحاولة منها أيضاً للإفلاتِ بنفسها من بلدٍ بدأ يضيّق الخناق عليها بثقلِ ساعاته وحبّه الخانق لها رغم عشقها له وانتظار زيارته الصيفية بفارغ الصّبر. فأيّام العطلة في يافا عادةً ما تكون مبهجةً في البداية، إلّا أنّها سرعان ما تتحوّل إلى ساعاتٍ من الرّتابة والملل القاتل لوقتٍ علّمتها الغربة كيف يكون ثميناً. لذلك كان لا بدّ من هروبٍ مؤقّتٍ تقتطعه من عطلتها الصيفيّة تعيدُ فيه إلى النفس اتّزانها تاركةً وراءها صيفاً ملتهباً في بلادٍ أرهقتها خرافاتها وأتعبتها خلافاتها.

نافضةً ما علق على جسدها من رملٍ ورائحة طحالب، وما أثقل روحها من ترانيم قديمة مفعمة بالشّوق والحنين لذكرياتها وخيباتها العاطفيّة، مضت حيث الأصدقاء ينتظرون، في مكانٍ ما على هذا الساحل الرمليّ.

من هذه البقعة الذهبيّة المطرّزة بخيوط الشّمس والذّهب، أكملوا سيرهم لينتهي بهم المطاف عند الذي حمل اسمه وإرثه جبلاً ومضيقاً فاصلاً بين البحر والمحيط.

على قمّة هذا الشّامخ العملاق، وقفت ميار مع عشرات السائحين القادمين لرصدِ ما رواه التاريخ عن كثب من قصصٍ وبطولات، مدجّجين بكاميراتهم الحديثة وهواتفهم النقالة، جاهزين لالتقاط وتوثيق لحظاتٍ غفت صورها على زند تاريخٍ لمّا تستفق منه بعد. لحظاتٌ حيّةٌ بقيت متشبّثةً بأجساد أبطالٍ فتيّةٍ وسواعدَ قويّة غزت وحاربت واستوطنت بلاداً جعلت منها في يومٍ من الأيّام حاضرة العالم ولؤلؤة الغرب.

ماضيةً في مركبة الماضي مقلّبةً صفحات تاريخه البعيد، يشردُ ذهنها بحثاً عن تفاصيلَ صغيرة سكنت سراديبه الخفيّة، محاولةً تحفيز ذاكرتها على تذكّر ما قرأته عن تاريخ هذا المكان واستعادة ما تعلّمته من أحداثٍ جرت على أرضه. تغيبُ قليلاً عن واقعها ضاربةً بعرض الحائط حصاره الدّامي لخاتمة الرواية، وإذا بها تلمحُ طيفه يمرّ أمامها فارضاً عليها سلطته، لافحاً بأنفاسه وجهها، مبتسماً لها ولانفعالاتها الشّاردة بحثاً عنه في سهوب إيبيريا وفَلواتها المقفرة.

لحظاتٌ من الوهم الجميل تداهمها وتغرقها في تفاصيل حياةٍ سابقة نسجها حلم يقظةٍ لها رأت فيه نفسها عروساً من عرائس بني الأحمر، تخطو برشاقةِ ظبيةٍ فوق سجّادٍ من الحرير المرقّش بزخرفاتٍ ونقوشٍ بربريّةٍ، جارّةً أذيال ثوبٍ من الدّمقس يكاد يخفي بياضُ نسيجه رخامَ جسدها المثير. من أعلى الخاصرة وحتّى رسغها الورديّ الطّريّ، تدلّت جديلةُ أبواقٍ من دفلى حمراء أثارت بعشوائيّة أحمرها شهوة البياض، فجنّ الأخيرُ هوساً بها سارقاً أحد أبواقها مربكاً به شعرها الغجريّ الطويل.

لحظاتٌ ويتعثّر الحلم. يتيهُ الوقت، ترتحل اللّحظات إلى زمنٍ آخر تُتَوّج فيه ميار أميرةً من أميرات قرطبة الفاتنات. شدّةٌ من القطيفة القرمزية المنمّقة بحبّاتٍ من اللّؤلؤ الحرّ تضمّ جسدها المثير، وجيدٌ تألّقَ كمهرةٍ شَموصٍ داخل وشاحٍ خمريٍّ من الديباج الموشّى بخيوط ذهبيّةٍ نافرة، عانقت بحميميّةٍ ودفءِ ملمسِ كتفيها العاريتين وعنقها الطويل. غيبوبةٌ من أحلام يقظةٍ تسكنها، تغزو برعشاتها الأندلسيّة قلبها الخافق شوقاً إلى البعيد، مضيئَةً بألوانها فضاء عينيها وفضاء الجبل والرّوحُ مسكونةٌ بنشوةٍ صوفيّةٍ عزفت موسيقاها القيان وتغنّت بها الجواري.

كصفعةٍ جسورةٍ قطعت عليها غيبوبةً طالت، ومن خلف كثبان موجٍ كان شاهداً على أسرار المعارك وصرخات الموت، تهبُّ على المكان نسمةُ هواءٍ بحريّة تُنعشُ معها الزّائرين فتنتعشُ معهم ملامح طارق بن زياد البطوليّة طيفاً يلازم الأذهان ومسكاً يعبق به المكان. تتحسّسُ ميار عطره بروحها، تتفحّصُ وجهه بحدسها، محاولةً رسم هيئةٍ له تعود بها لابن خلكان وابن عذاري كانتصارٍ ساحقٍ لها تستطيع أن تثبت به أصول هذا القائد الفذّ وحقيقة جذوره.

رمشة عينٍ ويترجّل الفارس عن صهوة العين مغادراً المكان مبتعداً عن الأنظار. بإصرارٍ مميتٍ ترنو بنظرها ثانيةً نحو ذلك الأزرق العميق محاولةً البحث عنه بين ثنايا أمواجه العاتية وخبايا أسراره المجهولة، علّ موجةً تحنو عليها وتقذفه إليها مخلّصاً أبديّاً تهديه لأمّةٍ قتلها الذلّ وهيمن عليها اليأس والقنوط. لكنّ نداء واجبٍ على ما يبدو استدعى الفارس لينضمّ إلى قوافل المحاربين المنتظرين وصوله عند أطراف المدى الأمهق. تتهافتُ نظراتها مجدّداً نحو ذلك الأفق الرّحيب، وسط بحثٍ دؤوبٍ منها شمل البرّ والبحر، وإذا بهم يتقدّمون صوبها مهرولين. كوكبةٌ من الفرسان وسيمو الطّلعة أشدّاء، يتمايلُ بعضهم عزّةً ووقاراً فوق سروج خيولهم القلقة من خوض حربٍ أو معركة جديدة من شأنها أن تقلب موازين التاريخ رأساً على عقب. بحسرةٍ من فقد بصيص أملٍ كاد أن يتحقّق، تعاود البحثَ عنه بين هذا الكم الهائل من الحشود المنتشرة على مدّ النظر فلا تجد له أثراً يذكر. لقد غاب عنها للأبد. عميقاً في قلب الزّمن. تاركاً لها عطره وسحره وذاكرةً فضفاضةً تحملُ في أحشائها سيفه وجنده ونطفةً من أمل.

الشّمسُ تحتلُّ كبد السّماء وحرارة المشهد تزيد من احتقان الجو وتوتّر أجوائه. يُنادى عليها بامتعاضٍ لتأخّرها. يشقُّ صوت حلا سكينة شرودها معلناً أن حان وقت المغادرة، يصرخ حسام من بعيد حاثّاً الفتاتين على الانضمام له وترك المكان. يغادر ثلاثتهم المكان. تغادره متململةً متذمّرة، وهي تودّع فرسان ذلك الزّمن بنظراتٍ غيّب الواقعُ توقّدها وإشراقها، وأبقاها رهينة واقعٍ مغايرٍ تماماً، واقعٍ نازفٍ مُحبِط.

Algeciras أو الجزيرة الخضراء. بلد الميناء الهاجعة تحت

قدمي هذا السّامق العملاق. يصلونها في ساعات ما بعد الظّهيرة وحرارة الجوّ ما زالت تعصف بمشاعرهم وتلهو بأفكارهم. يقرّرون المبيت فيها ليلةً واحدة نزولاً عند رغبة ثلاثتهم كي تكون نقطة انطلاقهم في الغد إلى المغرب العربي، إلى طنجة الحلم.

كانت لهفة ميار لزيارة طنجة، تزاحم ذلك الفجر الحزيرانيّ في حرارته وإطلالته المتعرّقة ما جعل جسدها يعاند ليلها في الاستسلامِ لنوم عميقٍ رفضته عيناها. لكن قدر الفلسطينيّ الحامل لجواز سِفر إسرائيليّ، هو لعنةٌ كونيّةٌ ستبقى تذكّره بقضيّته المركّبة العالقة، وبطبقٍ مسمومٍ اشترك في طهيه ومزج توابله شياطين الإنس والجان وتآمرُ التاريخ الحديث على إعداده وتقديمه للعالم بوصفته الحاليّة.

على متن عبّارةٍ حملت معها أحلامَ الفقراء وأغاني البسطاء وأدعيةً أغرقت بعض السيّدات بها السماء، سافرت ميار وأصدقاؤها إلى طنجة حاملين معهم فرحاً مرتقباً للقاءٍ جهلوا معالم فرحه. نسماتٌ صيفيّةٌ يبعثها المتوسّطُ نسيماً نديّاً يرطّبُ بها وجوه المسافرين نافحاً بها جباههم الساخنة. سيّداتٌ مغربيّاتٌ رزحنَ تحت جمال زيّهنّ التقليديّ بكلّ هيبةٍ ووقار، أكحالٌ وُشِمت بنقوشٍ أبرزت جمال أقدامهنّ العارية إلّا من نعالٍ انتعلنها بالكاد غطّت أقدامهنّ السمراء، وأطفالٌ لا يزالون يفركون أعينهم من نعاسٍ لم يستفق بعد، جاعلين من أيدي الأمّهات ومن تلابيب ثيابهنّ الطويلة مقابضَ تشبّثوا بها كي لا يوقعهم النّعاسُ أرضاً.

تسارع ميار يرافقها أصدقاؤها إلى اتّخاذ مكانٍ لهم على سطح العبّارة يتيحُ لهم إمكانيّة التحليق عبر فضائها الأزرق

والتّمتّع برؤية البحر واستنشاق بعض هوائه المنعش. يتّخذ بعض المسافرين، خاصةً المسنّين منهم، أماكنهم في الطّابق السفليّ تحسّباً لأيّ سقوطٍ أو انزلاق، فالصّعود إلى سطح العبّارة يتطلّب مجازفةً كبرى تشكّل خطورةً على من هم في مثل سنّهم حيث الوصول إلى الأعلى يتمّ عبر سلالم حديدية ضيّقة من شأنها أن تخون الأجساد الهرمة وتوقعها أرضاً.

صفرةٌ مدويّةٌ تطلقها العبّارةُ معلنةً فيها لحظة الانطلاق. يتوجّه بعض المسافرين ممّن يحتلون الأماكن العلويّة نحو أطراف العبّارة، ممسكينَ بحوافّها بحذر من يخاف سقوطاً أو ارتطاماً مصرّين ألّا تفوتهم فرصة مشاهدتها وهي تشقّ عباب الموج مغادرةً ميناء الجزيرة الخضراء. تنطلق العبّارة في موعدها المحدّد. تتعاظمُ مقاومةُ الموجِ لهذا الكائن الغريب الذي بدأ يهاجمه شاقّاً جسده بحديده وسرعة سيره. تشتدّ فورةُ غضبه، ومعها تشتدُّ نسماتُ الصّباحِ لتصبح ريحاً بليلةً تبعث في الأجساد قشعريرةً تذكّر بتثاؤب صيفٍ يستعدّ للاستيقاظ. يبدأ الجسد الحديديّ بالابتعاد رويداً رويداً مودّعاً ذلك الشّامخ العملاق. مع ابتعاده يتقزّم الهرم الطّارقيّ قبل أن يختفي نهائيّاً عن الأنظار.

الأغاني العربيّة تصدح في فضاء البحر ومحيطه. تختلط أنغامها مع صيحات النّوارس القادمة من بعيد، ورقصات الطّيور البحريّة المحلّقة طرباً مع هذه الألحان، والعبّارة مستمرّةٌ في شقّ جسد هذه الهائج والرّقص في أحضانه المائجة. ساعةٌ وثلاثون دقيقة سيقضيها المسافرون بين الأزرقين كلٌّ يحملُ آماله وهمومه بصمتٍ من شردت عيناه انتظاراً للوصول بحثاً عن المأمول.

بعد إبحارٍ لم يتجاوز النصف ساعةٍ منذ بدء الانطلاق، تشعر حلا بدوارٍ يباغتها فجأةً سرعان ما يشتدّ، يصاحبه شعورٌ بالإرهاق غير المبرّر لأصدقائها. فعلى عكس الليالي التي مضت، والتي قضوا معظمها في السّهر حتّى ساعات الفجر المتأخّرة، أمضت حلا ليلتها مسترسلةً في نومٍ هادئٍ عميق نامت فيه ملء جفونها بعد أن تمّ الاتّفاق فيما بينهم أن تكون ليلة سفرهم خاليةً من أيّ سهرٍ أو صخب، فيها يخلدون للنّوم مبكّراً استعداداً للسّفر في اليوم التالي.

لعلّه دوار البحر، يقول حسام ثم يُقدّم لها قرص دواءٍ احتفظ به خصّيصاً لحالات الدّوار الطّارئة. تناولها ميار كنزتها الصوفيّة علّها تبعث الدّفء في عروقها وتساعدها في تخطّي حالتها هذه، مع اقتراحها أن يترك ثلاثتهم سطح العبّارة وينتقلوا إلى الطابق السفليّ حيث المكان أكثر دفئاً وأقلّ ترنّحاً. تطمئنهم حلا أنّها بخير:

ـ لا داعيَ للقلق. هو دوارٌ بسيطٌ سيزول سريعاً.

لكن بعض هالاتٍ سوداء غزت عيني حلا الزّرقاوين خاطفةً ابتسامتهما المشرقة، جعلت من ميار كائناً قلقاً لا يحتمل أن يرى هاتين العينين خارج مدارهما الطبيعي، خارج إيقاعاتٍ اعتادت ميار أن تقرأ فيهما بريق الفرح ووهج الحياة. في هذه اللحظة بدت عينا حلا كثمرتَي زيتون سُحقتا وعُصِرتا ولم يتبقَّ من زيتهما شيء.

حلا الجميلة. وجهٌ صريحٌ دافقٌ بالحياة يغنيك عن ولوج أعماقه وسبر أغواره كي تفهم دواخله. لا تحتاج لبذل مجهودٍ كبيرٍ كي تقرأ أسراره. لكنّه كلافتةٍ حمراء توحي بالخطر، يصرخ

بك أن تقفَ عند ضفافه مبهوراً، مشدوهاً بسحره، لتبدأ بعدها رحلةً من البحث الجادّ حول أصله وفصله وامتدادات الأجداد وتجذّر سلالاتهم فيه. وجهٌ اغتسل بأمطار الشام وتعمّد بعطور أوروبا مشكّلاً لوحةً ربّانيّة من الصّعب تجاهلها أو إشاحة النّظر عنها. ملامحها الجميلة ترغمك على الوقوف والتّأمّل في تفاصيله طويلاً. ثغرٌ صغيرٌ ثملت عند حدوده عناقيدُ من الشّهد والعنب، وأنفٌ شمخ قليلاً لتلتقي آريّته بعينين غزل البحر زرقتهما فاشتعلتا كمصباحين مضيئين داخل ليلٍ عربيٍّ داج. خلطةٌ سحريّةٌ لبشرةٍ بيضاء أوروبيّة تنبعث من مساماتها روائح البانسيه والچاردينيا وزهر البرتقال، وشعرٍ دمشقيّ طويل تفوح منه رائحة الورد والياسمين ويعبق ليله برائحة القصائد والبهارات الشاميّة الحارّة. عرسٌ من الرّوائح ضاهت بقوّتها جاذبيّة أرضٍ عطشى لأوّل المطر.

عند سواحل هذا الجمال الآسر ضيّع الوطن ملامحه الكبرى وباتت الروائح هي الوطن. أصبحت هي البوصلة لدروبه البعيدة ومسافاته التي انتحرت على طرقاتها صخور الأمل والانتظار. كبائعتي وردٍ شغوفتين بالزّهر والعطر، تعرّفت الصديقتان إلى بعضهما البعض، بعد أن اشتمّت الواحدة منهما في الأخرى رائحةَ أرضٍ لم تراها ولم تزرها يوماً إلّا في المنام أو في الأفلام وفي كتب التاريخ والجغرافيا. روحان تماهتا وانصهرتا داخل بوتقةٍ واحدة اجتازتا بها الحدود والقوانين والشرائع الدوليّة. لم تحسبا يوماً حساباً لسؤالٍ من الممكن أن يوجّهه ضابط أمنٍ لإحداهما في مطار تل أبيب أو مطار دمشق أو حتّى مطار برلين يستفسر فيه عن طبيعة هذه العلاقة الوطيدة التي تربطهما ببعضهما البعض. لأنّ الوطن السّاكن أوردتهما كان أكبر من أن يزعزع

ركائزه أيّ سؤال. كان الردّ سيصرخ حتماً بالسّائلين: «اسألوا الوطن». ردٌّ يليق بهذا العشق وهذا الوطن. وطنٌ واحدٌ فصّله التاريخ ثوباً يناسب مقاسه هو وحده، رغم محاولات الخيّاطين البائسة تغيير مقاسه والعبث بألوانه وتشويه معالمها.

على امتداد خمسة عشر عاماً، ومنذ أن استقرّت الفتاتان في برلين عام 2004، عاشتا كتوأم سياميٍّ لا يمكنه الانفصال. كما اللّحم بالعظم قضتا معظم أوقاتهما معاً ملتحمتين في صداقةٍ هي أقرب منها إلى أخوّةٍ كانت تنقصهما. فكلتاهما كانت وحيدة والديها، وكلتاهما عاشت غربةً بل غربتين. بملء ما حمل قلباهما من حبٍّ وصبر، أنصتت الواحدة منهما لوجع الأخرى، لصقيع غربتها، لهمس روحها، لشوق الحنين إن داهمها. اقتسمتا آهات الاشتياق ولقمة الطّعام وفرح النجاح. وإن حدث وأطلقت إحداهما آه اشتياقٍ لبلادها وأهلها، كانت الأخرى تركض إليها فزعةً حاضنةً بكاء غربتها وأنين وحدتها بكلّ حبّ وحرص.

«الله يبعتلك بكلّ طريق رفيق يا ستّي»، دعاءٌ رافق ميار وأحاطها برعايته. كانت تنتعش بمجرّد أن تبدأ جدّتها بتمتمته. كتعويذةٍ دفعت عنها شرّ الطّريق وحسد المارّين، زرعته حرزاً من نور أضاء وحشة دربها وعتمة قلبها. معه شعرت أنّ الطريق سيكون آمناً، خالياً من الوحوش البشريّة وقطّاع الطرق. أدعيةُ الجدّات رزقٌ من السّماء. جملة أمّها المعهودة. طالما ردّدتها كثيراً للتأكيد على ما قالته جدّتها. كانت تسارع لإطلاقها بمجرّد أن تنتهي الجدّة من دعائها علّها تحمل في جنباتها رزقاً تطرحه السماء لابنتها في غربتها. هكذا رأت نساء العائلة حلا، رزقاً مبعثه السماء. أصبح اسمها آيةً أضاءت بنورها عتمة الغربة في ليل ميار وباتت حروفه بلسماً ردّده الأهل جميعهم في يافا. أمّا

والدها الذي أسعده كثيراً وجود حلا في حياة ابنته، رأى بهذه الصداقة شمس شامٍ أشرقت من جديد في قلب جيلٍ جديد لم يشهد مجد بلاده ولم يحيَ تاريخه المجيد إلّا من خلال قصيدة شعرٍ أو رواية نثرٍ خطّها أحدهم عنها ذات حياة.

بعيدتين عن أهلٍ ووطن عاشت الفتاتان حضور الغياب. كبرتا داخل ضجيجه وصمت هواجسه. وحدهم المغتربون يعرفون معنى أن تكبر في الغربة. أن يشتعل الرّأس شيباً فلا تجد من يمسح عنك غربة البياض ووهن العظام وعرق الأيّام. أن يضرب الصّقيع جداول الربيع في عمرك، وشمس بلادك بعيدة تحجبها عنك آلاف الغيمات وملايين النّجمات. كابوس الغربة واحدٌ في جميع أصقاع الأرض وأشباحه سواء. من بين أصابع الزمن المهرول نحو المجهول ترى أشباحه تقفز إليك، متّشحةً بالسّواد تنظر إليك، تتفحّصك، وفي عيونها خطر يحذّر من فقدان عزيز أو قريبٍ وأنت الغائب البعيد. كالوسواس الخنّاس يوسوس قلق الغربة في صدرك، ينخر صمّام الأمان في عقر قلبك، وأنت عاجزٌ عن عمل أيّ شيء سوى الدعاء أن يمنحك القدر حظّاً جميلاً وتعود إلى بلادك سالماً تنعم بسلامة المحبّين الذين غادرتهم يوماً ولم يعدك أحد بلقائهم مرة أخرى. رحلةٌ شاقّةٌ للنّفس والذّهن هي الغربة. ورحلة حلا معها كانت طويلةً وموجعة لها ولوالديها.

روت لها قصّته عندما كبرت قليلاً. كانت أسئلتها الصغيرة تنام معها كلّ مساء ملتصقةً بأحلامها كالتصاقها بدميةٍ شقراء اعتادت أن تشاركها سريرها ودموعها، لتعود أسئلتها بعد ذلك تخترق صباحات دمشق النديّة باحثةً لها عن أجوبةٍ في عيون الآخرين. نظراتٌ حائرةٌ لطفلةٍ لم تتجاوز الخامسة من العمر،

تجول ببطءٍ داخل عيني أبٍ تفتّش فيهما عن أمٍّ بالكاد تذكر ملامحها فلا ترى سوى عينين غارقتين بالصّمت والضّباب. تغادر نظراتها اليائسة عيني والدها، تتحسّس النور في أعينٍ أخرى علّها تجد فيها أجوبةً لتساؤلاتها الصغيرة، تجول وتجول بنظرها في عيونهم جميعاً، جدّها فجدّتها فعمّتها، انتهاءً بعيني «عنتر» قطّ عمّتها المدلّل، المتمطّي بكسلٍ تحت ياسمينة الدار، والجواب واحدٌ ووحيد. صمتٌ وضبابٌ ثقيلٌ يكسو العيون جميعها.

وجعها الطفوليّ ونظراتها الحزينة حرقا قلبه. تفهّم بصبر أبٍ تساؤلاتها، متسائلاً هو الآخر:

- كيف للطّفولة أن تبقى وفيّةً للملامح ذاكرةً لها وهي لم تتعدّ الخامسة من العمر عندما قام الزمن ببترها وإبعادها عن مرمى النظر؟ كيف لها أيضاً أن تخون الملامح وتنسى أمّاً وهبت من عمرها بضع سنين قبل أن يبعدها الزمن عن النّظر؟ أشعر أنّ مهمتي القادمة معها ستكون صعبة.

شارك أخته مخاوفه. وافقته أنّ المهمّة لن تكون سهلة. فالطفولة والذكريات، عنصران لقضيّةٍ معقّدةٍ شائكة.

- الذكريات يا أخي دائرةٌ من دوائر كثيرة رسمتها الحياة وقدّمتها لنا لوحةً قزحيّة الألوان غلّفتها بالسّكر والملح والغبار. لها أن تثبّتَ أقدامنا وتهبنا الأمن والطّمأنينة، ولها أن تجلب لنا التعاسة وتجعل الحياة جحيماً لا يطاق. ويبقى السؤال كيف نجعلها صمّام أمانٍ وزاد طريق لنا نتّكئ عليها عند الحاجة دون أن تصيبنا سهامها بالخذلان. حلا طفلة حسّاسة جدّاً وذكية، وفقدانها لأمّها في هذه المرحلة الحرجة من حياتها سيكون له

الأثر الأكبر عليها. لذا علينا أن نكون حذرين جدّاً في تعاملنا معها خاصة في الفترة الأولى من وجودها بيننا.

- أعلم ذلك جيّداً. سأسعى جاهداً بأن أكون صمام أمانٍ وزاد طريقٍ لصغيرتي.

أجابها والحزن يطلّ من شبابيك عينيه الدامعتين فيطال دمع عينيها الواسعتين. لم يكن هو الوحيد الذي سعى لذلك. جميع من في البيت سعوا لأن تبقى ضحكة الصغيرة وردةً تزيّن شفتيها الكرزيّتين وعينيها البحريّتين.

كفأرةٍ صغيرةٍ تبحث لها عن قطعة جبنٍ أو قطعة كعك، كانت تندسّ في فراشها وهي تصرّ أن تشاركها سريرها ودفء فراشها، خاصّةً في ليالي الشتاء الباردة.

- فراشي بارد جداً... أريد أن أنام معك، في سريرك. أشعر بالدفء هنا أكثر.

تبتسم لها عمتها بحنان الكون كلّه، غامرةً جسدها الصغير بحبٍّ زاخرٍ بالدفء حاولت أن تعوضها به عن أمّ لم يعد بإمكان حضنها وفراشها معانقة هذا الجسد الحليبيّ الغضّ. لم يرق الأمر كثيراً لوالدها. فضّل أن تعتاد صغيرته النوم في سريرها. لكن وساطة العمّة الحنون في كلّ مرّة رغبت فيها حلا مشاركتها سريرها، وبعض دموع ذرفتها الصغيرة حالتا دون تنفيذ أوامره. تعلّقت حلا بعمّتها التي لم يكن زواجها موفقاً فانفصلت عن زوجها وهما لا يزالان في أول مشوارهما معاً دون أن تنجب منه أطفالاً. أصبحت حلا نعمتها التي عوّضها الله بها عن أمومتها الغائبة، وباتت العمة هي الأمّ القَدَر لهذه الأميرة الصغيرة.

النجوم تملأ سماء الباحة المنتشية بروائح الياسمين والورد

البلديّ، والهدوء يخيّم على سكّان البيت الغارقين في سباتٍ عميق. كانت تجلس وحدها تمسح رأس «عنتر» بيديها المتعبتين عندما باغتتها حلا مخترقةً سكون ليلها وصمت فراغها.

ـ أما زلت مستيقظة؟

ـ حلا؟ اقتربي منّي يا حبيبتي. تعالي إليّ هنا... اجلسي بجانبي.

قالت وهي تفسح لها مكاناً على الأريكة الخضراء القديمة التي لم تتنازل عنها نساء هذا البيت منذ أكثر من عشرين عاماً عندما تمسّكن بها واحتفظن بجميع تفاصيلها دون تهجينٍ أو عبث بملامحها القديمة. كانت كلّما اتّسخ قماشها أو بهت لونه، يأخذنَ في تنظيفه بالخلّ والماء ويلمّعنه بفرشاةٍ خشنة الأطراف جعلته يبدو أشدّ لمعاناً وأكثر إشراقاً ما شجّعهنّ على الاحتفاظ بها طوال هذه السنين.

ـ لا أشعر بالنعاس أبداً. يبدو أنّه السبب وراء ذلك. أنظري إليه هناك. عالياً في السماء. على ما يظهر كون القمر بدراً هذه الليلة هو الذي سبّب لي كلّ هذا القلق وحال دون نومي.

تنظران معاً نحو ذلك المضيء المشتعل في السماء، وهو يبتسم لهما بسخرية من لم يرق له تذمّر العمّة ولم يقنع قلقه استدارة وجهه المنير. بدا كأنّه انزعج من تذمّرها فوجم وزمّ شفتيه باعثاً لها باستيائه:

ـ إنّها أفكارك وهواجسك هي التي تعبث برأسك أيّتها العمّة وتمنعك من النوم. فما شأني أنا بهذا؟

قالها وهو يقطّب وجهه ويلوي عنقه مختفياً وراء غيمةٍ

حضنت وجهه الحانق، لكنّها سرعان ما لفظته بعيداً عنها وهربت، ليعود راضياً مبتسماً لهما وللنجوم وللسماء.

ـ رغم أنّ نهاري كان شاقّاً جداً. لم أهدأ فيه لحظةً واحدة. عمل متواصل داخل البيت وخارجه خلته لن ينتهي. نهارٌ ضاجٌّ من أوله حتى آخره. حتى الأسواق اليوم، كانت تعجّ بالناس بصورة غريبة لا تطاق. لولا أنّ جدّتك قد طلبت منّي شراء بعض الحاجات اللاّزمة من سوق البزوريّة لما خرجت اليوم من البيت. بالمناسبة، اشتريت لك ما تحبّين من محلّيات. شوية سمسميّة على شويّة بلح مقرمش على شويّة قضامة وقباقيب. عند وصولي بحثت عنك لأفاجئك بكلّ ما أحضرته لك، لكن جدّتك أخبرتني أنّك ذهبت إلى شهد كي تدرسا معاً. أخبريني كيف سارت الدراسة معكما؟

ـ ماشي حالها. درسنا قليلاً وتحدثنا كثيراً.

ـ من اليوم فصاعداً عليك مضاعفة جهودك الدراسية يا حبيبتي. المرحلة الثانوية أصبحت على الأبواب وهي مرحلة هامّة وحاسمة جداً تتطلّب منك وقتاً أكثر وجهداً أكبر. عليها يتوقّف مستقبلك يا حلا. نريدك كأبيك ناجحةً لامعة.

ـ حاضر يا عمّتي.

تحضن عمّتها وهي تدغدغ خدّها بشقاوتها المعهودة.

ـ وأنت لماذا لم تنامي بعد يا صغيرتي؟

ـ يبدو أنّه السبب في ذلك. أنظري إليه هناك. عالياً في السماء. على ما يظهر كون القمر بدراً هذه الليلة هو الذي سبّب لي كلّ هذا القلق وحال دون نومي.

تردّد ما قالته لها عمّتها وهي تطلق ضحكة حاولت كتمانها كي لا توقظ أحداً من أهل البيت. تضحك عمتها لشقاوتها:

ـ أيّتها الشقيّة! مهما كبرت ستبقين معجونةً بسحر الشقاوة. كم تذكّرينني بطفولتي يا حلا. هكذا كنت شقيّة مثلك. أحبّ المرح والضحك، على عكس والدك تماماً. كان جدّيّاً صارماً منذ صغره.

ـ عمّتي...

ـ نعم يا حبيبتي...

ـ حدثيني عن أبي... عن أمّي... عن قصتهما معاً.

كانت هذه هي المرة الأولى التي تتجرّأ فيها حلا وتطلب من أحدهم هذا الطلب بشكلٍ مباشر دون تأتأة. بدا للعمّة أنّها كبرت، وكبرت معها أسئلتها الصغيرة التي لم تعد ترضى بأنصاف الإجاباتٍ وأرباع المشاهد. تبتسم لصباها الجميل، لشبابها الذي بدأ يبرعم ويتفتّح كأزهارٍ ربيعيّة رواها المطر وبلّل خدّيها الندى.

ـ ما الذي ذكّرك بهذا الآن؟ أظنّ أنّ أباك قصّ عليك القصة كاملة يا حبيبتي؟

ـ أريد أن أسمعها منك... أرجوك!

ثم تابعت تُمازح عمّتها.

ـ دون قصٍّ أو لصق طبعاً، كما فعل أبي معي طوال الوقت حتّى مللت السؤال واكتفيت بما رمى إليّ به من معلومات.

تبعث عمّتها بنظراتها إلى المدى البعيد. إلى ما بعد ذلك

المشتعل في ليلٍ امتلأت سماؤه بنجومٍ شهدت أصل الحكاية، وكأنّها تلملم المشاهد كلّها من أجل أنٍ تبني الصورة من جديد.

عندما قرّر والدك السفر إلى ألمانيا لاستكمال دراسته الجامعيّة هناك، لم يكن يعلم أيّ قدرٍ ينتظره وأيّ مصيرٍ ذاك الذي بات ينتظر بلاده في يومٍ من الأيّام. غادر سوريا وفي نيّته العودة إليها مهندساً زراعيّاً ينفث أنفاساً جديدة في أرض آبائه وأجداده عساها تثمر ذهباً. مضى ومعه مضت بلاده رفيقةً دائمةً لروحه. كالعصفورة عشّشت داخل قلبه ووجدانه، لكنّ ستائر الحياة المشرّعة على نوافذ الحلم والسّفر، الملوّنة بالحماسة وصهيل الشّباب، أخفت وراءها أموراً اضطرّته للمواجهة واتّخاذ قراراتٍ مصيريّةٍ حاسمة لم يفكّر يوماً في اتّخاذها. من زقاقات حارة الصالحيّة القديمة وحضنها العابق برائحة الياسمين والحبّ، انطلق ممتطياً صهوة الحلم إلى قِبلة العلم. وجهٌ حمل في ملامحه عشقاً لبلاده وحزناً لفراقها ووعداً لها بأنّه عائد. غادرها زافراً تنهّداته في صباحاتها الباردة، حابساً دموعه في صدره كي لا يلمحها أحد. خبّأ وجه بلاده بين عينيه مطبقاً عليها جفونه خوفاً عليها من غبار الطريق أو السّقوط، وانطلق ينشد العلم والشباب. لم ينسَ أن يصطحبَ معه ذاكرته وطقوسه اليوميّة وبعض شتلاتٍ من حبقٍ ونعناع، جمعها من أحواض بيتنا بغية أن يزرعها في أصصٍ بيتية حال وصوله برلين، علّها تؤنسه في وحدته وتخفّف من اشتياقه عندما تفيضُ الرّوحُ شوقاً إلى البيت والوطن.

تبعث بتنهيدةٍ طويلة أعادتها للحظات وداعه قبل ما يقارب العشرين عاماً وكأنّ نار وداعه اشتعلت لتوّها في قلبها، تاركةً دمعةً أو اثنتين على خدّها سترهما الليل بعتمته.

وصل برلين والنفس تنزف وحشةً واشتياقاً لكلّ من غادرهم في بلاده. تسوّل دفء القلب من صورٍ رافقته في حقيبة سفره اشتمّ منها رائحة أهله وبلاده، ومن موْنٍ غذائيّة أصرّت جدّتك أن ترافقه في حقيبة سفره خاصّةً أنّه سيمكث لدى أحد الأصدقاء بعضاً من الوقت ريثما يجد له شقّةً يسكنها. لم يمض يومٌ لم يتذكّر فيه دمشق وأهلها. كانت أحياء دمشق وأزقتها ترافق حكاياته وأماسي كثيرة جمعته بأصدقائه المغتربين، فيها أصغوا لحكاياته الموسومة بالشّوق إلى الأمكنة الغائبة، الموشومة بالحنين إلى البعيد. أمّا نافورة بيتنا وهذه الياسمينة التي تظلّلنا كلّ صباح، فقد كان لهما الحظّ الأوفر من الحضور كخلفيةٍ لصورةٍ قمت أنا بالتقاطها له جمعته بجدّك وجدّتك. في أحد اتصالاته الهاتفية أخبرني، أنّه وضع الصورة ذات البرواز الخشبيّ المطليّ باللّون البنيّ المحروق على أحد الرّفوف المثبّتة بجانب سريره، ينام على خرير نافورتها كلّ مساء ويصحو على رائحة ياسمينها كلّ صباح مستمدّاً دفء يومه التّالي من كلّ تفصيلٍ صغيرٍ نطقت به هذه الصورة. كان حنينه إلى دمشق قاتلاً في الفترة الأولى من مكوثه خارج الوطن.

تصمت قليلاً قبل أن تتابع حديثها وكأنّها اختنقت بذاك الحنين القاتل للبلاد.

وصل برلين، استقبله هناك أحد أصدقائه السوريّين المقيمين منذ زمن فيها. أقام عنده بعض الوقت قبل أن ينتقل إلى شقّة صغيرة ساعده صديقه في إيجادها محاولاً أن تكون قريبةً من مكان دراسته وأن لا يكلّفه إيجارها الشّيء الكثير. تعلّم درسه الأوّل خارج الوطن، أنّ الغربة تصغر ومساحة الوطن تكبر

عندما تجد في الغربة روحاً تشبه روحك، ولساناً ينطق لغتك، وقلباً يخاف عليك. بعد ثلاثة أشهرٍ من مكوثه في برلين، شاءت الأقدار أن يتعرّف إلى فتاةٍ ألمانيّة ساعدته في تخطّي بعض الصّعوبات الدراسية التي تتعلّق باللغة الألمانيّة انتهت بحبٍّ جارفٍ لم يستطع كلاهما تجاوزه أو الإفراج عنه فحبساه داخل قفص ذهبيّ بعد أربع سنواتٍ من علاقة حبّ كلّلاها بالزواج وبثمرة حبٍّ كالكرز الأحمر في حلاوتها وجمال شكلها أسمياها... ماذا أسمياها؟

تحضنها بشدّة وهي تطبع قبلةً على جبينها البارد من فعل ندى المساء.

- أسمياها حلا. كانت حلا طفلةً جميلة تماماً كأمّها. لن أنسى أبداً وجه أمّك الجميل يا حبيبتي ولا ابتسامتها الرقيقة.

تتوقّف مجدّداً عن الحديث وكأنّها تنتقي كلماتها انتقاءً كيلا تجرح كلمة هنا أو هناك مشاعر حلا.

لكنَّ العاصفةَ أدركتهما ككثيرين عاشوا اختلاف البيئة ووجع الاغتراب ورجع الحنين. فترَ الحبّ الذي بدا للوهلة الأولى سيظلّ أبديّاً. افترس الزمنُ علاقتهما بثقل أوقاته واستحالة تأقلمها للظّروف، وحنّ القلب إلى من تركهم والدك في بلاده فرزم أشياءه وعاد.

تشعر بثقل الرأس الصغير الغافي يصارع كتفها العريض.

- حلا... هل نمت يا حبيبتي؟ لم أُنهِ القصة بعد!

برفقٍ ودون أن توقظها، تُفسح للجسد النائم مكاناً يتمدّد فيه ويرتاح، جاعلةً من حجرها الدافئ وسادة حضنت رأس حلا

ودمعة سالت من عينيها المطبقتين حرقت حضن العمّة وأجّجت جمر قلبها. لم تشأ إيقاظها. تركتها تستسلم للنوم بينما شرعت تداعب شعرها الطويل بأناملها، ململمةً بعضاً من خصلاته المبعثرة بعيداً عن وجهها وجبينها البارد. بحنان دامعٍ تغرق في تأمّلها لتفاصيل هذا الوجه الربانيّ الجميل، تبتسم لصباها اليانع المزهر، يشتدّ سكون الليل، ومعه تشتدّ صور الماضي البعيد تنطق ببقيّة الحكاية.

كمركبٍ تائهٍ متعب عاد إلى بلاده ليريح جبينه على صدرها ويملأ عينيه بنجوم سمائها المنتظرة عودته. عاد والشّوق يقتله إلى تفاصيل كثيرة اشتاقها في غربته. إلى قمر الدار وهو يداعب بنوره ياسمينة الساحة الخلفية مثيراً بضوئه السّاطع عتمة وجهه، مبعداً خيوط النّوم عن عينيه. إلى الحقول التي يبست أغصانها من طول انتظاره، إلى شكاوى المطر وهو ينقر زجاج النوافذ بمناقيره مالئاً بخيراته وبركاته زواريب حيّ الصّالحيّة وأزقتها، إلى سيمفونيّة بائع شراب الورد وهو يجوب منطقة الميدان ينادي «تعا بورد تعا بورد يا حبّاب»، لصوت بائع الذّرة وهو يسير خلف عربته المحمّلة بعرانيس الذّرة المسلوقة، يدفعها أمامه في أحياء دمشق الشعبية وهو يطلق لصوته العنان منادياً «بيضا هلاّ استوت». عاد مصطحباً معه طفلته الصغيرة، وحقيبة سفره، ومشواراً طويلاً من ذكرياتٍ عمرها تسع سنواتٍ في غربةٍ بات استمرارها في برلين مستحيلاً.

رغم صعوبة القرار وتعذّر تنفيذه، إلاّ أنّ الزّوجين اتّفقا أن تُعهد حضانة حلا لأبيها شرط أن تراها أمّها بين حينٍ وآخر. حاولا أن يشرحا الأمر للصّغيرة مع تبسيطه قدر المستطاع محاولين تجميل الواقع من خلال زرع الحماسة في نفسها لرؤية

أقربائها من الأطفال الذين تعرفّت عليهم في زياراتٍ سابقة، إلّا أنّ الأمر بدا لها مرعباً. لكن القرار وقع ولم يكن أمامها سوى الرّضوخ وتنفيذ ما أملاه عليها الكبار. غادر الأب برلين ودموع الصغيرة تملأ عينيها، وفي فمها كثيرٌ من الأسئلة تاهت حروفها بين لغتين تنافر لحنهما، وفي يدها جواز سفر يذكّر ببلاد أمّها.

كبرت حلا في حضن دمشق وحضن ألوانٍ وجدت فيها متنفّساً ليديها الصّغيرتين وقلبها الفاقد. تدثّرت بحبٍّ كبيرٍ أهداه لها الجميع فاض دلالاً ورخاء عيش. كان الجميع يحاول جاهداً تعويضها عن أمٍّ باعدتها الظروف وأقصتها جغرافية الأماكن. لم تكن تطلب شيئاً إلّا وتمّت تلبيته على أسرع وجه. حتّى نوبات غضبها الباكية، حوصرت بتفهّم الجميع لها وتمّ احتواؤها بدفءٍ استثنائيّ. أصبحت حلا مركز الكون في هذا البيت وأميرته.

في البدء كان اتّصالها مع أمّها مكثّفاً من خلال محادثاتٍ هاتفيّةٍ انتظرتها بلهفةٍ وفارغ صبر. بقدر ما أسعدتها هذه المكالمات شبه اليوميّة، إلّا أنّها أبكتها مثيرةً فيها الحنين والشّوق لمن تركتها مرغمة. الأمّ التي تماسكت عند حديثها مع الصّغيرة، اهتمت كثيراً لأن تصغي إلى ابنتها وهي تحدّثها عن تفاصيلها الصغيرة. عن مدرستها الجديدة وأترابها الجدد، معدّدةً أسماءهم واحداً واحداً. حدّثتها عن سير يومها؛ ماذا طهت لها جدّتها وأيّ الأماكن زارتها مع أبيها ومع من لعبت من أصحابها وماذا اشترت لها عمّتها والأهمّ من هذا كلّه ماذا رسمت في ذلك اليوم. عالمها الصغير الذي بدأت تكبر داخله موهبتها الفذّة. كان الحماس يكتنف حديث الصغيرة وهي تروي لأمّها أحداث يومها. حماسٌ سرعان ما يأخذ بالتّلاشي ما أن تشارف مكالمتهما على

الانتهاء. كانت مكالمتهما تنتهي دائماً بالسّؤال الذي أقلق طفولة حلا وأربك حنينها لأمّها:

- متى نعود إليك؟ متى نعود للبيت؟ لا أريد أن أبقى هنا... أريد العودة إلى برلين.

مع مرور الوقت بدأ حلم حلا في العودة إلى برلين وأحضان من فيها يخبو شيئاً فشيئاً نحو وهمٍ طال. انشغل الوالدان كلٌّ في أموره، وانهمكت هي الأخرى في شؤونها الخاصّة، ملتصقةً بفعّالياتٍ ونشاطاتٍ كثيرة أشغلتها وملأت أوقاتها كنوعٍ من التّعويض عمّا فقدته من حنان أمّ. وتيرة المحادثات بين الأمّ وصغيرتها والتي جرت العادة أن تكون كلّ مساء، أخذت تقلّ يوماً بعد يوم. فبعد أن كانت الصغيرة تعدو مسرعةً نحو الهاتف، مجرّد أن يشار إليها أنّ أمّها في الجهة الأخرى تودّ مكالمتها، أصبحت تتلكّأ في سيرها، تتذرّع بشتّى الأعذار كانشغالها باللّعب أو بالرّسم أو رغبتها في النّوم أو في إتمام وجبتها التي لم تنهها بعد. تباعدت المسافات، وقلّ شغف القلب، ما جعل والدها يخشى أن تنسى صغيرته لغتها الألمانية فحرص حرصاً شديداً على حضورها أثناء حديثه معها كي لا تنساها الصّغيرة. وكجزءٍ من اتفاقه مع زوجته، داوم على زياراته السنويّة قدر المستطاع زارا فيها الأمّ وبلادها مصطحباً حلا التي كانت تنتظر هذه الزيارة بفارغ الصبر.

في دمشق بدأت تعتاد حلا تفاصيل حياتها الجديدة. من واجباتٍ مدرسيّةٍ أخذت تزداد مع نضوج سنوات عمرها، إلى التزاماتها في دورات الموسيقى والرّسم الأسبوعيّة، إلى لقاءاتها المتكرّرة مع أترابها وأصدقائها ولهوها معهم، إلى جولاتٍ

اصطحبتها فيها عمّتها داخل أسواق دمشق وفي شوارعها، هناك وجدت ضالّتها المفقودة؛ أحلامها المنطاديّة الملوّنة.

داخل مساحات الفراغ كبرت لوحاتها، وعلى حوافّ الظّلال والأضواء نضجت ريشتها. حلّقت مع الأوراق والفحم والألوانِ، غمست أصابعها الصغيرة في بحور الخلق والإبداع، استحمّت في الأصباغ ماسحةً أناملها في ربيع أخضرها وليل أسودها غازلةً من نزيف أحمرها ووهج أصفرها لوحاتٍ سحرية صفّق لها الجميع دهشةً وإعجاباً مشيداً بها كلّ من رآها. رسمت وأبدعت مشكّلةً من ريشتها وعزلتها أزهاراً وأقماراً وبيوتاً هدأت إليها كلّ ليلةٍ حاضنةً تفاصيلها بكلّ حرصٍ وحبّ. والدها الذي كان على درايةٍ كبيرةٍ بموهبتها، سعى لرعاية هذه الموهبة وتغذيتها بالدّعم والتّشجيع ودورات الرّسم المستمرّة، حتّى امتطت حلا الرّسم احترافاً عادت به إلى البلد الذي تركته يوماً مرغمة وباتت العودة إلى برلين حقيقةً أعادتها حلا واقعاً وخياراً كسر عتمة ذلك الخيار الذي لم يستشرها به أحد.

تفاجأ الجميع من قرارها إلّا هو. لم يكن قرار سفرها مفاجئاً لوالدها. توقّعه. لمعان عينيها الصّغيرتين ودهشتهما وهما تراقبان كلّ لوحةٍ نصبت في مرسم وكلّ تمثالٍ غُرِسَ في متحفٍ وما أحاطهما من تفاصيل، جعل والدها يدرك أنّها عائدة إلى البلد الذي ولدت فيه. البلد الذي سيحضن موهبتها ويمنحها فرصة تحقيق أحلامها وإطلاق إبداعاتها. زياراتها المتكررة إلى برلين منذ أن كانت صغيرة، كان له الأثر الأكبر على قرارها. كانت تبدي انفعالاً كبيراً رغم صغر سنّها وهي تتجوّل مع والديها في متاحف برلين الشهيرة وساحات فنونها الإبداعيّة. هذه المدينة العريقة، مدينة المتاحف والحضارات العالميّة، لاءمت

طموحات حلا مشكّلةً لها مصدر إثراء لمخزونها المعرفيّ والثقافيّ والفنيّ. في هذه الأماكن التي جذبتها وأدهشتها منذ الصّغر، أتيحت لها فرص مشاهدة المئات من الأعمال الفنيّة لفنانين محترفين قدموا إلى برلين كي يحققوا أحلامهم ويطلقوا إبداعاتهم وصيحاتهم الحديثة في عالم الفنّ. كانت تعود إلى دمشق وروائح الأصباغ والبرونز والحديد تملأ رئتيها بعد كلّ زيارةٍ تقوم بها إلى العاصمة الألمانيّة. لم يعترض والدها على قرارها، ولم يحاول إقناعها بغير ذلك. احترم قرارها كما احترمه الجميع رغم صعوبته. فحلا، شمس هذا البيت وقمره ستغادر قريباً. ستترك دمشق وتتركهم يعانون ألم فراقها وعتمة غيابها بعد أن أضاءت بسنوات عمرها العشرين عالمهم الصّغير.

ساعدها على رزم أمتعتها وأشيائها كما فعلت جدّتها معه ذات يوم، حاضناً غربتها القادمة بتفهّم عاقلٍ وصبر أب. قبّل جبينها ساكباً على حريره بعضاً من ملح دمعه.

- تواصلي معها. هي بحاجةٍ إليك اليوم أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

- حسناً، سأفعل. لقد كلّمتها قبل أسبوعين لأخبرها عن نيّتي في السفر والاستقرار في برلين. أسعدها كثيراً هذا الخبر لدرجة أنّها دعتني للسّكن معها في شقّتها، أخبرتني أنّها تقيم وحدها اليوم بعد وفاة زوجها أو بالأحرى شريكها. اعتذرتُ، ألمحت لي أنّ باستطاعتي السّكن في شقّتها القديمة، شقّتنا، إن رغبت في ذلك. فهي لم تؤجّرها منذ أن غادرها آخر المستأجرين. لكنّني أخبرتها أنّك قمت بترتيب أموري جميعها بما فيها أمر إقامتي وأنّه لا داعي بأن تشغل بالها أبداً.

مبتسماً لصباها الجميل، فخوراً بهذا الميثاق المقدّس بينهما وبرفيقة دربٍ رافقت مشواره الطويل:

ـ حلا... إن رغبت في تنفيذ أيٍّ من الاقتراحين فلا تتردّدي. افعلي ما ترينه مناسباً. لن يزعجني الأمر.

مطوّقةً أباها بحنانٍ فيه من الاحترام والتقدير الكثير لرجلٍ أفنى حياته من أجلها:

ـ بربّك يا أبي... قل لي أين سأجد رجلاً مثلك؟ مستحيل. بل من سابع المستحيلات. لا أعتقد أنّني سألتقي يوماً برجلٍ يشبهك.

يغرق في صمتٍ طويلٍ، يشعر معه للمرّة الأولى بنبرة صوتها المفرطة في حبّها له، وتغرق هي الأخرى في صمتٍ طويل، صمت حبّها المفرط له. يحضن صمتها بصمت قلبٍ يحترق لغربةٍ قادمة يعرف ملامحها وملحها جيداً، حابساً دموعه في حلقه كي لا تحرق نارها قلب ابنته، مبعثراً صمته حبّاً طال كلّ ذرّة هواءٍ تنفّستها حلا، وكلّ نبضة قلبٍ خفقها قلبها الصّغير.

مشاهد الوداع باتت تتعبه. تثير في نفسه رجفةً لألمٍ خفيٍّ سبّبه له الماضي معتقداً بخطأ اليقين أنّه نسيه. وللنسيانٍ ذاكرة العذارى. لا يقوى على استحضار وخز ذلك الألم سوى ألم أشدّ منه نزفاً وأقسى منه وقعاً على النّفس. مشهد وداعه لحلا أعاده إلى الماضي البعيد عندما غادر دمشق مودّعاً أهله وبيته، ناثراً حنينه نظراتٍ طالت كلّ ركنٍ من أركان بيتهم وكلّ ملمحٍ صغيرٍ عاشه فيه. النظرات نفسها لم تتغيّر. فقط هرمت قليلاً. لكنّ القلب اليوم نزف أكثر.

ودّعت حلا دمشق وخريفها العابق بروائح الفصول العصيّة

على النّسيان مخلّفةً وراءها بيتاً يبكي غيابها. كان وداعها لعمّتها أصعبها. طلبت منها أن ترافقها إلى الأماكن التي اعتادت أن تصحبها إليها منذ أن كانت تلهو بالعرائس والدّمى وسلال القشّ والأمشاط البلاستيكيّة. أرادت أن تودّع الأماكن والرّوائح والأطعمة بما يليق وذكرياتها معهم قبل أن تبتلعها برودة برلين ولحمها المقدّد وصقيع وحدةٍ قادمة.

ـ يا لهذه الأناقة يا حبيبتي... ما كلّ هذا الجمال يا حلا! أغبط برلين وشبابها عليك. تنطق بها عمّتها بلوعة من ستفقد عيناه قريباً جوهرةً ثمينة طالما متّعت ناظريها وقلبها بها وهي تتفقّدُ كلّ يومٍ بريقها إن كان لا يزال على العهد وهّاجاً مضيئاً.

تمسكُ بطرفي فستانها وتدور حول نفسها دورتين كشمسٍ أضاءت فجأةً محاور الأرض جميعها مخلخلةً نظام الليل والنهار في جميع المجرّات والكويكبات والمذنّبات. فستانٌ أزرق اللّون كعينيها البحريّتين، حطّت على تنّورته بضعة طواويسَ ملوّنة نشرت ريشها في فضاءات القماش القطنيّ الرّهيف حيث طاب لها المقام فيه، فبقيت متشبّثةً بالمكان ولم تفكّر في الهروب أو الفرار رغم مطاردة نظرات البشر الجائعة لها.

ـ لك قسطٌ كبيرٌ في هذا يا عمّتي. ألا تذكرينه؟ كُنتِ قد اشتريته لي قبل عامٍ مضى لكنّني لم أرتده بعد.

تضمّها عمّتها إلى صدرها بكلّ حنانٍ ذارفةً بعض دموعٍ لم تقوَ على لجمها.

ـ عمّتي... اتّفقنا ألّا نبكي!! أتريدنني أن أتراجع عن قراري؟

تومئ لها بالنّفي وهي تمسح دموعها بمنديلٍ ورقيّ تناولته

من حقيبتها، تبتسم لها بعينين دامعتين كساهما حزن دفين لفراقٍ قادمٍ، تستجمع قواها ثانيةً قائلةً، هيّا بنا... دعينا نخرج.

كان نهاراً خريفيّاً لطيفاً لم تغادر أرضه أقدام الصّيف بعد. تسيران جنباً إلى جنب تجوبان شوارع دمشق وأسواقها، في جولةٍ أرادتها حلا زاداً سميناً لأيّامٍ عجافٍ قادمة، ووقوداً يثير الدّفء في قلبها في بلاد ينتظرها فيها البرد والصّقيع والمجهول.

تصلان سوق النّحاسين، وجهتهما الأولى، تستقبلهما أصوات الأزاميل الصغيرة وضجيج المطارق وقرقعة الطّرق على النحاس، مثيرةً في نفسيهما ونفوس مرتادي هذا السّوق حنيناً لا ينقطع لذاكرة الآباء والأجداد العريقة. ما بين جزء المدينة الحديث ودمشق القديمة، يمتدّ هذا السّوق. أحد أقدم الأسواق في دمشق لأقدم المهن اليدويّة الّتي اشتهرت بها بلاد الشّام منذ أكثر من ثمانمائة سنة. تشعّ عينا حلا دهشةً وانبهاراً وهي تتجوّل داخل هذه الورشات، تنظر بعيني فنّانة إلى ما تمّ تصنيعه وعرضه من أوانٍ نحاسيّة علتها الزّخارف والنّقوش اليدويّة والنّمنمات الشرقّية، ومعروضاتٍ أخرى تمّ الرّسم عليها بحرفيّة بارعة. تسارع إلى اقتناء بعض النّحاسيّات الدمشقية التي رغبت في اصطحابها معها إلى برلين وكأنّها تصرّ على حمل ذاكرة الآباء والأجداد معها خوفاً عليها من الاندثار. إناءٌ خاصٌّ بالعطر وآخر بماء الورد، ركوة قهوةٍ صغيرة صنعت من النّحاس الأحمر لم تتنازل عن شراء صينيّتها أيضاً، صندوقٌ للحليّ رصّع ببعض الأحجار الكريمة الملوّنة، ومبخرةٌ صغيرة تمّ طلاؤها بماء الفضّة. كلّ هذا أرادت أن يرافقها في غربتها. تصرّ عمّتها أن تدفع المبلغ كاملاً وأن تقاسمها عبء حمل هذه الأغراض التي تمّ ترتيبها في علبٍ من الكرتون المقوّى والأكياس السّميكة. تغادران

سوق النّحاسين متّجهاتٍ نحو سوق العرائس الذي يبعد حوالي ربع ساعة سيراً على الأقدام.

داخل هذا السّوق الساكن في قلب دمشق القديمة، والذي طالما أبهر طفولة حلا بمعروضاته وبضائعه وداعب خيالها بألوانه وقصص عرائسه، تتجوّلان بعض الوقت. فزيارة عمّتها لهدى ابنة الجيران باتت قريبة. رغبت في شراء هديّةٍ تليق بعروسٍ «جديدة» ستزورها بعد أيّام لتبارك لها بيتها الجديد. تنتهي من هذه المهمّة ويتمّ شراء غطاء لسريرٍ مزدوجٍ من الحرير الأرجوانيّ، يناسب عروسين حديثي العهد بالحبّ والزّواج. تغادران المكان وقد بدأت أيديهما تشكو ثقل ما حمّلوها وأثقلوها به. زيارة خاطفة لسوق الخيّاطين تشتريان منه ما أوصتهما به الجدّة من خيطانٍ حريريّةٍ وكراتٍ صوفيّة ولوازم للخياطة، وينتهي الأمر.

كعادتها الدّائمة، ومنذ أن بدأت تخطو أولى خطواتها داخل هذه الأسواق، كان لا بدّ من زيارةٍ لأشهر محلّ في صنع البوظة في دمشق، «بوظة بكداش» الموجود في سوق الحميديّة. هناك كانت تجد حلا متعتها في تناول البوظة المصنوعة من السحلب والمستكة والمغطّاة بالفستق، أو تناول صحنٍ من «كشك الأمراء» يعيد إليها الرّوح بعد ساعاتٍ من المشي ومن الكرّ والفرّ داخل هذه الأسواق الضّاجّة بالنّاس والبشر. كانت تدرك جيّداً معنى أن تُحاط بكلّ هذا الدّفء الوجوديّ. دفء الأماكن والمذاقات والأحضان الحريصة الخائفة عليها حتّى من نسمة هواء عابرة. كانت تعلم أنّها ستفتقد هذا الدّفء آجلاً أم عاجلاً، وأنّه ومهما حاولت برلين، فلن تستطيع تعويضها ولو عن جزءٍ صغيرٍ منه، فتراها تتمسّك بتلابيب هذا الدّفء كآخر جمرةٍ لها قبل السّفر.

ورغم صغر تجربتها، إلّا أنّها عرفت أنّها عابرة سبيل في دنيا ما عليها إلّا اقتناص لحظاتها الجميلة والتّحليق بها نحو ما تشتهيه نفسها التّائقة إلى الأحلام والحريّة.

في جامعة برلين للفنون Universität der Künste Berlin، إحدى أكبر جامعات الفنّ في أوروبا، خطت حلا أولى خطواتها نحو مسيرتها الإبداعيّة والتعليميّة. لوحاتها التي رصفتها ببريق الدّهشة وفخامة التاريخ وانتصاب بلادٍ لم ينجح في كسر قامتها أوغاد هذا الزمن وأوباشه، مجسّدةً فيها حارات دمشق وأسواقها ودبيب من مرّوا بها قبل آلاف الأعوام، جعل قسم الفنون الجميلة أحد أقسام هذه الجامعة الأربعة، يسارع في قبولها بين طلّابه لتبدأ رحلةً ربيعيّة الملامح في بلدٍ استقبلها بمزاجٍ خريفيٍّ وصنوفٍ من جمال الطبيعة الآسر للعيون.

ما بين أصفر وأحمر وبرتقاليّ، استقبلتها جادة Unter den linden، تحت الزّيزفون، بأثوابها الحريريّة المموّجة، ملامسةً بلين رياحها أمواج روحها، مفجّرةً ينابيع فِكَرِها لإبداعٍ فنيٍّ قادم. كانت برلين كجنيّةٍ رائعة الفتنة خرجت لتوّها من غمرة الحرّ وصخب الصّيف عاريةً من الحبّ، تبحث عنه بين مقاعد العشاق في جاداتها العريقة وعلى ضفاف نهر «شبريه» وفي قلوب عشّاقها الحالمين. تجلّت برلين في روائحها الخريفيّة، كقوارير عطرٍ أفرغها عاشقٌ على جسد معشوقته، ففاضت أريجاً وشذا غمر زائريها بروائح الزّهر والمطر والرومانسيّة موقظاً أحاسيسهم المنسية، باعثاً فيهم الحنين إلى الحبّ وحبر الدّفاتر القديمة.

استرجعت وهي تسير وحدها في Unter den linden رحلة

طفولتها. تذكّرت الكثير من لحظات الحبّ والعناق لأبوين قرّرا الانفصال ولم تفهم حينها لماذا؟ حتّى بعد أن كبرت ظلّ الحبّ بالنسبة لها معضلةً لم تنجح في حلّها. لم تفهم كيف لعقدٍ ذهبيّ الوصل والعهد أن ينقطع رغم شدّة العناق وجنون الغرام الذي كان. مضت تحدّث نفسها رغم طفولةٍ صغيرة كان من الصّعب عليها تذكّر كل شيء.

«كانت سنوات سعيدة ضحكت لي فيها السماء وغنّى لي فيها القمر. كان الهواء في تلك الأيّام يقطر أمناً وثباتاً قبل أن تخلخلني الأرض وتقذف بي إلى العراء. إلى المجهول الذي أفقدني توازني في لحظةٍ حسبتني فيها أهذي. تبدّلت الأيّام التي عانقتني يوماً بضيائها ودفئها قبل أن تتغيّر بعدها الحياة ويصدمني القدر بما خطّط وبما رسم. لم أعد أرى سوى عتمة وسحبٍ سوداء في سماءٍ تبدّلت زرقتها واشتدّ ضبابها. لم أعد أثق بالأيّام. ولا بشيءٍ اسمه الحبّ. لكنني مدينةٌ لأبي. لهذا الرجل الذي لولا حكمته ورعايته لي لكنت فقدت الأمان إلى الأبد. كم أفتقده في غربتي هذه... كم أشتاقه؟ أشتاقهم جميعاً. عمتي، جدّتي، جدّي، عنتر، صديقاتي، بيتنا في دمشق. أكاد أموت اشتياقاً لهم وللأمكنة التي منحتني كلّ هذا الحبّ».

تحاول أن تتماسك قليلاً بعدما شعرت بعاطفتها قد نالت من قلبها المرهف.

«أعتقد أنّني بحاجة إلى ريشةٍ تعيد رسم سمائي. تعيد إليها زرقتها الهاربة من مدارات كوني المضطربة. منذ هذه اللحظة، عليّ أن أجد المعادلة الصحيحة لحياتي القادمة. منذ الغد سأقوم بالبحث عن عملٍ يؤنس وحدتي ويدفع بي إلى الأمام. إلى الأعلى الذي حلمت به».

في مرسمه الذي أنشأه من أجل تشجيع الفنّانين الشّباب على ممارسة الفنون، وجدت عملاً يناسبها. كان مرسم هذا المحاضر الدانماركيّ الذي اتّخذ من برلين مقرّاً لفنونه وعمله كمحاضرٍ في قسم الفنون الجميلة، أشبه بمختبر كبير تولّدت فيه الأفكار والصّيحات الجديدة المبتكرة لفنانين ألمان وآخرين قدموا من جميع أنحاء العالم من أجل إطلاق إبداعاتهم الفنية في عاصمة الإبداع والفنّ. موجةٌ كبيرةٌ من فنانين ومبدعين قدموا من شتّى أصقاع الأرض، ازدادت بصورة كبيرة بعد انهيار «جدار برلين». مناخٌ مفعمٌ بالفرص الكثيرة وفّرته العاصمة الألمانية لكلّ هؤلاء، ومساحات واسعة منحتها لهم كي يطلقوا من خلالها أعمالهم الفنيّة ويحلّقوا مع عروضهم الإبداعيّة.

لم يكن من الصعب على حلا التّأقلم في بلدٍ لها فيه جذورٌ عميقةٌ وملامح كثيرة. لم يمض وقت طويل حتّى بدأت تبني لنفسها حياة ثقافية نوعيّة شكّلت لها أرضاً خصبة أثرتها على المدى البعيد. رافقت أستاذها في جولاته التي نظّمها خصّيصاً لطلّابه من كلية الفنون الجميلة، زاروا فيها مناطق كثيرة كالمنطقة المحيطة بشارع «أوجوست» وشارع «بوتسدام» في حيّ الفنانين، وساحة الفنون الإبداعيّة المعاصرة أكبر ساحات برلين وأكثرها شهرةً. هناك استرجعت طفولتها وجولاتها وهي تطوف معهما ساحات برلين وشوارعها سيراً على الأقدام. يدٌ صغيرةٌ تمسك باثنتين كبيرتين تشدّانها برفقٍ كي تحثّاها على السير إلى الأمام، بينما تتابع العينان الصغيرتان النظر نحو اليمين ونحو اليسار تراقبان كلّ ملمحٍ إبداعيّ لمحته العينان الزرقاوان في طريقهما.

لم تتوانَ حلا عن متابعة نشاطات برلين الثقافيّة والعروض

الفنيّة التي كانت تقام باستمرارٍ في ساحاتها ومراكزها الثقافية. داومت آخر كلّ أسبوع على شراء تذاكر شتّى لعروض موسيقيّة ومسرحيّة حملت أسماء لامعة في عالم الفنّ والموسيقى الذي أثرى ذائقتها الفنيّة وأغنى حسّها الإبداعيّ، ودفع بها إلى المشاركة في أحد معارض الرّسم التي أقيمت في العاصمة بعد وقتٍ قصيرٍ من مكوثها في برلين. أستاذها الذي رأى فيها موهبةً تستحقّ الانتباه والتّقدير، دعمها وتابع مسيرتها الفنّية خطوةً بخطوة.

هناك، وفي إحدى صالات العرض حيث عشرات اللّوحات المعروضة انتصبت فاتحةً ذراعيها لاستقبال أعين الزائرين وإيماءات إعجابهم، التقت الفتاتان. نظراتٌ ودودةٌ اشتبكت في حوارٍ صامتٍ تفتّحت معه الشّفاه عن ابتساماتٍ عريضة كادت بها الشفاه أن تنطق. صالتان كبيرتان عرضت فيهما عشرات اللّوحات لفنانين جسّدوا من خلالها العديد من أفكارهم معبّرين فيها عن أحاسيسهم، محوّلين هذه المشاعر والأفكار إلى خطوطٍ وبقعٍ وأشكالٍ مرئيّة داعبت بألوانها أسطح القماش وبياض الورق ولبّ الخشب. جوٌّ يعبق بروائح الأصباغ والصّمغ والفحم والماء، يستقبل الزّائرين بانتشاء أنوفهم حال دخولهم صالتي العرض. أنواع وأشكال عديدة للوحاتٍ تشكيليّة وتجريديّة ملأت الصالتين، محيّيةً فراغهما بألوانها وأصباغها ومواضيعها المختلفة.

الزائرون المتذوّقون يتجوّلون ببطءٍ بين هذا الكم الهائل من الجمال والإبداع، يتوقّفون أمام كلّ لوحةٍ بعضاً من الوقت، يتأمّلونها بصمتٍ واندهاش، بعضهم يدير حديثاً مع أصحاب اللوحات بصوتٍ خافتٍ يكاد يُسمع همسُه، ومن ثمّ يمضون إلى

لوحاتٍ أخرى يبعثرون عند أقدامها نظرات الإعجاب والدهشة لما يرونه من فنٍّ وإبداعٍ وجمال.

تدخل ميار إحدى هاتين الصّالتين، تتجوّل فيها مظهرةً إعجابها بأجواء المعرض وما ساده من نظام وجوٍّ دافئٍ ودود، ولسان حالها يقول، فعلاً صدق من قال إنّ الفنون هي الجسور التي تربطنا بالآخرين. هي السلالم الحريريّة الّتي نتسلّق عليها كي نعانق الآخرين.

كانت تجوب أرض المعرض وحدها، عندما استوقفتها لوحةٌ مائيّةٌ رشحت رطوبةً ونداوةً اخترقت مساماتها وتغلغلت إلى كلّ مفصلٍ من مفاصل جسدها. تقدّمت صوب اللّوحة ملقيةً عليها نظرةً فاحصة. فقد لمحت فيها تفاصيل كثيرة تذكِّر ببلادها وأهلها. لوحةٌ تشبه أمّها وجدّاتها وتِبرَ زنودهنّ الملساء. تلمس فيها حنيناً لماضٍ لا تتوقّع أن تلقاه في غربةٍ تصرّ على ابتلاعك في غول أجوافها، لكنّ الوطن المزروع فيك وفيها ينتفض لك ثائراً، يتصدّى لغربتك، لصقيع أيّامها، مذيباً بحضوره الدّافئ برد وحدتك وقسوة غربتك. هي لحظةٌ تتمنّى فيها أن يخترق جسدك زمن اللّيلك والياسمين الغافي تحت ظلال ألوانها، أن تسهر أهدابك على ضوء قناديله ويغفو رأسك على صدر حكاياته كإغفاءة هذه السيدة على مفارق التّاريخ والزّمن.

سيّدةٌ دمشقيّةٌ بعمر السنديان في شموخه، تتّكئ على نافذةٍ خشبيّةٍ لحجرةٍ شرقيّة تسلّق اللّيلك والياسمين حواف جدرانها القديمة المتصدّعة. عبر ثقوب جدران الحكايا الطّافحة بالجاه والمجد، تسمع حفيف ثيابها، تصغي بتوجّس عاشقٍ إلى خشخشة أساورها وهسهسة حليّ طوّقت ببريق أصفرها جيدها وزنودها

البيضاء الممتلئة. من وراء هذه السيدة، تنتصب البيوت متراصّةً متقاربة كغلالة شوقٍ ضمّها إلى جسده أحد أحياء دمشق القديمة النابض بالفرح والحبّ. تفاصيل عبقت بروائح حيفا وعكّا والنّاصرة، أضاءت بفتيل سراجها بيوت يافا القديمة، وأشعلت بترانيم حليّها أسواق القدس العتيقة. لوحةٌ تشبه فلسطين في جمالها ودلالها ورونق حضورها.

تقف ميار طويلاً أمام اللّوحة تتأمّلها، بينما انشغلت حلا في حديثٍ دار بينها وبين أحد الزائرين حول نوعيّة الأصباغ والألوان التي استعملتها في لوحتها. مصغيةً لأنفاس سيّدة اللّيلك ولهسهسة مصاغها مضت ميار تحدّث نفسها

«هذه الأنفاسُ عربيّة. أشتمّ منها رائحة بلاد الشام وعبق بيوتها وعطر نسائها. لكن... كيف لفنانةٍ ألمانيّة أن ترسم الشّرق وأنفاسه بمثل هذه البراعة؟» محتفظةً بالسّؤال لنفسها، وبلغةٍ ألمانيّةٍ ما زالت تحبو، تلقي ميار على حلا تحيّتها المسائيّة وابتسامةٌ رقيقةٌ تعلو شفتيها. بلغةٍ ألمانيّةٍ متينة الجذور، تردّ حلا التحيّة بأجمل منها وقد علت شفتيها الكرزيّتين ابتسامة عريضة.

ـ اللّوحة جميلة جدّاً. أراكِ ترسمين حكايا الشّرق؟

ـ فعلاً. وهل هناك أجمل من أن يرسم الإنسان بلاده؟

ـ بلادك؟ ألست ألمانيّة؟

ضاحكةً برقّةٍ وعذوبةٍ شاميّة راق لميار رنين لحنها:

ـ تستطيعين القول إنّني بين بين. نصفي الأوّل عربيّ والآخر ألمانيّ. أبي سوريّ وأمّي ألمانيّة. لكنّني أعتبر نفسي سوريّة حتّى النّخاع.

- لن تصدّقيني إن قلت لك... إنّني لمست في عينيك بريقاً دمشقيّاً لعينين احتشدت فيهما كلّ مآذن الشّام وحمائم الشام وياسمينها وورد‌ها البلديّ رغم زرقتهما الأوروبيّة.

تبتسم حلا بسعادة من أعجبه وأثمل رضاه جواب محدّثتها:

- وأنت... أيّ بلدٍ عربيّ أتى بك إلى هنا، إلى برلين؟

- أنا فلسطينيّة من عرب الـ 48. من يافا، إحدى مدن الساحل الفلسطيني. أتوقّع أنّك سمعت عن يافا أو على الأقلّ تعرفين ولو القليل عن تاريخ فلسطين. اسمي ميار. ميار يوسف. جئت برلين لإكمال دراستي الجامعيّة في موضوعي الصحافة والإعلام.

- تشرّفنا يا ميار. أنا حلا... سوريّة من دمشق. أدرس في كليّة برلين للفنون، سنة أولى قسم الفنون الجميلة.

- أفهم من هذا أنّنا حديثتا العهد في برلين. أنا هنا منذ خمسة أشهر فقط. هل تقيمين مع عائلتك هنا؟

- في الحقيقة لا. أسكن وحدي في شقّة استأجرتها منذ ثلاثة أشهر هنا في برلين، لكنّني بصدد مغادرتها قريباً والإقامة في شقّة قديمة كنت قد سكنتها مع والديّ أثناء طفولتي. قصّةٌ طويلة.

تُحدّث حلا، باقتضابٍ مقصودٍ، زائرتها الفلسطينيّة عن بعض تفاصيلها الشخصية، وعن رحلة تنقّلها ما بين دمشق وبرلين. لكنّ طبيعة ميار الإعلاميّة وحسّها المرهف جعلاها تدرك أنّ وراء هذه الفتاة قصّة لا تريد الإفصاح عنها ومن المنطق ألّا تدلو حلا بدلوها عند أوّل لقاءٍ يجمعها بشخصٍ تجهله.

محاولةً أن تبعد الشبهة عمّا فهمته من وراء السّطور تعقّب ميار درءاً لإحراج كلتيهما:

- ما أكثر القصص في شرقنا يا حلا. لكن قولي لي كيف تقاومين كلّ هذا الحنين وهذا التشتّت إن صحّ التّعبير ما بين دمشق وبرلين؟

- بالرسم. أرسم كي أروي بألواني عطش الورق وعطش الحنين وعطشي إلى كليهما.

ضاحكةً ملء فمها تهمس لها ميار:

- يبدو أنّك عطشة جداً يا عزيزتي، وهذا العطش يحتاج إلى فنجاني قهوةٍ يعدّلان مزاج الحنين ومزاجينا. ما رأيك؟ يسرّني دعوتك لجلسة قهوة بعد انتهاء العرض.

هكذا هي البدايات العاشقة للوطن في غربةٍ ضمّتهما عام 2004. فنجان قهوةٍ جمع يافا ودمشق في برلين، وبوادر صداقةٍ حاكتها الغربة وغذّاها الحنين، وسيّدةٌ شاميّة تتّكئ على كتف اللّيلك والياسمين، تشبه الأمّهات والجدّات في شموخهنّ، وحكايا فلسطين.

ها هي الحاضرة الأمازيغيّة، عاصمة شمال المغرب وعروسه تطلّ من بعيد، ببيوتها البيضاء وأسوارها العتيقة وتاريخٍ توالت عليه حضاراتٌ عديدة ضربت في أعماقه أنفاس الأمازيغ والقرطاجيّين والوندال والعرب. خمس عشرة دقيقة ويصلون طنجة. خمس عشرة دقيقة من خفقان قلبٍ لا يهدأ، ومن رجفةِ جسدٍ لم يعد يستطيع الانتظار أكثر إلى حين استنشاق هواء طنجة ودوسِ ترابها. قليلاً ويتحقّق حلم ميار باستنشاق هواءٍ عربيّ يعيد المجد لرئتيها.

تبدأ العبّارة بتخفيفِ سرعتها، يهدأ صفير الرّيح، تصفو الوجنات، ويسودُ ترقّبٌ حذر بين المسافرين لا يُسمع فيه سوى لهاث البحر واضطراب الرّيح. عبر مكبّراتِ صوتٍ ثُبّتت في زوايا مختلفة من العبّارة، يعلو صوت يُطالب المسافرين بالتّوجّه إلى إحدى حجرات الطّابق السفليّ ليتمّ هناك فحص الجوازات وختمها. يلبّي المسافرون الطّلب. يتوجّهون بأعدادهم الكبيرة إلى الحجرة المعدّة لذلك، مع تدافع بعضهم بشكل غير لطيف. تقترح ميار على صديقيها ألّا يبرحا المكان ريثما تذهب هي لختم الجوازات. فحلا ما زالت تشعر بالتّعب والإرهاق وانتظارٌ طويلٌ كهذا داخل هذه الزوبعة المشحونة بالبشر لن يزيدها إلّا إرهاقاً

وتعباً. يروق الاقتراح لصديقيها مع ارتسام أمارات خبثٍ على وجه حسام ترجمها لسانه حديثاً مازحاً وجّهه لميار:

- هل ترين يا عزيزتي ضرورة وجودي بينكما؟ ماذا لو لم أكن موجوداً كيف كنتما ستتصرّفان؟

بلباقةٍ تنمّ عن إطراءٍ، وابتسامة أنثى راق لها هذا الوجود الرجولي، تجيبه ميار:

- بكلّ تأكيد يا عزيزي، وجودك مهمٌّ جدّاً معنا يا حسام إن لم يكن هو الأهمّ. ليس عندي أدنى شكٍّ في هذا.

ينظر إليها مبتسماً لدفء عينيها العسليتين تلمعان بحبّ لأخٍ صغير له في القلب معزّةٌ كبيرة. يشكرها مقدّراً ما سمعه منها. فهو يعرف أنّ شعورها بالمسؤوليّة نحوه، لم ينقطع منذ أن توجّهت إليها عائلته قبل أربع سنوات بطلب المساعدة في ترتيب بعض الأمور المتعلّقة بدراسته وسكنه في العاصمة الألمانيّة برلين، حيث تربطها بهذا الشاب الفلسطينيّ، والذي قدم من إحدى قرى شمال فلسطين، علاقة قربى وثّقتها الأمّهات أصلاً ونسباً.

شابٌ في أواسط العشرينيّات من العمر، وسيم الطّلعة أسمر، تلمح في قسمات وجهه إصراراً وعزيمةً، وفي عسل عينيه وضوح رؤيا لا تقبل بأنصاف الحلول. منذ أن بدأ يعي الدنيا رأى نفسه طبيباً، استسلم للفكرة، آمن بها، دافع عنها بقوّة أمام أهله الذين عارضوا في البداية موضوع سفره محاولين إقناعه بضرورة البقاء في البلاد وإكمال دراسته الجامعية فيها. لكنّه لم ييأس، استمرّ في محاولاته لإقناعهم بجدوى السفر حتّى رضخوا في نهاية المطاف لرغبته أمام ما رأوه منه من إصرار ودفاع مستميت في سبيل حلمه. غادر البلاد التي وضعت جامعاتها الكثير

من العقبات أمام الطلاب العرب الفلسطينيّين الراغبين بدراسة موضوع الطبّ البشري. وككثيرين، حزم أمتعته وغادر الوطن إلى حيث المستقبل وتحقيق الآمال الكبيرة.

لم تألُ ميار جهداً طيلة هذا الوقت في دعمه وتشجيعه للمضيّ قدماً نحو هدفه، موظّفةً تجربتها العريضة في الغربة من أجله. كان يستشيرها في كلّ صغيرةٍ وكبيرة وعند كلّ مطبٍّ صادفه أو شكّل عائقاً في طريقه. رغم فارق السنّ بينهما، إلّا أنّ صداقةً جميلةً جمعتهما وذكّرتهما برائحة الأمّهات والجدّات والوطن. صمغٌ قويٌّ هنّ بنات الوطن في غربتك. درسه الأوّل الذي تعلّمه في الغربة.

يمكث حسام ملازماً لحلا بينما تغادر ميار المكان منضمّةً إلى الحشد المتدافع في الطابق السفلي والمنتظر دوره دون أدنى صبر أمام الغرفة المعدّة لفحص الجوازات.

في الغرفة الصغيرة المزدحمة بالمسافرين، الغاصّة بأجسادهم الدّبقة ولهاث العجائز وبكاء الأطفال، يرتطم الواقع بالحلم. يتفجّرُ حلمها أمامها شظايا من وجعٍ وخيبات ناثراً أشلاءهُ شلالات من دم اجتاحت صدغيها حتّى كادت أن تفجّرها. بنيانٌ شاهقٌ من أمنٍ وأمانٍ وحبٍّ لوطنٍ كبير ينهار أمامها في لحظةٍ صعقتها وصدمتها، حتّى إنّها لم تنجح في لملمة شظاياها أو فهم تداعياتها.

بعد انتظارٍ لم يدم طويلاً، تتقدّم ميار داخل الغرفة المكتظّة بالمسافرين، حيث يجلس في أقصى زواياها رجلٌ خمسينيٌّ يطلّ من خلف طاولةٍ خشبيّةٍ صغيرة منفّذاً مهمّته بميكانيكيّة ووجهٍ عبوسٍ أنهكه الملل والتّعب. وجهٌ قمحاويّ اللّون غليظ القسمات،

تبدو عليه الطّيبة لكن بضع حبيبات من العرق عبثت بوجهه ونظّارته الطبيّة جعلت منه كائناً عصبياً همّه إنهاء مهمّته بأقصى سرعة ممكنة. الأجساد بأحجامها الضخمة والرقيقة تحيطُ بالرّجل من كلّ جانب، الأنفاس المشتعلة حرّاً تنفث نفاد صبرها تذمّراً من حوله ما زاد من حدّة توتّره وعصبيّته، والأيادي الكثيرة بأحجامها وألوانها المختلفة تمتدّ إليه مقدّمةً له جوازاتها غير آبهةٍ بما اعتراه من تعبٍ وتوتّرٍ محقونٍ.

تحاول ميار أخذ مكانٍ لها يقرّبها من الرجل، بينما تقوم عيناها بالتّحديق في تفاصيل كثيرة تحيط بالمكان. تارةً ينصبّ نظرها على الأيادي الممتدّة نحو الرجل وهي تلوّح له بجوازاتها، وتارةً يسرح نظرها عبر نافذةٍ زجاجيّةٍ أكل الملح سطحها الأملس من خلالها استطاعت أن ترى البحر وهو يتهادى في سيره استعداداً للوصول. وما بين تحديق وتحديق، كانت تصغي لحديثٍ دار بين الإخوة المغاربة وبين هذا الرجل لم تفهم منه إلّا النّزر اليسير.

يحين دورها. تمدّ له الجوازات وهي تهديه ابتسامة شكرٍ وتقديرٍ لجهده وعمله الشاقّ داخل غرفةٍ بدأ الحرّ يكون فيها خانقاً. متجاهلاً ابتسامتها متابعاً مهمّته بميكانيكيةٍ روتينيّة، يتناول منها الجوازات مباشراً فحصها. وكمن لسعته أفعى رقطاء أو كمن انتهك حرمة بيته عدوّ لدود، يرمي بأوّلها بعيداً عن مرمى يديه مطلقاً بعض كلماتٍ غاضبة أشبه بالشتائم لم تفهم منها ميار سوى كلمة إسرائيل. تتدارك ميار الموقف، تمسك بالجواز قبل أن يسقط أرضاً، رامقةً الرجل بنظرةٍ فيها من الدهشة والاستهجان ما جعل الجميع من حولها يتنبّه لما يجري. وقبل أن تنطق مستفسرةً

عمّا حصل، محاولةً فهم ما أطلقه الرّجل من عباراتٍ غاضبة وشتائم مبهمة، يكون قد باشر في فحص الجواز الثاني الذي اجتاز آلة الفحص البشريّة بسلام وتمّ ختمه دون أيّة عوائق أو عراقيل. في هذه الأثناء تكون ميار قد تناولت الجوازين لتدرك أنّ ما قد تمّ رفضه هو جواز سفرها الإسرائيليّ، بينما اجتاز جواز حلا الألمانيّ نقطة التفتيش والختم. أمّا جواز حسام، فكان مصيره كمصير جوازها، الرّمي والرّفض.

لحظة شعرت بها دهراً. تمنّت أن يبتلعها البحر فيها أو أن تبتلعها معجزة ربّانيّة تخفيها عن الأنظار. وقفت عاجزةً لا تقوى على ردّ أيّ فعل والجميع من حولها يرمقونها بنظراتٍ تفحصيّة وكأنّها كائنٌ غريبٌ هبط لتوّه من الفضاء الخارجي كي يحتلّ الأرض. شعورٌ باغترابٍ لعينٍ ورغبةٍ شديدةٍ في البكاء. ربّما على كتف طنجة أو كتف الوطن. كانت تحتاج في هذه اللحظة التعيسة لمن يسند عجزها ويحضن وجعها. ودّت لو صرخت بأعلى صوتها، أعيدوني إلى بلادي. لا أريد سوى بيتي وسريري وكتف أمّي.

يختنق الهواء من حولها بعبارات هذا الرجل التي بدت حروفه أشبه بطلقاتٍ ناريّةٍ أطلقها لم يعرف معها أيّ قلبٍ أصاب وأيّ عالمٍ جميلٍ قتل. انطلق كلامه كالرّصاص ممزّقاً نسيج حكايتها الجميلة. حكايةُ وطنٍ رسمتها بألوان الورد وعطّرتها بزهر البيلسان، وتوّجتها بنهايةٍ ورديّةٍ حالمة كحّلها الواقع رفضاً واغتراباً وسواد سفر. تقف مذهولةً وسط موجة حنقٍ لفحت بلهيبها وجه الرجل وأنفاسه اللّاهثة غضباً، وهي تحاول التّوازن من جديد والاستفسار مجدّداً عمّا قاله الرجل. لكنّها تُفاجأ به يثور مرةً أخرى دون أن تنجح في فهم أيّ شيء. يتدخّل بعض

المتواجدين هناك ليشرح لها بلغةٍ عربيّة فصيحة ما قاله الرجل كي يساعدها في فهم ما جرى.

- الأمر يتعلّق بكونك إسرائيليّة، وبأنّك لا تملكين أيضاً تأشيرة دخول، فيزا يعني. لذا أنت لا تملكين حقّ الدخول إلى الأراضي المغربيّة.

- إسرائيليّة؟ تأشيرة دخول؟ ليته يشرح لي أيّا منهما السبب. نحن فعلاً لا نملك تأشيرة دخول، لأنّ الشاب المغربيّ الذي باعنا التذاكر أكّد لنا مراراً وتكراراً أنّنا نستطيع زيارة طنجة دون حاجةٍ لأيّة تأشيرة. هذه ليست غلطتنا. هو المسؤول عن هذا الخطأ. ربّما كان علينا فحص الأمر بأكثر دقّة وعدم الاعتماد على كلام هذا الشاب. لكن هذا ما حصل.

بامتعاضٍ بدا جليّاً على وجهها الغاضبِ المُهان، تبتسم للرجل الذي بيّن لها المشكلة، تشكر له لطف معاملته، وتغادر المكان متوجّهة حيث صديقاها ينتظران قائلة دون مقدّمات:

- لن ندخل طنجة. لقد تمّ رفض جوازينا أنا وحسام.

- ماذا؟

نطقاها معا والدّهشة تعلو وجهيهما.

- نعم لن ندخلها.

قصّت عليهما ما حدث معها بالتّفصيل، مشيرةً إلى سبب الرّفض غير المفهوم لها تماماً. أهو متعلّقٌ بكونهما يحملان الجنسيّة الإسرائيليّة أم بسبب عدم وجود تأشيرة دخول تمنحهما حقّ زيارة طنجة.

في بداية الأمر، استقبل حسام وحلا خبر الرّفض بنوعٍ من

الاستهجان والذّهول، سرعان ما تحوّل لدى حسام إلى هستيريا من الضّحك غير المُسوّغ. استفزّ ميار وأثار غضبها.

ـ نم باكراً يا حسام... لا تسهر يا حسام... لدينا سفر غداً يا حسام... وحسام ولدٌ مطيع ينصاع لأوامر الدكتورة العزيزة والفنانة المشهورة مضيّعاً سهرةً مع إحدى الفتيات الأندلسيّات الجميلات كانت من الممكن أن تنتهي بصيدٍ وافرٍ خسرتُه لأجل طنجة وزيارة طنجة وتحقيق حلمك الكبير في زيارتها يا عزيزتي ميار. الحلم العربي ترا تا تا... ماذا استفدت أنا من كلّ هذا الآن؟

قالها مقهقهاً وكأنّ ما حدث هو أمرٌ عابرٌ لا أهمية له.

تنظر إليه ميار وقد احتدمت غيظاً من ردّ فعله المستهتر وغير المسؤول. يشعر بمدى غضبها، يحاول أن يكبت ضحكه مع اجتهادٍ بدا بائساً لتغيير هذا الجوّ المشحون من خلال سؤال وجّهه لحلا التي بدأت تستعيد عافيتها ونشاطها:

ـ وحضرتك ماذا ستفعلين؟

ـ ماذا تعني؟

أقصد أنّك خارج إطار الرّفض الدّولي. محاولاً أن يقمع ما تبقّى في صدره من قهقهات لم ينجح في إخمادها نهائيّاً يتابع كلامه:

ـ يعني أنت تستطيعين دخول الأراضي المغربية، فجوازك الألماني يتيح لك ذلك وأعتقد أنّها فرصة ذهبيّة تستطيعين القيام فيها بجولةٍ سياحيّة لبضع ساعات في هذه المدينة العريقة.

ـ حسام... هل أنت جادّ في كلامك؟ هل يعقل أن أترككما وأغادر وحدي؟ ماذا جرى لك؟

تقاطعهما ميار بشيء من العصبية والحزم:

- بربّكما دعونا من هذا النقاش السفسطائي. هل خطر ببالكما مثلاً أنّ مثل هذا الأمر من الممكن أن يؤدّي إلى نتيجةٍ أشدّ تعقيداً؟ لم تفكّرا في هذا بالطبع. لذلك دعونا نفكّر مليّاً ماذا علينا أن نفعل وكيف علينا أن نتصرَف؟

- أقترح أن نترك المكان هنا والتّوجّه إلى الطابق السفليّ للبحث عمّن يستطيع المساعدة. يردّ حسام.

توافق الصديقتان. يترك ثلاثتهم سطح العبارة باحثين لهم عن حلّ يخرجهم من هذه الورطة.

في هذه الأثناء تكون العبارة قد وصلت ميناء طنجة ورست فيه منتظرةً تفريغها من حمولتها البشريّة والتّجاريّة. يبدأ المسافرون بمغادرتها كلٌّ يحمل أغراضه وحقائبه وابتسامةً عريضةً رسمتها السّلامة وصولاً آمناً على الشفاه وعلى الوجوه. بضع دقائق وتغدو من كانت أروقتها قبل قليلٍ تعجّ بالأنفاس والضّجيج والبشر، أشبه ببيتِ أشباحٍ فرغ لتوّه من أهله وناسه مع آخر راكبٍ غادر أرضها. قريباً من مدخل العبارة، يقف الأصدقاء الثلاثة ساهمين قلقين ينتظرون القادم المجهول. صمتٌ ووجومٌ يعلو وجوههم ووجه شابّ أفريقيّ بدا هو الآخر مرتبكاً حيث لم يُسمح له بمغادرة العبارة لسببٍ يجهله ثلاثتهم.

توجّسٌ حذرٌ يلقي بظلاله عليهم وانتظارٌ ضبابيُ المعالم يجهلون نتائجه. تبدأ بعدها موجةٌ من اللّوم الشّديد يلوم فيها كلٌّ نفسه لعدم فحصه الأمر بصورةٍ أدقّ وأعمق قبل شراء التذاكر.

- ما كان علينا أن نأخذ بكلام ذلك الشاب وكأنّه كلامٌ مُنزلٌ

من السّماء. كان علينا التروّي وفحص الأمر بأكثر دقّة قبل الإسراع في شراء التذاكر. تنوّه ميار.

كأنّما يلوم نفسه يردف حسام قائلاً، وقد بدأ حديثه يأخذ منحى أكثر جديّة:

ـ الغلطة غلطتنا نحن. ليس من حقّنا إلقاء اللّوم على أحد. أنا شخصيّاً أستطيع تفهّمَ العبد المأمور الذي ينفّذ التعليمات والقوانين ليس أكثر. كان علينا الانتباه أكثر، نبّهونا في البلاد لهذا الأمر، نستطيع زيارة سبتة فقط، ومع ذلك أُصِبنا بالعمى وطمعنا في زيارة طنجة وهنا حصل...

تقاطعه حلا مستغربة:

ـ حسام... لقد التبس الأمر عليّ يا صديقي. أرجو أن توضّح لي ما الفرق بين الزيارتين، فكلتاهما، سبتة وطنجة، مدينتان مغربيتان أليس كذلك؟

ـ يا عزيزتي... صحيح أنّ سبتة هي منطقة تقع داخل الأراضي المغربيّة، لكنّها تعتبر منطقة إسبانيّة تتبع إسبانيا وتقع تحت حكمها الأمر الذي ترفضه المملكة المغربيّة جملةً وتفصيلاً. المغرب يرفض الاعتراف بشرعيّة الحكم الاسباني على سبتة ويعتبرها مدينة محتلّة. وبما أنّ سبتة تعتبر مدينة إسبانية، فهذا يتيح لنا إمكانيّة زيارتها دون أيّة مشاكل أو عراقيل بحكم أنّنا ضيوف على الدولة الإسبانيّة. أمّا طنجة والتي لا تبعد عنها كثيراً، فأمرها مختلف تماماً. هي مدينة مغربية مستقلّة تقع تحت السيادة الوطنيّة الكاملة لدولة المغرب، وهنا حصل الالتباس، وكأنّنا بزيارتنا لها قد اجتزنا حدود دولةٍ أخرى لها قوانينها وسيادتها ما جعل من زيارتها أمراً يستلزم منّا الحصول على

تأشيرة دخول تمنحنا حق الدخول إلى أراضيها. هذا الاختلاف الذي اتّضحت معالمه الآن هو ما سبّب لنا هذه الورطة التي بدأت أشكّ فعلاً في نتائجها.

ـ الآن فهمت... شكراً لك.

تشكره حلا وهي ترمي بنظرها خارج العبارة نحو بيوت طنجة المتربّعة على قمم التلال البعيدة بانتظار قدومهم إليها. أمّا حسام فيمضي في بثّ تخوّفاته معبّراً عن قلقه وجزعه ممّا ستؤول إليه هذه الأزمة.

ـ ماذا تعتقدان سيحدث الآن؟ كيف سيتصرّفون معنا؟ هل من الممكن أن يشكّوا في أمرنا ويعتبروننا متسلّلين وبالتالي يقودوننا إلى الاعتقال أو التّحقيق؟ والله إن حدث هذا فلن يعرف بمصيرنا أحد.

ـ حسام... بربّك توقّف عن بثّ هذه الأفكار السوداء التي لن تفيدنا في شيء. يكفي لوماً لأنفسنا. وللتذكير فقط، لا تنسيا أنّني مواطنة ألمانيّة تحمل جواز سفر ألمانيّ وهذا يعني الكثير. اهدآ وهدّئا من روعكما قليلاً.

يتجدّد صمتهم. عاصفة من صمتٍ خانقٍ تضرب سواحل انتظارهم. انتظارٌ بدا لهم دهراً رغم أنّه لم يدم طويلاً. ما هي إلّا دقائق معدودات وإذا برجلٍ أربعينيٍّ تبدو عليه علامات الهيبة والوقار يتقدّم منهم طالباً جوازات سفرهم. من بطاقة تعريفٍ علّقت على صدره، يدركون أنّ السيّد الماثل أمامهم، محمّد عبد الرّحمن، رجل أمنٍ تمّ استدعاؤه على ما يبدو، للتّحقيق في الأمر. الجوازات من فضلكم. يناوله الثلاثة جوازاتهم دون أن ينبسوا ببنت شفة وقد أدركوا أنّ الأمر أصبح أكثر جديّةً وأشدّ تأزّماً مع

وصوله إلى أيدي رجال الأمن. يتناول منهم الجوازات دون أن ينطق هو الآخر بكلمةٍ واحدة، ثمّ ينطلق إلى حيث لا يعلمون.

في هذه اللحظة تسارع ميار لتلحق به بعد أن أخذ الخوف ينهش قلبها الصغير. شعرت باهتزاز الأرض تحت قدميها حيث جوازها هو أمنها وأمانها في غربتها رغم إشكاليّته.

- لو سمحت يا سيّدي. دقيقة واحدة من فضلك، أريد محادثتك.

ينظر إليها مصغياً إلى أنفاسها اللّاهثة، يتفحّص وجهها الذي احتلّ الذّعر مساحاته الجميلة، مبتسماً لها بعد أن رأى فزعاً شديداً قد غزا عينيها الصغيرتين قاطفاً شهدهما الطريّ.

- أرجوك يا سيّدي... اسمعني من فضلك. أرجو أن تسمعني جيّداً. أنا عربيةٌ مثلك تماماً... صدّقني... فلسطينيّةٌ من يافا... هل سمعت عن يافا؟ عن العروس التي لبست فستان فرحها وما زالت تنتظر العرس والمدعوين. أنا منها... من هناك... من فلسطين. من البلاد التي فقدت يوماً عذريّتها بفعل وعد الغاصبين لكنّها لم تفقد يوماً ذاكرتها، لم تفقد يوماً صبرها وأملها بقيامةٍ تعيد إليها الحقّ والفرح وحلم العائدين. نحن يا سيّدي من بقينا في وطننا نزرع الأنفاس صموداً ونضالاً وحريّة. نحن الجدار الأخير الباقي من الرواية... بل نحن الرواية الباقية لحروفٍ حاولوا كتم صرخاتها، حاولوا اغتيال أبطالها ودفنهم في رمال المستحيل. بدت نظراتها في هذه اللحظة كمقاوم عنيدٍ نهض لتوّه من الرماد صارخاً بأعلى صوته... إلّا أنّنا كالعنقاء لا نعرف المستحيل. كالعنقاء ننهضُ، كما في كلّ مرّة، من جوف الرّمادِ مردةً من نار، لا يزيدنا الألم والظّلم إلّا قوّةً وتحدّياً وإصراراً.

أنظر إلى هذا الماثل بين يديك... هل تسمع نبضه؟ هل تلمس وجعه؟ هذا الذي يُدين أصل روايتنا وصدق حكايتنا ببهتان حبره. كيف لنا يا سيّدي أن نُدان به؟ كيف لنا أن نُرفض ونُقذف بهذا الشكل المهين؟ ومِنْ مَنْ؟ ألم يرَ الرّجل أنّ الأسماء فيه عربيّة، والأنفاس عربيّة، والملامح عربيّة؟ تخيّل أنّك تعيش في وطنٍ ليس لك من وطنٍ سواه، لكن عصر مهانةٍ وخيانةٍ اضطرّك أن تحمله فغدوت بحكم جور التاريخ عليك منفيّاً داخل أسواره، ماذا كنت ستفعل؟ لا يعقل يا سيّدي أن نُهانَ أو أن يذهب البعض إلى حدّ نفي وجودنا وإلحاقنا بإسرائيل، لا لشيء، إلّا لأنّنا نحمل جواز سفرها. ألا يكفي أنّنا مسافرون نحمل الوجع معنا أينما ذهبنا وأينما حللنا؟ ألا يكفي أنّنا نعيش داخل جدران ذاكرةٍ لا ينطفئ لهيبها قهراً ونكبةً وألماً؟ ألا يكفي كلّ هذا؟ ما حدث اليوم ليس لنا فيه أيّ ذنب. كلّ ما هنالك أنّنا جئنا إسبانيا للاستجمام وقضاء بعضٍ من الوقت. كان حلماً أن نزور بلادكم الحبيبة. فمغربكم في القلب. وأنتم في عمق عمق القلب. لكنّ التباساً حصل جعلنا نقف موقف المتّهمين بل الأعداء. الشخص الذي ابتعنا منه التذاكر في ميناء الجزيراس هو من أكّد لنا أنّنا نستطيع زيارة طنجة رغم معرفته بأنّنا نحمل جواز سفرٍ إسرائيليّ. لكنّنا قوبلنا من قبل رجل الجوازات ليس فقط بالرّفض وإنّما بالإهانة أيضاً. أيعقل يا سيدي ألّا تعرفنا وأن تجهل قضيّتنا الشعوب؟ أو أن نؤخذ باتّهامٍ ليس هو من الحقيقة بشيء؟

يلاحق خطى أنفاسها المكلومة تصيح مقهورةً:

- أهو عطر فلسطين قد تلاشى تحت ملاءاتِ الأزمنة القذرة حتّى إنّ أحداً لم يعد يتذكّره أو ينتبه له؟ أم أنّه تسلّل من ثقوب

الذاكرة حتّى تاه وضاع في دروب النسيان الأغبر؟ أنا لا ألوم الرجل لرفضه لنا، فهو عبدٌ مأمورٌ ينفّذ القوانين والتعليمات، إنّما ألوم سوء تقديره ومعاملته لنا وكأنّنا لسنا من دمٍ واحدٍ وليس لنا وجع واحد. كلّ ما نرجوه يا سيدي أن نعود من حيث أتينا. فأهلنا وعائلاتنا وبلادنا بانتظارنا. أرجوك يا سيدي ساعدنا كي ينتهي الأمر دون أيّة تعقيدات. أرجوك.

ينظر إليها، وقد خنق العجز صوته وعينيه:

ـ اطمئنّي ولا تخافي. كلّ شيء سيكون على ما يرام. أعدك بذلك. اهدئي فقط. هو إجراءٌ أمنيّ بسيط أقوم بعده بإعادة الجوازات لكم. قالها وعيناه تحضنان وجهها بحبٍّ كبيرٍ لبلادٍ قدِمتْ منها، ولقضيّةٍ حملتها معها. قالها واختفى عن الأنظار.

كمتّهمين ينتظرون لحظة النّطق بالحكم، افترشوا أرض العبّارة متّخذين من حقائبهم الصغيرة متّكأ لرؤوسهم وهواجسهم التي أرهقها التشاؤم بحضوره الثقيل. جلسوا شاردين قلقين لا ينطقون.

تتلكّأ الدّقائق على غير عادتها في طرق انتظارهم القاتل. ساعةٌ من الزمن مرّت، أُرهقت فيها الأجساد وتعبت الأذهان قبل أن يعود بعدها رجل الأمن حاملاً بين يديه جوازات سفرهم، وأسفاً كسا محيّاه الجميل، وبضع كلمات اختزنتها شفتاه إلى حين المواجهة والنطق بالحكم. يلمحونه من بعيد، يهبّون لاستقباله وفي مخيّلة كلٍّ واحدٍ منهم سيناريو مختلف لما قد يحصل.

ـ للأسف نحن مضطرّون أن نعيدكم ثانيةً من حيث أتيتم. ستنتظرون معنا هنا حوالي الساعتين ريثما يحين موعد انطلاق

العبّارة ثانيةً ومن ثمّ تعودون على متنها إلى ميناء الجزيراس. واحمدوا الله أنّ الأمر انتهى على هذه الحال. كان من الممكن أن يكون أسوأ، لكنّني بذلت قصارى جهدي أن ينتهي الأمر على هذه الصورة. قالها وهو يصوّب نظراته نحو حلا وكأنّه يريد أن يشكر وجودها معهم. يقدّم لهم الجوازات متمنّياً لهم عودة ميمونة ورحلةً آمنة، يشكرونه بدورهم ثمّ يغادر المكان.

يغادرون مرفأ طنجة منهكين محبطين، وعشرات الأسئلة ما زالت ترافقهم، تعصف بأذهانهم، تحوم كذبابةٍ على حافة احتضار فوق رؤوسهم الخالية من أيّ تفسير لما حصل. فسفر الفلسطينيّ «الإسرائيليّ» في أوردة الوطن العربي، أشبه برحلةٍ على صفيحٍ ساخنٍ أو جولةٍ في حقل ألغام. هل كان سبب غضب الرّجل ورميه للجوازاين ورفضهما، كونهما جوازي سفرٍ إسرائيليّين؟ أم أنّ عدم وجود تأشيرة دخول تمنحهم حقّ الدخول إلى الأراضي المغربيّة هو السبب وراء موجة الغضب التي اجتاحت الرجل وما تلاها من رفض؟ لكن لماذا تمّ استدعاء رجل الأمن؟ ماذا قصد عندما قال إنّ الأمر كان من الممكن أن ينتهي بصورةٍ أسوأ؟ هل هذا معناه أنّهم أثاروا بمجيئهم من إسبانيا إلى طنجة شكوك السّلطات المغربيّة خاصةً وأنّهم يحملون جواز سفرٍ إسرائيليّ؟ أم أنّ تركيبة وجودهم معاً قد أثارت الشكوك خاصةً أنّ رجل الأمن كان قد سأل ميار عن العلاقة التي تربطها بحسام وحلا؟

تساؤلاتٌ لم يجد لها أحدٌ منهم جواباً شافياً. لكن ما أدركته ميار هو أنّ حلمها قد خذلها كما خذلها الوطن. سقط من أعلى قمم القلب، تشظّى ألف شظيّة وشظيّة، غاب خلف مساحات الأمل الأخضر حتّى أنّه لم يبقَ منه في قرارة ذاكرتها غير ذلك الصّفير المدوّي لعبّارةٍ عائدة، تحمل معها وجعاً وخيبةً لجيلٍ فلسطينيّ

سقط في منتصف الطريق ما بين الواقع والحلم، وصدى حزينٍ للحنٍ غنّته النّوارس العائدة معها على متن عبّارة «الحلم العربي» الذي ضاع منها كضياع فلسطين عندما اغتصبت وجزّت رقبتها بسكّين الإهانة والخيانة والظّلم. وها هي اليوم، تُغتصب أمامها مرّة أخرى.

ويعود شبح المدن الغريبة يلوح في سماء وجعها وفضاءات الذاكرة.

يتفاقم حزنها هذا المساء وهي تتذكّرُ تلك المشاهد التي تسرّبت كالضّوء من شقوق الذاكرة، بينما تصّر عيناها على التّحديق في عينيّ هذا الصامت وكأنّها تلوم بوسيدون لصمته وعجزه عن الدفاع عنها عندما رفضها جزءٌ من دمها ولحمها. لكنّه آثر الصّمت. بقي كالجلمود لا يحرّك ساكناً. لم تُثر نظراتها المحدّقة به أيّاً من مشاعره. لم يأبه لاضطراب الليل في قلبها متجاهلاً رعشات حزنها هذا المساء. يغوصُ جسدُها مجدّداً في فوضى الأريكة، يلتصق برحمها أكثر فأكثر، يتكوّر كجنينٍ تستهويه العتمة ويخيفه نور الانعتاق وتنهال عليه الذّكريات.

تتذكّرُ، ومحمولها يستقبلُ أصابعها في رقصها الواثب خفّةً فوق حروف هذا الصغير، كم مقتت فنّ صياغة الرسائل وكم أزعجتها قوانين كتابتها على الورق. فما انفكّت توجيهات معلّمة اللغة العربية تحفرُ في رأسها ناقرةً خشب الذّاكرة، وهي تشرح للطلاب هذه المهمّة الكئيبة «كيف نكتب رسالة؟». كم كان هذا الدرس مملّاً وكئيباً؟! حتّى إنّه لم يتبقّ في جوارير ذاكرتها البعيدة

منه، سوى أنّ الرّسائل أنواع ولكلٍّ منها أسلوبه وطرائقه الخاصّة به وهذه تتبعُ الهدف وجمهوره.

جمهورٌ وأهدافٌ وموادُّ تعليميّةٌ هادرةٌ للوقت قاتلةٌ للإبداع. أيّ هراءٍ هذا الذي أثقلوا به النفوس وأرغموا العقول على استيعابه؟ لا أفهم ما الجدوى من هذا كلّه ونحن نبحر اليوم عبر عصر تكنولوجيّ يستطيع أن يوفّر لنا كلّ ما نرغب في معرفته من علمٍ ومعلومات؟ أيّ مضيعةٍ لأوقاتنا وأيّ فسادٍ لأرواحنا كانت تلكَ الدروس؟ ألم يكن من الأجدر بالمعلمة ندى أن تعلّمنا مثلاً كيف نكتب رسائلَ في الحبّ؟ أو كيف نرسم الحبّ واقعاً جميلاً نحلّق معه في فضاءات الفكر ونعيشه نهج حياة؟ من المؤكّد أنّ درساً كهذا كان سيبقى راسخاً في أذهاننا كحجر ماسٍ نشحذُ به عقولنا كلّما كَبَت العقول، أو كزيتٍ مقدّسٍ نضيء به سُرُج قلوبنا كلّما سادت الضغينة وملأ الحقد هذه القلوب. لكنني أشكّ في قدرة المعلمة ندى على اجتياز هذه المهمة بنجاح. فقد كانت دوماً مثالاً للمعلّمة التقليديّة التي انساقت حسبما أملته عليها المناهج التعليميّة وما أمرها به مرؤوسوها. كما أنّني أستبعد فكرة أنّها عرفت الحبّ يوماً. لا تبدو لي بهيئتها المربّعة وصرامتها المعهودة وانزعاجها المريض من تواجدنا برفقة الصبيان واختلاطنا بهم، أنّها قد عرفته يوماً أو لمحته في الطريق. كبتٌ وقمعٌ وتحريم، والأدهى من هذا كلّه، كيف نكتب رسالة؟ ما أبشعها من معلّمة وما أبشع رسائلها!

تحبس ميار ضحكتها في صدرها وهي تستحضر وجه المعلّمة ندى وموقفها من الحبّ، مكتفيةً بابتسامةٍ مضطربة المعالم تهديها لماضيها الجميل. ابتسامةٌ فيها من الشّوقِ ما قد

يقتل ناقةً عطشى تاهت وسط صحراء لم يعرف الماء يوماً طريقه إليها، ومن الحنين ما قد يغرق أرضاً عطشى بدموع شوقها لكلّ ما مضى. هذا الحنين القاتل لكلّ شيء. نقطة ضعفها في غربتها. حنينها لمدرستها في يافا، لأترابها المبعثرين على حدود الأمكنة ومحاور الزّمن، لمقاعد الدراسة التي غمرها غبار السنين ولمّا تزل على العهد حافظةً لأسمائهم وشكل أياديهم الصغيرة، لأهلها وتفاصيل وجوهٍ شاخت وغابت ولم تشهد عيناها رحلة ملامحها الجديدة، لبحرٍ طالما أربكت نسائمه المشاغبة شعرها الطويل، لمراكب الصيادين التي تخوض معارك الصّمود والبقاء في حقّها بلقمة العيش والحياة الكريمة، ولقصاصة ورقٍ حملت حبّها بكلّ عنفوان الحبّ والمطر.

كان هذا عندما ضبطها مدرّس الرياضيّات متلبسّةً يوماً بجريمةٍ «نكراء» اسمها الحبّ. كانت حينها في السابعة عشرة من عمرها عندما كتبت فيها تقول:

منذ ملايين السنين

بل منذ الأزل...

وقُبلة المطر هي قُبلة القبلات

وقِبلة الحبِّ الذي أمطرَ فَسَحَر

ما ألذّ طعم القبلاتِ

عندما تحملُ طعم الحبّ والمطر.

كلماتٌ صاغتها من أجل الحبّ. لم يصدّق معلّمها حينها أنّها لم تخطّها لأحدهم، بل سبكتها خصّيصاً لأجل هذا الفرعون العظيم قلائد لؤلؤٍ وأطياف قُبَل. حاولت إقناعه ببراءتها من تهمة الحبّ

وسحر فرعون وشعوذاته. ثارت، احتجّت، شرحت له وجهة نظرها أنّه ليس هناك أجمل من أن تعشقَ الحبّ، وأن تعيش هذه الحالة الوجدانيّة الوجوديّة من التّماهي مع الروح لا مع المحسوس والملموس والبشر. ماحكته وناقشته بحقيقة سمّو الروح إلى ما وراء النفس البشريّة قائلةً:

أن تعشقَ الحبّ، معناه أن تموتَ اشتياقاً لهمس بدايات المطر يبلّلُ بساتين الوطن مزيلاً عن زهرها قيظ الصيف وكآبة الخريف. أن تموتَ لهفةً لحديثٍ صاخبٍ يشي به إليك بحر يافا ذات مساءٍ تشرينيّ. أن تموتَ شوقاً لعطرِ الدقائق الأولى من ولادات الفرح القابع خلف نزع النهايات. أن تموتَ احتراقاً لموعدٍ خفيّ يرمي به قدرك إليك لا تعرف من أبطاله إلّا أنت. أن تموتَ توقاً لفكرةٍ يغازلها شغفك، فيحملها قوس قزح على بساط الألوان والأحلام ملقياً بها إلى ما وراء الغيب كي ينفّذها جنونك. أن تموت انتظاراً وأنت تراقص الشمس احتضارها إلى حين ولادة القمر. أن تعشق كلّ هذا فقد استطعت أن تشتري لعمرك حياةَ حبّ أبديّة.

ومع تبدّل رائحة الحبّ في تلك القصاصة التي ما زالت تحتفظ بها ميار في أدراج الماضي، ورغم بهتان لونها وذبول أطرافها، إلّا أنّ وهجها بقي متّقداً يفيض شوقاً لذلك الحبّ الخفيّ وذلك التوبيخ الذي أغدقه عليها مدرّس الرياضيات.

نفرت من الرياضيات واعتبرته علماً جافّاً، فظّا، غير إنسانيّ. حاولت أن تفهم سبب نفورها منه. هل كانت حادثة القصاصة هي السبب من وراء ذلك؟ أم موقف معلّمها من الحبّ ومنها، هو الذي جعلها تمقت هذا العلم ولا تستسيغه؟ ربّما هو اليقين بأنّ الأرقام والحسابات والقياسات لم تك جميعها لتناسب

مقاس روحها الفضفاضة. روحها العاشقة لفضاءات الجمال الشاسعة ومساحات الحبّ اللّامحدودة. تساءلت، كيف للحبّ أن يُقاسَ بالأمتارِ والأميال والبوصات؟ كيف للمشاعر أن تقاسَ بالشّبر والذّراع والقدم؟ كيف لمسافاتِ الأنين أن تتلاشى ولخطوات الأرق أن تتوازى، وللآهات أن تُدحض وللأشواق أن تُختزل؟ كرهت الدوائر والمستطيلات والمربعات واعتبرتها سجناً أزهق روحها وخنق إبداعاتها. كرهت الكسور ومعادلات الضرب والطرح والنظريات والتطبيق. مقتت علم الاحتمالات لأنّها عرفت أنّه احتمالها الوحيد الباقي على وجه هذه الدنيا الفانية، الحبّ. هذا العظيم الّذي لا يفنى. به يستطيع البشر تطبيق أعظم النظريات وحلّ أصعب المعضلات. تمنّت لو أنّ معلّمها أدرك حينها معنى أن تُقتل على يد الحبّ ثمّ تحيا على يده ثانيةً. أو أن يضرب سواحل روحك عشقٌ دفينٌ يقسمك إلى شطرين، أو أن يختزلك الوجد حتّى تصبح عاجزاً عن الكلام أو النطق. ليته أدرك كلّ هذا، إلّا أنّه اختار البقاء قابعاً بين الأضلاع والزوايا، غارقاً بين الكسور والأعشار يضرب ويقسم، يجمع ويطرحُ مبتسماً لبطولاته الجليلة في حلّ معضلاتٍ رياضيّة لم تكن لتعنيها أبداً.

تتذكّر هذا كلّه، بينما تستمرّ ذاكرتها في اغتصاب الفرح من قلبها، وتفشل هي في محوِ الكآبةِ عن جبين هذا المساء وجبينها. فما زال الحزن مصرّاً على الحضور بكامل هيئته العسكريّة وبزّته السوداء، مصطحباً معه معدّاته الحربيّة وطوابير جنده الّتي جاءت لترافقها ليلتها، مجتازةً معها صفحةً أخيرة من عامٍ لم يخلُ من أحداثٍ تعيسة جعلتها حبيسةَ جدرانٍ وأسيرةَ حزن.

محاولات أصدقائها الحثيثة في إقناعها بالعدول عن

قرارها، والانضمام لاحتفالات رأس السنة التي اعتادوا إقامتها كلّ عام، لم تُثنها عن قرارها. كان رفضها قاطعاً وقرارها غير قابلٍ للاستئناف. لا لاحتفالاتٍ غابت فيها حلا. رغم ذلك، لم ينفكّ هاتفها الخليوي عن الصراخ والعويل استجداءً لردٍّ يأتيه منها، وتشبّثاً من كثيرين بمحاولات إضافيّة من شأنها أن تساعد في إقناعها بالانضمام والمشاركة في الاحتفالات.

أمّا شقّتها الواقعة في منطقة «تشارلوتنبرغ» غربيّ برلين، فقد بدأت تعتادُ ما اعترى ميار في الآونة الأخيرة من تخبّطاتٍ ومزاجٍ عصبيٍّ سبّبتها لها ظروفها الاجتماعيّة والنّفسيّة، متقبّلةً بهذا فوضويّة مشاعرها وتقلّب مزاجها، مشكّلةً لها مرطمَ أمواجٍ انتصب كحارسٍ صنديدٍ مهمّته امتصاص غضبها وتأمين الهدوء لها. شقةٌ صغيرةٌ لطيفةُ المعشر، أمّنها لها عليّ أحد الشبّاب العراقيّين، الذين تعرّفت عليهم حديثاً في العاصمة برلين. كان هذا قبل خمسة أشهرٍ عندما قرّرت هجر شقّتها القديمة في حيّ «كروزبرغ» وهجر كلّ ملمحٍ يذكّرها بها. كان عليها أن تغادرها بأسرع وقتٍ ممكنٍ قبل أن تحرقها الذكريات أو تصيبها تفاصيل الماضي بمسٍّ أو جنون. شرعت في البحث عن شقةٍ أخرى، علّها تنسيها وجع الماضي وحرقته، وتمنح قلبها ولو قليلاً من السّكينة والطمأنينة.

لم يخطر ببالها أنّ زيارةً خاطفة لضاحية نويكولن Neukölln وتحديداً لشارع زونين أليه Sonnenallee، من شأنها أن تأتي بشقّةٍ تطابق في مواصفاتها ما سعت إليه وما بحثت عنه بالشّكل الذي يناسب ظروفها الاقتصاديّة ومكانتها الأكاديميّة. في هذا الشارع المعروف ب «شارع العرب»، اعتادت ميار القيام ببعض التسوّق

خاصةً عندما احتاجت إلى شراء أشياء تحمل صبغةً عربية أو نكهةً شرقيّة لم تكن لتجدها في أماكن أخرى في برلين، أو كلّما اشتاقت لتناول بعض المأكولات الشرقية أو الأطعمة العربية. كلّ شيءٍ هنا، في هذا الشارع، يذكّر بالوطن. لم يُخطئ قاطنو برلين عندما أطلقوا عليه اسم «شارع العرب». فقد حمل من ملامح العرب الكثير. إن زرته خلت نفسك موجوداً في أحد أحياء بغداد أو بيروت أو في زقاقٍ من أزقة القاهرة. على امتداد كيلومترين تقريباً، تنتصب فيه المطاعم والمقاهي والمتاجر العربية بأنواعها المختلفة ولافتاتها وأسمائها وبضاعتها وهيئة بائعيها ولغتها العربيّة المتداولة لتقول، نحن هنا، مرحبّةً بالزّائرين القادمين من شتّى أرجاء الوطن العربي. اليوم أصبح شارع زونينأليه مقرّاً للمغتربين من أبناء الجاليات العربية، يلتقون فيه على اختلاف أطيافهم وجنسيّاتهم، وبات معلماً هامّاً من معالم برلين وواقعاً ينبض بكلّ ما هو عربيّ.

بعد جولةٍ استمرّت ساعتين قامت فيهما ميار، يرافقها حسام، بالتسوّقِ وشراء ما تحتاجه، عرّجا على أحد المقاهي الممتدّة على طول الشارع، لاستراحةٍ قصيرة يتناولان فيها البيرة الألمانيّة والقهوة العربية قبل أن يغادرا المكان ويعودا أدراجهما كلٌّ إلى شقّته. لم تكن زيارات ميار إلى هذا الشارع، رغم قلّتها، تتمّ بمفردها. اعتادت أن يرافقها حسام أو أحد أصدقائها المقرّبين لأسبابٍ أفصح عنها اسم الشارع وكشفت عنها بعض ملامحه المجتمعيّة. كانت تبدو أكثر راحة وهي تتجول معهم فيه.

يدخلان المقهى في ساعات المساء المضاءة بشمسٍ لا تزال تتصدّر سماء برلين. فشمس العاصمة شقيّةٌ لا تحبّ النّوم. تعانده

كعادتها في كلّ صيف. فما من مغيبٍ لها في هذه الفترة من السنة قبل الساعة العاشرة أو حتّى الحادية عشرة ليلاً.

ـ حسام... دعنا نجلس خارجاً. رئتاي بحاجةٍ إلى بعض النسمات الصيفيّة المنعشة. بتّ أكره المكيّف وأمقته كمقتي للأماكن المغلقة. إنّها تصيبني بالاختناق.

يشير حسام إلى النادل طالباً منه تهيئة مكان لهما في الخارج. ملامح هذا الشاب وسمرته الداكنة كانت كافية لتنطق بأصوله العربيّة. يباشر الشاب بإعداد طاولةٍ صغيرةٍ تناسب شخصين. يبادره حسام مستفسراً:

ـ ما اسمك يا أخي؟

ـ عليّ!

ـ أهلاً يا عليّ. أنا حسام وصديقتي اسمها ميار. كنت متأكّداً أنّنا إخوة في الدم. من أيّ بلدٍ حضرتك؟

ـ عراقيّ بغداديّ! وأنتم... لبنانيّون؟

ـ لا. فلسطينيون... من فلسطينيّ ال 48.

ـ أهلاً وسهلاً بفلسطين. أهلاً بالأحبّاء الصّامدين.

قالها وهو يهديهما ابتسامة اعتزازٍ وفخرٍ، مكمّلاً مهمّته في إعداد طاولةٍ استطاع الصديقان من خلالها رصد حركة المارّة ومشاهدتهم وهم يهرولون كلٌّ إلى مبتغاه.

في الغربة يشتدّ الحنين. فلا تلبث أن ترى روحك وهي تشرع في البحث عن وجوه لها شكل الأماكن والرّوائح وخرائط الوطن كي تسافر عبرها إلى البعيد الذي تشتاقه الروح. تفتّش فيها عن

تفاصيل زقاقٍ كنت قد ركنت إليه يوماً وأنت عائدٌ من مدرستك وقد نال منك الحرّ والعطش كما لم ينل منك يوماً، أو رصيفٍ أهداك ندبةً وجملةً رمى بها عابر سبيل كان قد مرّ بالمكان عندما زلّت قدمك وسقطت أرضاً وهو يبتسم لك قائلاً «تعيش وتوكل غيرها». هكذا هو وجه عليّ. أرصفةٌ حبلى بقصص الأزقّة والندب القديمة. شابٌ في أواخر العشرينيات من العمر، تلمس في تقاسيمه البغداديّة وسامة الرشيديّين، ونقاء دجلة، ونخوة شعبٍ خيّرٍ وأرضٍ كريمة. جاء برلين لاستكمال دراسته الجامعيّة في موضوع الهندسة المدنيّة بعد أن ضاقت به سبل العيش في بلاده ورأى في هذه العاصمة فضاءً يمكنه فيه أن يُحقّق طموحاته وآماله الكبيرة. في هذا المقهى الصغير عمل نادلاً من أجل تمويل دراسته الجامعيّة ومعيشته اليوميّة. ومن هذا المقهى انطلقت صداقته مع ميار وحسام.

ـ هل ترغبين في زجاجة من البيرة الباردة؟ حتماً ستنعشك في هذا الحرّ الشّديد.

ـ لا... أفضّل فنجاناً من القهوة العربية. أشعر برأسي يكاد ينفجر. وأريدها ثقيلة لو سمحت. سأسمح لنفسي بتناولها ثقيلةً فلا يزال لديّ متّسعٌ من الوقت لحين قدوم موعد نومي. لقد أمسى القلق في الفترة الأخيرة رفيق ليلي يا حسام.

راح يتأمّلها بحبٍّ كبيرٍ تمنّى معه لو أنّه يستطيع أن يحمل عنها بعضاً من قلقها وحزنها، ثم قال لعليّ الذي وقف ينتظر طلبيهما.

ـ من فضلك، أريد زجاجة Bier Berliner pilsner وفنجان قهوة

عربية للآنسة. مؤكّداً ضرورة أن تكون ثقيلةً وخاليةً من السكّر. يهمّ عليّ بالذهاب فتضيف ميار:

- وزجاجة مياهٍ غازيّة لو سمحت.

ينصرف عليّ لعمله، ويجلس حسام وميار ساهمين صامتين. تشعل ميار سيجارةً هي الثالثة منذ وصولهما المقهى، وتقدّم أخرى لحسام.

- ميار... ألا تشعرين أنّك بتّ تبالغين كثيراً في التدخين؟ ماذا جرى لك؟ لا يمكن أن تستمرّي على هذه الحال. ارحمي نفسك قليلاً وارحميني معك. ببساطة أنا لا أحتمل رؤيتك تذوبين حزناً وأقف عاجزاً لا أقوى على فعل أيّ شيء. هذا العجز يقتلني. ما حدث كان قدراً مكتوباً. هذا قدرها... علينا أن نقبل به رغم الفاجعة.

تنظر إليه وقد أغرق الدّمع عينيها حتّى اختنق صوتها به:

- أكاد أجنّ يا حسام... لا أصدّق ما حدث. مجرّد فكرة غياب حلا ترعبني وتكاد تفقدني عقلي، فكيف لي أن أحتمل أمر غيابها وإلى... الأبد؟ لا أستوعب ما حدث. كيف استطاعت أن تخفي عنّي أمر مرضها وإقناعي بأنّ سفرها إلى سوريا ما هو إلّا سفرٌ مؤقّتٌ تقوم فيه بزيارةٍ قصيرةٍ تطمئنّ فيها على والدها وجدّيها في ظلّ أجواء الحرب الملعونة التي عصفت ببلادها ومن ثمّ تعود؟ وأنا؟ كيف لم أنتبه لمعاناتها في الفترة الأخيرة؟ ألهذه الدرجة شُغِلنا وعُمينا عن رؤية هذه التّفاصيل الدقيقة من حياة أحبّتنا؟ هل أصبح تقوقعنا في دواخلنا مرضاً مزمناً من أمراض هذا العصر اللعين، فقدنا معه إحساسنا بمن حولنا والقدرة على رؤية

ما يجري حولنا؟ أم هو إيقاعنا السريع في دنيا سحبتنا إلى عوالمها الافتراضيّة المجنونة، أفقدتنا البوصلة فضللنا الطّريق؟ صحيح أنّ لقاءاتنا في الفترة الأخيرة لم تكن كما كانت عليه في السابق، وأنّ اعتذاراتها للقائي باتت كثيرة بذريعة أنّها مشغولة، لكن هذا لا يعفيني من المسؤولية ومن أنّه كان عليّ الانتباه أكثر لكلّ هذه التفاصيل. كلّ ما في الأمر أنّني اعتقدت أنّنا في الخندق نفسه. قضية انشغالٍ فقط وضيق وقت. وأنا لسذاجتي صدّقتها ولم أعر الأمر أيّة أهميّة. ليتني انتبهت لكلّ هذا يا حسام. ليتني انتبهت. تنفجر مجدّداً ببكاءٍ ضاق به صدرها المتعب، كما لو أنّ خبر وفاة حلا باغتها للتوّ. بكاؤها لم ينقطع منذ علمت بوفاتها قبل ثلاثة أشهر. كان الربيع يخطو أولى خطواته نافثاً أنفاسه في الورد والزّهر عندما دهمها الخبر. كان يليق بحلا أن تغادر في الربيع. كريشةٍ في مهبّ الريح حلّقت بعيداً. هربت مع فراشاته وغيماته إلى ما بعد حدود العتمة والظلام. إلى حيث النور الذي يليق بروحها. إلى حيث الألوان التي عشقتها تاركةً وراءها لوحات تبكي غيابها وصديقة لم تعد برلين تعني لها شيئا بعد غيابها. تبكيها دون توقّفٍ.

ـ ليتها شاركتني أمر مرضها. أو على الأقلّ أمهلتني وقتاً كي أستوعب ما حصل. سنة فقط منذ أن دهمها ذلك الدوار لأوّل مرة. هل تتذكر ذلك؟ كنّا في طريقنا إلى طنجة. كلّما أتذكّر تلك الرحلة المشؤومة أصاب بالهلع والغثيان. لم نعر الأمر حينها أيّة أهميّة وظننّا أنّه أمرٌ عابرٌ سبّبه لها دوار البحر أو بعض التعب والإرهاق وقد زال أمره وانتهى. لكنه لم يكن كذلك.

كان يصغي لحديثها وكأنّه يسمعه للمرّة الأولى، لا للمرّة

الخمسين. جلس صامتاً يستقبل ما بثّه حزنها ولسانها من صورٍ وذكريات كان يدرك تفاصيلها جيّداً بل قد عايش الكثير منها. كان يعلم كم هي بحاجةٍ لأن تتذكّرها وتذكرها طوال الوقت وكأنّها بذلك تحييها، تبعثها من جديد. تعيدها إليها وإلى الحياة التي فقدت حلاوتها بعد غيابها. فللذّكرى وقع الحضور عند منحنيات الغياب. تسترسل في الحديث عنها بأسى لم يلمحه حسام يوماً في عينيها.

ـ ما زالت ريشتها وألوانها حيّةً تنشر أنفاسها في كلّ زاويةٍ من زوايا شقّتي. لا يزال عطرها يرافقني كلّما مررت بتلك الغرفة وتلك المبخرة، يتسرّب إلى أنفي محوّلاً فضاء رئتيّ إلى حقولٍ من الأزهار البريّة وسهول اللّافندر. أقراطها، أساورها، خواتمها، كلّ هذا لا يزال مبعثراً في شقّتي، حتّى أنّها لم تفكّر في استرجاعه لئلّا تثير انتباهي. تركته لي لتعذّبني. هذه التفاصيل تذبحني يا حسام. لم أعد أستطيع البقاء في شقّةٍ كلّ ما فيها يذكّرني بحلا. حتّى جدران شقّتي لا تزال تضجّ بأزهار ونساء لوحاتها. الأطعمة التي عشقتها ما زالت تحتلّ رفوف مطبخي الصغير، مربّى البرتقال وكعيكات الزبدة، وجبنة الريكفورت، كلّ هذا لا يزال ينتظر عينيها القافزتين فرحاً ويديها الممدودتين تلهفاً للقائها. كنت أهتمّ بألّا ينقصها أيّ شيء من هذا. قضت في شقّتي أوقاتاً أكثر ممّا قضت في شقّتها. كانت تشعر بوطنها حاضراً في شقتي. حرارة استقبالي لها، روائح الطّهي التي جهلت أصوله ولم أنجح في أن تتعلّمه وبالتالي تجيده، والأهمّ من هذا كلّه تقبّلي لها دون رتوشٍ أو أصباغ. تقبّلتها كما هي. بمزاجيّتها وعصبيّتها، بجنونها الذي طال في كلّ مرّةٍ جلست فيها ورسمت. كنت أعرف أنّه لا يمكن لحلا أن تُبدعَ دون هذا الجنون. دون هذا الدفء الذي

أحطتها به. فكيف للموت أن يتجرّأ ويسرقها في غفلةٍ منّي يا حسام؟ كيف لها أن تنتهي بهذه البساطة وكأنّها لم تكن؟

راح يتأمّلها بصمتٍ حزينٍ لا يقوى معه على النّطق أو الكلام، وهي تسترسل في بثّ حزنها الذي ينفطر له القلب ولكثيرٍ من ذكرياتها معها.

تابعت ميار حديثها وهي تبتسم لطيف حلا الحاضر أمامها لا يتركها:

- هل تعلم بماذا أجابتني يوماً عندما طلبتُ منها أن تخطّ لي بألوان الفحم بعض أبياتٍ من الشعر أردت أن أصنع منها لوحةً أعلّقها على جدران شقّتي علّ حروفها تعود وتعلّمني كيف أحيي الحبّ وأحياه من جديد؟

صمتت قليلا، وهو لا يزال ينظر إليها منتظراً بقيّة الحكاية ليرى ما فعله الحبّ بصديقتيه. تشعر بلهفة انتظاره فتُتابع:

- إنّي لا أؤمن في حبٍّ لا يحملُ نزقَ الثّوّار

لا يكسر كلّ الأسوار

لا يضرب مثل الإعصار

هذا ما طلبته منها يا عزيزي. لوحة تفيض أعاصيرَ وجدٍ وثورات حبّ. أجابتني حينها: أتمنّاه يا ميار. أتمنّى هذا الحبّ الذي يسحقني ببنادق ثورته، يكسر أسواري بأمواجه المجنونة، يضرب سواحل قلبي، يقلب مراكبي رأساً على عقب. ألا يوجد لديك ثائرٌ فلسطينيٌّ يفعل بي كلّ هذا؟ كانت تضحك من أعماق قلبها وهي تطلب منّي هذا الحبّ وهذا الفدائي الثائر. فتجربتها في الحبّ كتجربتي فيه، فاشلة. كلتانا فشلنا في الحبّ ونجحنا في

الحياة. لطالما ذكّرتني بأنّ الجميلات هنّ أقلّ النّساء حظّاً في الحبّ وأكثرهنّ تعاسةً رغم ما يحيط بهنّ من جمالٍ وفرصٍ ثمينةٍ ورجال. كنت أضحك لاستنتاجها المثير هذا حتّى خلتني بدأت أومن به.

مشتاقةً إليها، لحديثها، لجنون قهقهاتها، تركن ميار رأسها بين يديها، وقد طوّق الحزن بسواده قلبها وثيابها وصمتاً عميقاً أطبق بثقله على كليهما. يطلّ عليّ من بعيدٍ، يحمل بين يديه صينيّة نحاسيّة وضعت عليها القهوة والبيرة وقليلاً من الفستق السوداني، وابتسامةٌ كست وجهه سرعان ما اختفت بعد أن لاحظ ارتباك الحزن والدّمع في عينيّ الصّديقين. يضع أمامهما ما أحضره ويغادر المكان تاركاً لهما مساحات الصّمت والحزن يصولان ويجولان فيها كما يحلو لهما.

تتقلّبُ ميار على الأريكة، وكأنّ حقلَ شوكٍ قد نبت بغتةً في أرض هذه الصفراء فحوّلها إلى موقدٍ من جحيم. تنتصبُ فجأةً، تحاولُ الجلوس علّها تجد فيه راحةً لقلبها، يخيبُ ظنّها فتعود وتلقي بكامل ثقلها على الأريكة، تاركةً لجسدها حرية نحت الالتواءات، ولشعرها الأجعد الطويل اختيار الإيقاعات من نومٍ وقيامٍ وقعود. قدمٌ ترفعُ هنا وأخرى تمدّدُ هناك، يدٌ تمتدّ بحذرٍ لتسندَ رأساً أثقله الفجع ثمّ لا تلبثُ أن ترمي به بعيداً غير آبهةٍ بآلامه ولا حتّى بأحلامه، وجميع محاولاتها لتمنح نفسها بعضاً من الهدوء تبوء بالفشل. فما من مغيثٍ يستطيع أن ينقذ هذه الرّوح وما من مسعفٍ لها.

«هذه الرُّوح؟ ماذا تبقّى من هذه الرّوح وقساوة الغربة تنهشها وتدميها يوماً بعد يوم؟ تقضمُ بأسنانها سنوات عمرها الباقية كتفاحةٍ رطبة تُقضمُ وتُمضغ فلا يتبقّى في نهاية الأمر منها سوى نواةٍ تُلفظُ باستخفافٍ دون أن يذكر أحدٌ من حلاوة التّفّاح شيئاً؟ ماذا تبقّى من هذه الرّوح بعد كلّ هذا الدمار الذي يشهده وطنها الأصغر وذلك الأكبر الأتعس منه كلّ لحظةٍ وكلّ حين؟ ماذا تبقّى من هذه الروح بعد رحيل حلا وغياب نديم وإخفاق الحبّ في

دروب العشق المصلوب على جدران الهزائم؟ ماذا تبقّى من ميار؟ من هذه الروح الجميلة المتمردّة؟».

تتساءلُ بتهكّم من ملك زمام العلم والغيب، وكأنّ مصيرها بات محتوماً بعد أن قامت وأصدرت عليه حكما أدانت فيه روحها دون أن تمنحها فرصةً للاستئناف. ثمّ لا تلبث أن تستدرك نفسها صارخةً من أعماق عقلها لأعماق روحها المستسلمة، كفاكِ هراءً. ما الذي يحدث لك؟ لا يعقل أن ينال منك هذا الاستسلام بهذه السهولة. لن تلقي بسنوات عمرك وشقاء غربتك ومجهود دراستك في أحضان يأسٍ أو براثن إحباط. ما كنت يوماً فريسةً سهلةً لليأس ولا للأحزان. نفسك لم تعتد هذا الاستسلام أبداً. استيقظي... توازني وأعيدي السّلام إلى قلبك. عليك التّماسك من جديد. خاصّةً أنّ اللّقاء بات قريباً... وقريباً جدّاً. لكنّ روحها التي لم تعرف اليأس يوماً ولا الخنوع، تصرّ الليلة على تقمّص ملامحَ أخرى لا تليق بهذه الصّلبة العنيدة. هذه المحاربة الجسورة ترفع الليلة أمام دخلاء اخترقوا قاموس حياتها الصّامد راياتها هزيمتها، تتركهم يدسّون البارود في حلقٍ لم يذق يوماً طعم الهزائم.

في الفترة الأخيرة، بدأ عملها في الصّحافة وكأستاذةٍ جامعيّةٍ لهذا الموضوع، يضيّق الخناق عليها ويؤثّر على حالتها النفسية. لم يعد من السهل عليها أبداً متابعة ما يجري على الساحة السياسيّة في إسرائيل من تضييقاتٍ وانتهاكاتٍ للحقوق وسنّ قوانين عنصرية، وهي بعيدة عن بلادها وأهلها تفصلها عنهما أميالٌ ومسافات لا تستطيع فيها المساهمة بأيّ شيء سوى إيصال رسالتها وصوتها من خلال مهنتها ووجودها في بلدٍ

يحترم هذه المهنة ويقدّسها. مسلسلٌ مستمرٌّ من أحداثٍ ناريّة في وطنٍ لا تخبو ناره ولا تهدأ أخباره، ومهنةٌ تحتاج منها قوةً ومواكبةً يوميّةً لقضاياه المصيريّة. كلّ هذا بدأ يُثقل عليها ويُرهقها ويُعكّر مزاجها.

«شرعيّ أن تتعب أرواحنا أحياناً وأن تنزف وجعاً. فللنّفس أيضاً حالاتها وأوجاعها. قليلٌ من التّرميم أعيد فيه تأهيل روحي وسأكون بخير. نعم سأكون بخير. فأنا خير من يعلم كيف أعبر بهذه الرّوح إلى برّ الأمان».

وثقت ميار بروحها الواعية. آمنت بقدرتها على تخطّي ما أسمته «نزع الرُّوح». ما تحتاجه فقط هو القليل من الوقت تستطيع به لملمة أشلائها ومن ثمّ الانطلاق من جديد.

تنهي رسالتها إلى سارة، مطلقةً تنهيدةً طويلة جثمت على صدرها دهراً من براكين وبراكين من وجع، لتشهد في لحظةٍ جهلت سبب انفجارها، نشاطاً فيزوفياً قرّر قذفَ حممه الغاضبة سحباً من انتقام وغازات من ثأر. شيءٌ ما بداخلها قرّر أن ينتفض ضد ظلمٍ أصابها في يوم من الأيّام رغم كونها شخصاً لم يعتد الانتقامٍ ولم يألفه. ظلمٌ أرغمها على مغادرة الوطن والعيش في أحضان قارةٍ أوروبيّةٍ، غريبةً، بعيدةً عن بلدٍ وأهلٍ وحبٍّ كبير تنازلت عنه رغماً عنها.

«الانتقام والثّأر. مشروع موتٍ بطيء. جرعاتٌ من السمٍّ نبتلعها مع سبق الإصرار والترصّد رغبةً منّا في إلحاق الهزيمة بالآخر. بهذا الذي سبّب لنا الظّلم والشّقاء وأرّق النوم والحياة. هي حالاتٌ تعترينا بين الحين والآخر، تستفيق فيها الأنا على كثيرٍ من زفرات النّدم والغضب ورضا النّفس المشروط بقادم الثّأر. ترانا نشطح معها عميقاً، عابرين ببطءٍ دهاليز الذاكرة،

ناسجين من أحداثها شريطاً سينمائيّاً يقفز أمامنا حياةً بعد حياة وكأنّنا أبطالٌ لرواياتٍ سخيفةٍ فرضت بطولاتها علينا دون استئذان. شريط حياةٍ يمتدُّ عبر فصول لحكايا كثيرة. تراه يمدّ يده للفرح تارةً كي يشاركه رقصته الجذلى، وتارةً يمدّ يده للحزن ضارباً بعرض الحائط فرح ابتساماتنا، مقدّماً لنا صفعاتٍ من الألم ووجباتٍ من الأسى. ثمّ يحضر الحبّ يختال باسماً، ينثر بعضاً من قطرات شهده على شفاهنا كلمات عشقٍ نهذي معها حتّى نكاد ننسى أنفسنا وننسى أنّه سيغادر يوماً أرضنا تاركاً لنا الحنين والذكرى وربّما الانتقام. غضبٌ وهدوءٌ وثأرٌ وشريط عمرٍ يسحبنا نحو دوّاماته، يربك أعماقنا، نعود معه سنين إلى الوراء، نعيدُ فيه حساباتنا مع أنفسنا ومع الآخرين، نحاول فهم قانون التنافر والتّجاذب على محاور هذه الحياة. لكنّنا عندما نشرع في التّفكير بالانتقام نكون قد شوّهنا نفوسنا الجميلة ولطّخنا دقائق الفرح المسروقة من ثغر الحياة بأَسْوَدِ قارها. ونفسي روحٌ جميلة. فكيف لها أن تفكّرَ بالانتقام؟ وهل يليق بروحي كلّ هذا العناء؟»

لكنّها، ورغم كلّ ذلك، تتعطّش للقاء «الكابتن طيّار» وجهاً لوجه. تودّ لو تلتقيها لتحدّثها عن نفسها، عن الفتاة التي رأت فيها سارة يوماً صحافيّةً فاشلة، عن نجاحاتها وإنجازاتها التي أدهشت كثيرين، وعن حلمها الذي قطعت فيه أشواطاً نحو قمّةٍ أرادت سارة نسفها بديناميت حقدها ورصاص عنجهيّتها. تودّ لو تلتقيها لتنصحها بأن تنظر في المرآة ولو لمرّةٍ واحدة في حياتها كي ترى حقيقة نفسها، ربّما ساعدها ذلك في إدراك أهميّة أن تكون في الطرف الآخر من المعادلة. مثله تماماً. لكنّ سارة حالةٌ مرضيّةٌ مستعصية تكاد تكون وباءً يستشري في صفوف الأغلبيّة.

كلّما تناولت تفاحةً صفراء كبيرة تذكّرته وهي تبتسم لنصفٍ

قدّمه لها ذات لقاء جمعها به، بروفيسور شفارتس، أستاذها الجامعيّ في موضوع «أساسيّات في الإعلام». كهلٌ يهوديٌّ من أصلٍ نمساويّ رافق بداياتها الصحافية عندما درست سنتها الأولى والوحيدة في إسرائيل. هوذا الآن يتجلّى أمامها بتواضعه وإنسانيّته وابتسامته رغم اعتماره لـ «قلنسوة-كيبا» أخافتها، معتقدةً أنّها ضوءٌ أحمر يحذّر من تشدّدٍ أو عنصريةٍ من شأنها مداهمتها وافتراسها في أيّة لحظة. كان عليها استشارته في مهمّةٍ بيتيّة تعينّ على الطلاب مناقشتها معه قبل تقديمها له. عيّنت موعداً شخصيّاً للقائه كآخرين، قارعةً باب غرفته عبر طرقٍ حذرٍ خفيف. دخلت ملقيةً عليه تحيّتها باحترامٍ ورصانة طالبةٍ قدمت للقاء أستاذها. مبتسماً لها دعاها للجلوس، وهو يقدّم لها نصف تفاحةٍ كان قد بدأ بتقسيمها عندما دخلت غرفته. حركته هذه أربكتها. موقفٌ غريبٌ لم تكن تتوقّعه من أستاذٍ لها. ترفض عرضه بكلّ أدبٍ دون أن تحاول إخفاء استغرابها من طلبه هذا. بابتسامةٍ من عينيه المشاغبتين ويديه الممدودتين، يستمرّ في إصراره بأن تشاركه نصف هذه الصفراء الكبيرة وكأنّه يريد بإلحاحه هذا ربّما طمأنة عروبتها من يهوديّته الّتي بدت لها متشدّدة. محاولاتها في التملّص من هذا الموقف المحرج تفشل أمام إصراره الشّديد ما يجعلها تضطرّ في نهاية الأمر إلى الرّضوخ وقبول عرضه وهي تبتسم له ولنصف تفاحةٍ قدّمه لها. يجلس الاثنان متقابلين، هو خلف طاولته المكتبيّة المزدانة ببعض الكتب والأقلام والأوراق المبعثرة، وهي على كرسيٍّ حديديّ مقابلٍ له، يقضمان بصمتٍ ووجهين ضحوكين كلٌّ نصفه قبل أن يباشرا النقاش والبحث في وظيفةٍ جمعتها تفاحةٌ وابتسامات، وإنسانيّةٌ شائكة لقضيّةٍ مركبّة عالقةٍ.

تتضاربُ الأفكار في رأسها بلا انقطاع، ومعها يتأرجح الجسدُ مجدّداً على جمر الأريكة. الساعة الآن تشير إلى الحادية عشرة والرّبع ليلاً. تتذكّر فجأةً أنّها لم تتناول شيئاً منذ ساعات الظهيرة سوى شطيرة سمك مدخّنٍ كانت كافية على ما يبدو لتزويدها بطاقة غذائيّة حتّى هذه الساعة المتأخرة من الليل. تنهضُ بتثاقلٍ قاصدةً مطبخها الصغير، زاويتها الدافئة، لتناول شيء تسدّ به رمقها. كلّ ما في هذه الزاوية يذكّر بالوطن. أوعيةٌ زجاجيّةٌ تراوحت أحجامها بين صغيرةٍ وكبيرة اصطفّت مزهوّةً بألوان زيتها وزعترها وأعشاب بلادها، وضعتها ميار بصورةٍ منسقة على قطعةٍ من رخام رماديّ محاذٍ لموقد الغاز. أحدها ضمّ قطعاً من الجبنة العربيّة البِيضاء، عامت داخل ماءٍ شديد الملوحة جهّز خصّيصاً من أجل الحفاظ على الجبن مدّةً أطول. وآخر رُصّت داخله كرات من اللبنة المكبوسة بزيت الزيتون الصافي، كانت جدّتها قد جهّزتها لها عند زيارتها الأخيرة ليافا كعادةٍ دائمةٍ اتّبعتها معها منذ بداية سفرها. أمّا أصغر الأوعية فقد ضمّ زعتراً بلديّاً تمّ خلطه مع كميّةٍ سخيّةٍ من السمسم البلديّ المحمّص وبعض السمّاق الأحمر، إن وقعت عليه العين ناس اللّعاب طمعاً في حفنةٍ من هذا الأخضر الشهيّ. أوعيةٌ زجاجيّةٌ كثيرة امتدّت بانتظامٍ، تشكر للأمّهات والجدّات أياديهنّ الجميلة المباركة. لم تهمل ميار تواجد النبات أيضاً في مطبخها. على أحد الرّفوف الخشبيّة الموازية لحائطٍ صنع من الخزف الملوّن، وضعت ميار ثلاث أصصٍ صغيرةٍ، كانت قد اشترتها من «شارع العرب» في آخر زيارةٍ لها لهذا الشارع، قد انتشى فضاء مطبخها وشقّتها بروائح نعناعها وميرميّتها وريحانها. حديقةٌ صغيرةٌ تذكّرها بحديقة بيتٍ تركتها تعانق نسيم البحر في يافا. آه من هذا الحبّ

القاتل لبلدٍ لا ينفكّ يسكن روحها وقلبها بروائحه وذكريات صوره. تلمسه الآن يخفق في ضلوعها المرتعشة شوقاً له، فتبعده بقوّة مسافاته البعيدة عنها كي لا يدميها حبّه أكثر. تباشر في تحضير شطيرةٍ لها من الجبن ولسان حالها يقول:

سنواتٌ طويلةٌ مضت منذ أن غادرتُ يافا سرق فيها الزّمن عمري. مضاجعةٌ شرسةٌ يَغتصب فيها الوقتُ أعمارنا حتّى نكاد نعتاد لذّة الاغتصاب. لصوصيّةٌ تحترف سرقة الورد من حدائق عمرنا، تستبدل عطره بكيماويّاتها الزّائفة، ملقيةً به داخل قاروراتٍ من عزلةٍ ووحدةٍ ونحن بدورنا ندفع الثمن.

تتناول شطيرة الجبن وكأساً من نبيذٍ أحمر، علّه يمنحها بعضاً من الهدوء والسكينة في غربةٍ باتت كلّ أماسيها باردة. تحتضنه بين أصابعها كحبيبٍ جاء ليشاركها عزلتها ووحدتها، تمسّدُ أطرافه بأناملها، ترتشف منه القليل قبل أن تقفل عائدةً لأريكتها ولرجفات وجعٍ لا ينفكّ صريره يعوي في عراء ليلها. وتعود أفكارُها تتراشقُ فيما بينها من جديد.

وسط هذه الأجواء المشحونة بالمشاعر والتخبّط يقرع جرس الشقة. تتنبّه ميار ومعها تتنبّه جميع حواسها.

من القادم يا ترى وفي مثل هذه الساعة المتأخّرة من اللّيل؟

هل من الممكن أن يكون أصدقاؤها مثلاً قد قاموا بإرسال أحدهم لينوبَ عنهم في مهمة إقناعها بالانضمام إليهم ومشاركتهم ليلتهم هذه؟ لا تظنّ ذلك. فهي تعلم جيّداً كم يحترم أصدقاؤها قرارها، وأنّهم لن يخترقوه ما دامت قد أعلنت للجميع بشكل قاطعٍ ونهائيّ أنّها لن تقوم بأيّ احتفالٍ هذه السنة. فحلا ليست أمراً عابراً كان في حياتها وانتهى أمره. إذن من ذا الذي

يصرّ على اقتحام الدقائق الأخيرة من ليلتها هذه واغتصاب عزلتها؟

تتقدّم صوب جهاز الهاتف الداخلي (انتركوم) المثبّت على الحائط الموازي لباب شقتها، لتستفسر عن هويّة زائر اللّيل من خلال حديثٍ قصيرٍ دار بينه وبينها عبر هذا الجهاز. بصوتٍ خافتٍ تكاد تسمعه، يخبرها أنّه مرسال أحد حوانيت الورد القريبة منها جاءها بباقة وردٍ أرسلها إليها أحدهم. تكرّر سؤالها له إن كانت فعلاً هي المقصودة بهذه الباقة فهي لم تتوقّع أبداً أن يقوم أحدهم بإرسال الورد إليها هذه الليلة. مؤكّداً لها ذلك، تقوم بالضّغط على زرّ الاستقبال، يقوم هذا بفتح باب البناية الرئيسيّ في انتظار حلّ لغز الورد وهوية صاحبه. تخطو خارج شقتّها بضع خطواتٍ منتظرةً وصول المصعد إلى الطابق الثّالث حيث شقّتها، لاستقبال المرسال واستلام الورد.

يُفتَحُ باب المصعد، يطلّ منه شابٌّ في العشرين من العمر يحضن بين يديه باقةً كبيرةً من التوليب البنفسجيّ الدّاكن، الغافي في حضن غابةٍ عريضةٍ من الأوراق الخضراء اليانعة ضمّت أعناقه بكلّ سموٍّ وشموخ. تستقبل الشاب وهي ترمي بنظراتها الوجلة نحو الباقة، تحضنها بعينين يكاد الدّمع يقفز منهما صارخاً:

قل لي بربك إنّها هي... هي التي أرسلتها إليّ!

ينظر إليها منتظرًا أن تمدّ يديها لاستلام الباقة كما هو متوقّع في مثل هذه الحالات. تغيب قليلاً عن واقع مشهدها معه شاردةً في براري ذلك الشعر الأسود البرّاق وتلك العينين الزرقاوين التي اشتاقت لعناقهما، فهي لم تر في التوليب البنفسجيّ الدّاكن يوماً

غير حلا. زهرتها المفضّلة. كم عشقت حلا التوليب وكم حرصت على أن يكون حاضراً في لوحاتها وهداياها وفي آنيةٍ فضيّةٍ قديمة زيّنت بها شقّتها كانت قد اشترتها لها عمّتها من سوق النّحّاسين في دمشق. لكنّ ميار كانت تدرك جيّداً أنّ انتظارها لحلا هو انتظارٌ موهومٌ لقيامةٍ لن تقوم أبداً. فما زال صدى ذلك الصوت المفزوع ينعق في أذنها مؤكّداً خبر رحيلها. تحاول أن تغالب دمعها وتتماسك قليلاً حتى انصراف الشاب. تشكره وهي تستلم باقتها موقّعة على ورقةٍ كانت بحوزته تؤكّد استلامها للهديّة.

تدخل شقتها، تقفل الباب وراءها وهي تجهش بالبكاء لدرجة أنّها نسيت الاستفسار عن اسم الشخص الذي بعث إليها بالباقة. تأخذها دقائق معدودات قبل أن تستعيد أنفاسها وتعود إلى واقعها وإلى بطاقةٍ تمّ إلصاقها على شريطٍ فضيّ اللّون طوّق الباقة بكلّ لباقةٍ حملت بضع كلماتٍ كتبها لها أصدقاؤها باللّغتين العربيّة والألمانيّة

غاليتنا ميار... شمس يافا الجميلة

كنّا نتمنّى أن تشاركينا أمسيتنا هذه الليلة كما اعتدنا دائماً، لكنّ القدر كان أقوى منّا جميعاً. لن ننسى حلا أبداً. نحبّك جدّاً ونتمنّى لك عاماً سعيداً يحمل لك ولوطنك الخير والفرح.

حسام، نيكول، عليّ، يارا، بيتر، مرح

يتجدّد بكاؤها. تشتدّ حرقته. فمنذ عامٍ فقط، وكما جرت العادة بينهم، كانت حلا تحتفل معهم ومع مئات آلاف الألمان والسيّاح الذين احتشدوا أمام بوابة «براندنبورغ»، المكان الذي ضمّهم سنين طويلة، كي يحتفلوا ويشهدوا هم أيضاً أكبر

احتفالات العام الجديد في برلين، بل في ألمانيا كلّها. لم تتنازل عن المجيء والمشاركة رغم مرضها الذي حاولت إخفاءه بكلّ قوّةٍ عن الجميع. وكعادتها من كلّ عام، حضنتها بين يديها. باقة كبيرة من التوليب البنفسجيّ الدّاكن فاقت عدد أصدقائها، جاءت بها لتوزّع زهراتها على كلّ واحدٍ وواحدة منهم عندما تشير الساعة معلنةً منتصف الليل. كانت ضحكتها تعطّر برقّتها وشذاها كلّ زهرةٍ وزهرة امتدّت ليد أحد الأصدقاء أو المعارف أو حتّى بعض المارّة الذين طالهم هم أيضاً من الحبّ جانب وحظوا بزهرةٍ عطّرتها حلا بابتسامةٍ وأمنيةٍ تمنّتها لهم في عامهم الجديد. لكنّ أحداً منهم لم يكن يعلم أنّها ستكون المرّة الأخيرة التي يعود فيها إلى بيته، محتضناً توليبة بنفسجيّة لم يعد بمقدور حلا إهداؤها له.

يستفحل شعورها بالانتقام من سارة كلّما تذكّرت حلا. موتٌ قاهرٌ في بلادٍ ما كانت ميار لتستطيع أن تصلها أبداً وقبرٌ لغالية لن تستطيع قدماها دوسه في يومٍ من الأيام. وسط هذه الضوضاء من الأفكار والذكريات، ترمي بنظرها نحو الثلاجة بنظراتٍ فيها من التحدّي والغضب لمشاعر أثارتها في نفسها ورقة صغيرة بعد خمسة عشر عاماً على تلك الذكرى.

«دعي الله والزّمن يفعلان ذلك. فهما كفيلان بذلك والله خير منتقم». تستحضر كلام جدّتها وهي لا تزال ترمق تلك الورقة التي ثبّتتها قبل بضعة أيّامٍ على جدار الثلاجة، مطيلةً النظر نحوها كمن ينظر في المدى البعيد فلا يرى سوى أشباه جملٍ انهزامية استسلمت لها الجدّة لم تكن لتعنيها أو تقنعها يوماً. تبعد طيف جدّتها عنها، مستأصلةً بانفعالٍ شديدٍ جملة جدّتها رافضةً أسلوب الخنوع الذي نشأت وترعرعت عليه هي وكثيرين.

لن أترك هذا للزّمن. سأفعلها بنفسي. لن تستطيع سارة فنكلشتاين إلحاق الهزيمة بي. هذا ما صرّح به فرحها المعلن أمام شاشة هاتفها، وهي تعيد للمرّة الثانية قراءة رسالتها، ملقيةً على مسامع شقّتها الصغيرة غضب حروفها وكأنّها تريد مشاركتها مسؤوليّة هذا الظلم التاريخيّ الَّذِي سبّبته لها سارة.

عبر فضاء هذه الشقّة دوّت حروفها مجلجلةً داخل حنجرتها، شاقّةً صدر غربتها للمرّة الألف. كانت تعلو شفتيها ابتسامة نصرٍ في كلّ مرّةٍ وقعت عيناها على حروف هذه الحرب الإلكترونيّة التي شنّتها على سارة. طاب لها تخيّل مشهد هذا اللقاء الناريّ بين حروفها التي بعثتها وبين عينيّ «الكابتن طيّار». كان واضحاً لها أنّ لانتقامها هذا طعم غصّةٍ لنصرٍ ناقصٍ يجب أن يكتمل. غصّة مبحوحة كتمها صمتٌ مدمّرٌ كان لا بدّ لها أن تحرّره لتتحرّر منه وتستريح. نصرٌ تمنّت لو أنّها أحرزته بعد مواجهةٍ مباشرة مع سارة، فهذا النوع من التحديّات والمواجهات يستهويها. ورغم النّجاحات الّتي حقّقتها والإنجازات الكبيرة الّتي جنتها، إلّا أنّ مرارةَ تلك النصيحة ما زالت عالقةً في حلقها لا تفارقه. أمّا يدها القابضة على الحقّ، فكانت تنتظر بفارغ الصّبر بلوغ اللحظة التي تأذن لها فيها ميار بالضّغط على زناد الحرف، كي تنطلق نحو هدفها عابرةً حدود شاشتها الإلكترونيّة، وصولاً إلى صدر سارة فنكلشتاين، مفجّرةً قنابل الظّلم في صدر طغيانها، مقتصّةً منها جزءاً ممّا خلّفته من أثرٍ سيّئٍ كاد أن يقوّض دعائم الثقة في نفسها ذات يومٍ من الأيام.

تودِع ميار رسالتها مخزن هاتفها الخليوي، وكأنّها تودعه أسراراً حربيّة من شأنها تشويش المعادلات العسكرية وقلب موازين القوى بين جيوشٍ تستعدّ لحربٍ طاحنةٍ قادمة. لم ترغب

في إرسالها مباشرةً إلى صاحبة الشّأن، بل هدفت إلى شحنها عندما تعلن الساعة منتصف الليل ويعلن الزمن استقباله للعام الجديد.

موجةٌ كبيرةٌ من الرسائل تبدأ في الوصول مضيئةً بحروفها سطح شاشتها، متمنيّةً لها عاماً سعيداً فرشه مرسلوها بالقلوب والورود الحمراء، والوجوه الصّماء البلهاء التي لم تكن لتثير فيها أيّ حماسٍ هذا المساء لأيّ ردٍّ أو مجاملة. خارج حدود هذا العالم المنغمس الآن في التهاني والتمنّيات وفرح الأعياد أقامت ميار مملكتها، بعيداً عن أعين البشر والحجر والشجر. تتجاهل عمداً جميع ما وصلها من رسائل، رافضةً بشكلٍ قاطعٍ الاقتراب من هذا البحر الراقص فرحاً بِعيدٍ لا تلائم أمواجه حالتها هذه الليلة. فأمواجها بدأت تصبّ في بحورٍ أخرى. حيث التحرّكات الشعوريّة والزلازل الوجوديّة، في المكان الذي تنعتق فيه الرّوح وتتحرّر من قيود الغضب وحالات الندم والشوق التي كابدتها طويلاً متجشمةً عبئها عبر كثيرٍ من السنين. هذا ما صرّحت به دائرة أرصادها الجويّة هذا المساء. قليلاً وتشهد أمواجها تسونامي يفجّر ما تبقّى لديها من بوحٍ ومكاشفاتٍ مزلزلة.

لن يقرّر لي أحدٌ في هذا العالم كيف عليّ أن أحتفل بالقادم. تحاول إقناع نفسها أنّ ما تفعله هو عين الصواب. فعبورها إلى العام الجديد يحتاج منها رضا وتصالحاً مع الذات. عليها أن تعبره نظيفة الفكر والقلب. يجب أن تحرّر ذاتها من قيود أثقلتها بها الأيّام.

أشعر بقوةٍ خفيّةٍ تسحبني بسلاسةٍ نحو الأعماق. قوّةٌ لا أستطيع مجاراتها، لا أنجح في إيقافها. ثمّة شيء غريب يشدّني

نحو دهاليز نفسي المتعبة. ربّما تناول مزيدٍ من هذا النبيذ يوقف هذا الزّحف المجنون.

تصبّ كأساً آخر، ترتشف منه القليل، وإذا بطيفه يمرّ أمامها. طيفٌ جميل لرقم بعيد تدفعها قوّةٌ دفينةٌ للبحث عنه والكتابة له. تبعده عن مخيّلتها بكلّ قوّة. لكنّه يصرّ على الحضور. تحارب طيفه كما حاربت مرةً استمرار وجوده في حياتها حين قرّرت السفر ومغادرة البلاد. يستأثر بها حضوره، تهيمن عليها فكرة تواصلها معه، فتستسلم لها. شوقها إليه لم ينقطع يوماً لكن، أيّ جنونٍ هذا الذي يجعلها تأتي اليوم لتنبش جرحاً قديماً دمله الوقت ونسيه الزّمن؟

مستحيل... هذا جنون. من المؤكّد أنّني فقدت صوابي. ليس من الحقّ ولا من العدل بشيء أن أفكّر في هذا. مبعدةً هذه الفكرة المجنونة عن مخيّلتها، تحاول إقناع نفسها أنّه ليس من مسوّغ يدعوها للتفكير به والكتابة له بعد خمس عشرة سنة على فراقهما. لكنّ النفس أمّارةٌ بالحبّ. إصرارٌ مجنونٌ على إحياء الماضي وبعثه من جديد يسيطر عليها بقوّةٍ فلا تستطيع الفرار منه ولا الهروب.

لماذا تصرّ نفسي على كلّ هذا البوح؟ لماذا أثير غبار الماضي من حولي مجدّداً وأحيي الموتى بعد أن تمّ تكفينهم ودفنهم في رمال الأمس؟ علاقةٌ كانت وانتهى أمرها. لماذا أصرّ على الانتحار فوق صخور الماضي مرةً أخرى؟

صراعٌ مستمرٌ يشهده داخلها يفضي بها في نهاية الأمر إلى اتّخاذ قرارٍ يقضي بالكتابة إليه. إلى من بدونه لم تكن لتعرف معنى الحبّ. إلى الذي أشعل في أثواب ماضيها حرائق من شوقٍ

ووجدٍ لم تنطفئ نارها يوماً. تبدأ رحلتها في البحث عن رقمه. إنّه لا يزال قابعاً هناك، في أدراج ماضيها وفي قلب دفاترها القديمة. لم تزحزحه السنون ولم ينل منه النسيان. لا المكان غيّره ولا هو غيّر المكان. تتردّد قليلاً في الكتابة إليه، ثمّ تقرّر أن تكتب له رغم عدم تأكّدها من صلاحيّة رقمه القديم هذا. تبدأ مهمتها بنقل رقمه إلى قائمة الأشخاص في هاتفها محاولةً إيجاده عبر الواتساب لكن دون جدوى. تقرّر أن ترسل له الرسالة عبر بريد الرسائل العادية.

هناك إمكانيّتان لا ثالث لهما. إمّا أن تصله رسالتي ويقوم بقراءتها، وإمّا أن يكون قد غيّر رقمه وبالتّالي لن تكون هناك أيّة إمكانيّة لأن يقرأ ما سوف أخطّه له. ورغم ذلك رضخت لشوقها القديم وكتبت له.

نديم... يا أوّلَ الأوتار وأجملها في قيثارةِ الماضي البعيد.

أعلم أنّ ما أقوم به الآن لهو جنونٌ مثبتٌ قد تمّ تسجيله في بطاقات العشق الرسميّة وغير الرسمية. وأدرك أنّني بهذا الجنون الأخرق إنّما أخترقُ عالماً لم يعد لي، عالما رفضتُ حرائره وسكاكره ودببه الحمراء وهدمت جميع أسواره، فلم يعد لي أيّ حقّ بالتلصّص على دقائق نهاره كيف تسير ولا إلى ثواني ليله كيف تمضي. حتّى استراق نظرةٍ إلى صورةٍ زيّنت بها رقم هاتفك، لم يعد من حقّي. أن أتذكّرَكَ وأنا الّتي لم يطأ نسيانك يوماً أرضها، فهذا بالتّأكيد خللٌ أصاب خلاياي الدماغية، أعماها وشوّش رؤيتها. أن أقرّر في لحظةٍ محمومةٍ معاندة القدر والقفز فوق حواجز الزّمن المنسيّة، مطلقة العنان لفرسي كي تحاربَ الريح وتعودَ أدراجها حيث ابتدأ السباق وكانت البداية، فهذا هو الجنون بعينه. أن أنبش جرحاً مضى عليه الكثير من الوقت ودملته المسافات بطول زمنها وبعد مكانها، فهذه من المؤكّد لوثةٌ تمكّنت منّي، وأفقدتني البوصلة. لست أدري إن كانت هذه لحظة هذيانٍ أم هذيان لحظات تلك التي أصرّ فيها على رتق ثياب الماضي بخيطان حاضرٍ لم تعد تصلح لإبر قد تحجّر حديدها وعلاها الصدأ؟ لكنّني كأيّة عاشقةٍ مجنونةٍ سأظلّ أحلم بإلصاق شظايا

الزجاج المهشّم كي أعيد للمرآة صورتها الأولى بعد أن حطّمها فأس قراري. لم أنس يوماً حلو لقائنا الأوّل. فتراني أحلم بك عائداً من خلف مصادفةٍ جمعتني بك يوماً على شاطئ يافا. مصادفة شتّتتها أمواج الغربة وابتلعتها رمال السفر بسراب أصفرها. وكأنّي أراك الآن قادماً من بعيد. من عمق ذاكرة البرد والمطر وشتاءٍ راحلٍ وآخر أدركني من جديد. تغرق في معطفك الصّوفيّ الطّويل وشالك الحريريّ الأحمر، تلوّح لي بزجاجة عطرٍ حملتها لي يداك، وابتسامةٍ حضنتها شفتاك، وفي فمك صفيرٌ مراوغٌ لعاشقٍ يعرف كيف يمتلك خزّانات الذاكرة ويحتلّ مساحاتها بأبديّة حضوره. ها هي الفصول جميعها تتقلّب في عينيك، ناراً وجمراً ورماد ليل. أراها الآن بقلبي، أسمعها بنبضي، تثورُ، تمورُ، تحتضرُ، لتزهر من جديد نرجساً وفلّاً أبيض وآبار حبّ. فمن خلف ربيعٍ فاضت ضفافه ورداً وأقحواناً وأسراراً خضراء، ومن صيفٍ بنينا قصوراً على رمل شطآنه المزروعة بالنّوارس البيضاء والقواقع التي تكسّرت جنباتها استعداداً للرّحيل، ومن مواسم الخريف المترعة بالطلّ والورق الأصفر، ألمح طيفك يناديني.

نديم... لقد غيّب الحنين عقلي وواراه مقبرة المنطق السليم فلم أعد قادرةً في هذه اللحظة على التفكير في أي شيء، سوى أنّني أشتاقك كاشتياقي لقبلةٍ اختلستها منّي وشماً أبديّاً سيبقى يرافق عنقي عناقيد وجدٍ ونوّار شوق. وأفتقدك... كافتقادي لرائحة وطنٍ وأهلٍ وعيد، وأنا الغريبة البعيدة.

ليتني أستطيع حملَ بطاقة جنوني هذه، أجوب بها شوارع برلين ملوّحةً بها، صارخةً في وجه الزّمن ووجهِ لحظةٍ ظلمتُ فيها نفسي وظلمتك معي، أنّك الحبّ الوحيد الذي تملّكني

والمستحيل الَّذِي كسرنيٍ. ليتني أستطيع الصّراخ في وجه كل من يعترض طريقي محاولاً خنق صرختي، أنَّني تعبت من كوني، القويّة الّتي لم تقهرها ظروف ولم يهزمها زمن. قل لي، أيّة حماقةٍ تلك التي ارتكبتها حين أعلنت لك أنّ علينا أن نفترق من أجل أن يدوم الحبّ طويلاً؟ أيّة عاشقةٍ حمقاء كنت، حين اعتقدت أنّ السّفر في حبّك حتى النّخاع، هو موتٌ حتميٌّ لكياني وضياعٌ لوجودي، وأنا الّتي رفضتُ الموتَ سفراً مؤبّداً أتقاسمُ رحلته الأبديّة معك؟ كم خشيتُ التقوقع داخل أصدافك كي لا أفقد ذاتي فخسرت اللآلئ وخسرت البريق. واليوم، أسافر مذعورةً في سراديب الزّمن وحدي، أمضغُ لحظات الغربةِ وآهات الفقدان وحدي، وقاطرات الوقت لا ترحم. تمرّ بي مسرعةً دون أن تأخذ حتّى استراحة أو تمنحني هدنةً أرمّم فيها مدن الحبّ الذي ضاع في شوارعها المتعبة.

ها هو العيد يأتي، أستقبله وقسوة البرد تقرض أيّامي غامرةً نواصي الفرح القادم بوهم دقائقها القادمة فتراني ألجأ إلى ذكرياتي معك. أتّكئ عليها، أتشرّد في أزقّتها باحثةً عن صورٍ قديمةٍ أعيد فيها تثبيت الحبّ بقشّة غريقٍ، علّها تقيني برد الأيّام وصقيع قلبٍ اخترتُ له شتاءً دائماً غير مدركة أنّ الدّفء لن يكون إلّا معك. أعلم أنّك غير مصدّقٍ لما تخطّه يداي. وأعلم أنّني أرسم المستحيل بأقلام بائسة خلتْ من أيّ لون سوى لون واقع أكيد، وأنّ جغرافية حبّك لن تقبل منّي رشوةً بعد الآن، لكنّني لا أملك اليوم غير الحبر أهديه إليك، حبر يعيد ترتيب المفردات في قاموس حبٍّ مزّقته بيديّ فبحثت عن آخر يناسب شوقي إليك. أعترف أنّني فشلتُ في النسيان ونسياني لك أمرٌ مستحيل. فما زلت الحبيب الذي يسكن المسامات والأعماق وخلايا الذاكرة. أيّها

المقيمُ في صباحاتي الهارب منها إلى شرايين مساءاتي. يا من لم تكن يوماً سطراً ضائعاً في كتابٍ وضعته على رفّ ماضٍ ونسيته هناك حيث الغبار والنسيان وتآكل الأيّام. فمعك اكتشفت شهقة الحبّ الأول، ومعك عرفت طعم الأنوثة ومعك ذقت طعم الهزيمة وطعم الانتصار.

نديم... سقط المنطق عندما غبت. وسقط عندما قرّرت الكتابة لك. منطق الأشياء والوجود والحبّ.

تُنهي ميار رسالتها، تودعها هي الأخرى قلب شاشةٍ تنتظر شحنها بلهفةٍ شوقها الأوّل إليه عندما تعلن السّاعة منتصف اللّيل.

تبكيه بشدّة. هل فعلاً تبكي نديم؟ أم حبّاً زارها ذات يومٍ وانتهى أمره؟ أم تبكي نفسها وسنوات غربتها؟ أم حنينها لوطنٍ تركته منذ خمسة عشر عاماً تشتاقه الآن أكثر من أي وقتٍ مضى؟ أم تبكي حلا؟

حلا... تحسّ بجنون اشتياقها لها. تتناول هاتفها وكأنّها تصرّ على جنون ما تبقّى لها من جنون لتخطّ لها رسالة لم يعد بإمكان الأرواح والجماجم قراءتها. فما من موتٍ أوصل الرسائل والدموع والنّواح إلى أصحابها. الموت أقسى من أن يكون كريماً مع الأحياء.

حلا... يا ملحَ دمعيَ الباقي في مآقي الغياب الرهيب.

سأشرب نخب غيابك وحدي هذا المساء، وأقلّب الذّكريات وحدي هذا المساء، وأحملُ حزنَ قلبي وحدي هذا المساء.

ها أنا أملأُ كأسينا بدموعِ الغيابِ الذي باغتنا طعناً بسكاكين المرض. بل بسكاكين الغربةِ ووجع الأوطان المذبوحة من الوريد إلى الوريد.

فهل من أمّةٍ إلّا نحن، تكفّن موتاها وتدفن أحبّتها وقُبَلُ الوداع على جباههم تحكمها البنادق ويحظرها جواز سفر؟ وهل من أوطانٍ غير أوطاننا، تبكي موتاها، ترثي موتاها وقبور من سكنوا القلب ومهجته بعيدة لا تطالها عيون ولا دمع يرويها؟ فقهرنا بات قهرين في بلادٍ أمست بين موتين. سبحان الذي قهر عباده بالموت، وتبّاً للذين قهروا المقهورين به. حتّى الموت سلبونا حقّ لقائه، حرمونا وداع رعشاته الأخيرة، فانتحبت عيوننا من بعيدِ المسافاتِ أحبّةً لنا تحت التراب يا من لا يليق بكِ التراب.

أخبريني بربّك كيف أقنع نفسي بأنّك صرت جزءاً من ذاكرة وتراب؟ كيف أقنعها أنّ جسدكِ المسجّى عند أطراف الياسمين لم

يعد قلبه ينبض شوقاً لها؟ كيف أقنعها أنّ الموت في أوطاننا أصبح مسلسل رعبٍ يوميّ ينزف قهراً وجنوناً ووجعاً يفوق وجعها؟ كيف لي أن أقنعها بترميم أجنحتها المنكسرة وإطلاق فينيقها من رماده ليمضي معها من جديدٍ نحو الشمس؟ كيف أقنعها أن تنسى حلو أيّامها معك؟ كيف... وكيف.... وكيف؟!

مارست طقوس النسيان علّني أستطيع استيعاب غيابك وفشلت. حاولت عبادة الوقت هذا الذي زرعوا في رؤوسنا أنّه توأم النّسيان فلم يسعفني إيماني بهذا الدين الجديد أن أنسى ولَم يقبلني عضوا في صفوف مؤمنيه. استبدلت شقّتي بأخرى، رميت بأشيائك وتفاصيلك في صناديق الماضي وأحكمت إغلاقها، ابتعدت عن أمكنةٍ وأصدقاء ذكّروني بك، شربت حتّى ثملت علّني أتخطّى بغيابك حواجز الأرق وجنون الغياب فلم يسعفني النسيان أن أنسى وفشلت.

مسافرةً ستبقين معي، في إيقاع نبضي وعروقي وفي كلّ عين زرقاء ألمحها من بعيد. في أسرار الفرح الصغيرة وصمت ليالينا الكئيبة. في الأساور والخواتم والأقراط الفضيّة الطّويلة، في انهمار المطر يملأ شوارع برلين وأنت تصرّين على السير فيها دون مظلّةٍ تقهقهين وتضحكين. في ضجيج القطارات المسافرة وخطوات الأرصفة الغرقى بالفوضى والثّلج وفي حانةٍ صغيرة نعدو إليها ليلاً لنلوذ بأسرارنا، نلوك فيها قصص الحبّ الفاشلة، نرقص وندمدم بأغنيةٍ طالما ردّدناها مع مغنيّة الحانة الشقراء حتّى حفظناها عن ظهر قلب. كنّا نغادر الحانة وأقدامنا لا تزال ترقص على إيقاعات ضحكاتنا المنتشية طرباً، وأصواتنا مستمرّةٌ في الغناء تعلو وتعلو دون اكتراثٍ لرهبة الصمت الذي ساد الفراغ آنذاك.

«حانةٌ صغيرةٌ ضيّقةٌ كضيقِ مزاجها المتقلّب هذه الليلة

جدرانٌ تتعثّرُ بصمتٍ دائريٍّ المتاهات ثملت أصداؤهُ من التّفكيرِ والعدّ

جسدٌ ضاقَ بليلِهِ وثوبِهِ حتّى كادَ يخلعَ عَنْهُ حياءهُ ويستقيل

وهناك في إحدى الزّوايا حيثُ شحَّ الضّوءُ وحلّت العتمة

انطلقت موسيقى «البلوز» تصدحُ صيحاتِ انعتاقٍ وحريّة

في محاولةٍ منها خرق ضباب القيد والعبوديّة وضيقِ العيش

وصوتُ نادلةٍ أنهكهُ تبغُ اللّفائف بدا كأنّهُ صوتُ رجلٍ قد ضاقَ ذرعاً بجنسه.

أمّا هي فقد كانت تنظرُ إلى أوراقِ النعناعِ

تطفو بضيقٍ داخلَ كوبِ الليموناده البارد

تراقبها بشرودِ ذهنٍ وقلبٍ ضاقت شرايينه

فوقف على حافّةِ حظٍّ ينتظرُ مِبضعَ جرّاحٍ

يخلّصهُ من كلّ ضيق».

كنّا نسير بعكس كلّ هذا الضّيق. نغنّي الحياة التي لم تسعنا يوماً. كان كلّ شيءٍ يبدو ورديّاً مشرقاً لا يبشّر بأيّ سوء. ظننّا أنّنا سنبقى عصفورتين حالمتين تحلّقان في دنيا من السعادة والنّعيم الأبديّ. غادرني النعيم عندما غادرتِ لكنّك بقيتِ محلّقةً معي. في كلّ مكانٍ اعتدنا أن نرمي إليه بأحلامنا وآمالنا وشهقات نجاحاتنا، في سماوات الدّهشة حيث كنّا ننثر نظراتنا إعجاباً بلوحةٍ زيتيّةٍ رسمتِها هنا أو مائيّةٍ هناك أنهيتها لتوّك، في الأعياد وأسواق الميلاد المكتظّة بالناس والزينة الحمراء وروائح النبيذ

السّاخن وكعيكات الزبدة والقرفة الّتي عشقتها روحك الطّفلة، في مواسم الرّبيع الأوروبيّة ودروبها المعبّدة باللّافندر والتوليب الأحمر والبنفسجيّ الذي أحببته أنت، والأصفر الذي أحببته أنا. لم أنس ما قلته لي يوماً. أتذكّره في كلّ مرّةٍ أقوم فيها بشراء توليبٍ لأحدهم.

«الناس غالباً ما يشترون الأزهار والورود دون أن ينتبهوا أنّ من وراء كلّ لونٍ معنى خاص به. هناك أصولٌ علينا مراعاتها قبل تقديم الورود لأحدهم. فأصفرك الذي تحبينه مثلاً، هو لون الحبّ بلا مقابل. إرسال توليبٍ أصفر إلى شخصٍ ما، يعني أنّك تحبّينه لكنّك تعلمين أنّه لا يبادلك الشعور نفسه. أمّا البنفسجي الذي أعشقه أنا، فهو لون الملوك. لونٌ يدلّ على الغنى والرقيّ». كنت تقولينها مزهوةً بسماتك الملكيّة ولونك الذي راق لك ما أخفاه من معانٍ.

ليتك هنا معي لتري ما أرسله لي الأصدقاء هذه الليلة، باقةً من روحك أيّتها الملكة الأبديّة على عروش التوليب الذي يليق بروحك. ضممتها إليّ، شممتها، وكأنّي أشتمّ فيها روحك الخالدة. عطّرها الأصدقاء بطيب حروفهم الوفيّة لذكراك. فجميع من هنا في برلين يفتقدك. يتذكّرون بحنينٍ وشوقٍ أيّامهم معك. وأنا، أتذكّر بحنينٍ هذا المساء، طقوس غربتنا. لقاءاتنا واحتفالاتنا مساءات السبت التي توّجناها بوجبات عشاءٍ دسمةٍ كنت تنتظرينها بلهفة طفلةٍ صغيرةٍ عَدَت إليها مسرعةً لتكون أوّل الجالسين حول مائدة ضمّت أصدقاءنا ولمّت غربتنا بكلّ حبّ. جولاتنا الأسبوعيّة في حدائق برلين وجاداتها الساحرة حيث أرخى الهدوء ستائره بعيداً عن ضغوطات العمل وضجيج برلين وصخب الحياة فيها. كنّا نطلق العنان لروحينا ونحن نجوب بدراجاتنا الهوائية طرقات

حديقة Grober Tiergarten. كان الهواء يلسع وجناتنا بإبره الحادّة، فتسيل الدموع وتحمرّ الأنوف ويخفق قلبانا انتعاشاً وارتعاشاً لمغامراتٍ لا تنتهي. سأظلّ أحنّ إلى تلك الدموع وذلك البرد القارس اللّاسع كحنيني إلى أشجار الزان والبلوط والصنوبر وهي تغمر بعبيرها وألوانها الآسرة غابة «غرونفالد» الجميلة. إلى المسافات التي قطعناها فيها سيراً على الأقدام، حابسين أنفاسنا اللاهثة إنهاكاً وتعباً كي لا تنقطع. كنّا نعدو مهرولاتٍ نحو شمس اخترق نورها عناقٌ حميمٌ لشجرتين مثيراً بنوره عيوننا المتعبة محذّراً أن الشمس قاربت على المغيب.

أُنصِتُ الآن لأنفاسك تحتجّين وكأنّني نسيت نزهاتنا البحرية على متن قاربٍ ضمّنا معاً في نهر «هافل Havel» أو نهر «شبريه Spre» أسطوريّ الجمال. كيف للحنين أن ينسى جنون ريحٍ وهي ترشق برذاذها وجوهنا المصوّبة بانبهارٍ نحو عمارات الزّجاج المنتشرة على ضفافه، مثيرةً في جسدي قشعريرةً من شوقٍ دفينٍ لا ينتهي حيث قوارب الماضي تبحر فينا عبر التواءات هذا الجاري وانحرافاته؟ كم قاتلٌ هذا الشّوق يا صديقتي، كم قاتمٌ هذا المساء. فمساءات برلين أمست كلّها باردةً كئيبةً لا تحتمل غيابك. أتمنّى لو أنّ أحدهم يخطفني هذا المساء، يخفيني تحت قبعته السحرية عندما يبدأ وابل القبل والهمس واللّمس إمطار الشفاه والوجنات في هذه المدينة مبشّراً بعامٍ جديد. فأنا لا أريد لهذا العام أن ينتهي رغم الحزن ورغم الغيابٍ. أخشى على نفسي يا صديقتي من الضّياع في دروب النّسيان القادمة. أخاف أن تصبحي ذكرى بعيدة. وأنا لا أريد لهذه الذكرى أن تبتعد أو تنتهي. أريدك معي جزءاً من حياة.

منذ عامٍ فقط كنا نعارك الفرح معاً. يهزمنا فنهزمه مطيحين

به عن عرشه ليحتلّ مكانه صخبنا وجنوننا. واليوم أجلس وحدي، يعاقر الحزن قلبي وأعارك أنا بضع قطعٍ من جبنة الريكفورت وبعضاً من النبيذ الأحمر الجاف، ووحدةً جمّدها صقيع غيابك. جافٌّ هذا النّبيذ يا صديقتي... كدمعٍ جفّ نبعه حزناً عليك. وأحمر هذا النّبيذ يا صديقتي... كدمك المراق على طرقات موتٍ خطف أحمر الشباب وزهره قبل الأوان. لم نكن نعلم حينها أنّ الرّحيل بات قريباً. خذلتك قواك يا صديقتي. خذلتك الحياة وخذلنا الفرح والعيد.

لم يعد في المآقي دموعٌ تذرفها هذا المساء. حزنٌ تطويه تحت الضلوع، ووجعٌ حارقٌ يحتلّ مكامن النفس، وعجزٌ قاهرٌ أمام موتٍ ذبح حناجر الفرح القادم مقطّعاً أوصالها بسكاكين الذكريات. ها هو عامٌ آخر سيمضي بعد قليل، ملقياً بأثقاله وأوزاره على كاهل الذكرى، مطلقاً ساقيه للهروب قبل أن تطاله الألسن بشتائمها ولعناتها وكأنّه السبب وراء كلّ ما خلّفه لنا من رحيلٍ وغيابٍ لأحبّةٍ غابوا عن العين تاركين لنا فراغاً مريعاً نعاني وجعه.

كرسالتيها السابقتين، تودع ميار رسالتها هذه مخزن هاتفها بانتظار وصول اللحظة التي تطلق فيها جميع رسائلها معلنةً تحرّرها من هذا الثّقيل الجاثم على صدرها. لم تعرف يوماً صراعاً شرساً كالذي عاشته هذه الليلة. يتعرّى الليلُ أمامها بانتظار بعثٍ جديد يخلّص روحها من شوائب هذه اللّحظات المريرة... لكنّ الصبح ما زال بعيداً.

رسائل كثيرة تستمرّ في إضاءة شاشتها معلنةً وصولها. الجميع يهنّئ ويتمنّى، والمحبّون كُثر. فجأةً يلمع اسمه أمامها محتلّاً بأحرفه الشامخة سطح شاشتها. يقفز قلبها ابتهاجاً وتضامناً مع هذا الاسم البعيد الذي لم تلتقه وجهاً لوجه في يومٍ

من الأيّام. هاشم عبد الكريم، صحافيّ يعمل في تحرير إحدى الصحف الفلسطينيّة الإلكترونيّة الصّادرة في غزّة. تعرّفت إليه منذ ما يقارب الخمس سنوات عن طريق الفيسبوك ومنذ ذلك الوقت أصبحا صديقين افتراضيين لواقعٍ أليمٍ جمعهما، تقاسما فيه هموم الأمّة والوطن والمهنة.

دأبت ميار طوال الوقت أن توصل صوته المحاصر داخل رقعةٍ من البازلت والإسمنت وشظايا القذائف إلى العالم الذي تعيش فيه. هذا الحرّ الذي يعلّم أبناءه كلّ يوم كيف يقدّسون الإنسانيّة والإنسان والحريّة. وفي بلد هاشم يُغتال الوجود كلّ حين وكلّ لحظةٍ. كانت له ميار بمثابة متنفسٍ بثّ إليه همومه وهموم شعبه. أصغت إليه، لمعاناته، لإحباطه ولوجعه الدائم. أوصلت صوته وأصوات كثيرين من المعذبين المقهورين القابعين وراء الحلم والبحر إلى كلّ مكانٍ كان لها فيه حضور، وكل مقام أو مجلسٍ شاركت فيه. كتبت، وثّقت، صرخت بأعلى صوتها جاعلةً من قضيّة غزّة رسالةً حمّلت المجتمع الدوليّ مسؤوليّتها. لم تألُ جهدا لتعرض على زملائها من أساتذة جامعيين وصحافيين، قضيّة غزّة وحصارها كاشفةً عن تفاصيل مريعة لذلك الوجه الحضاريّ للآخر، لم تك لتصلهم عبر أيّ إعلام غربيّ. ظروفٌ معيشية تراجيدية يعيشها أهل غزّة اليوم، أثارت استياء كثيرين ممّن حولها من مثقّفين وباحثين أكاديميين، وأقلقت عناصر ناشطة في مجال تعزيز وحماية حقوق الإنسان.

في غمرة هذا الوجع لم تنس أيضاً قضيّة شعبها الكبرى. القضية العالقة كالشّوكة في الحلق. دافعت عنها بكلّ ما تحمله هذه القضية من ظلم أصابها يوم نعق البوم ونعبت الغربان تبكي أناساً أرغموا على تَرك بيوتهم وأرضهم وبساتينهم التي لا يزال

رمانها وصبرها ينتظر عودتهم. داومت على تذكير العالم أنّ هناك حقّاً مؤجّلاً لا بدّ وأن يعود. دَينٌ يجب أن يسدّد. عملت على أن تكون خير سفيرةٍ لوطنها وقضيّته من خلال مقالاتٍ كتبتها ومحاضراتٍ ألقتها ونقاشاتٍ تألّقت في إدارتها في كلّ مؤتمرٍ عالميٍّ دعيت إليه. صالت وجالت في ساحات أوروبا الإعلاميّة التي منحتها منبراً إعلاميّاً عبّرت فيه عن آمال وطموحات شعبها مطالبةً بإعادة الحقّ لأصحابه، كلّ الحقّ. فكيف لابن غزّة ألّا يخترق قرارها القاضي بعدم الردّ على أيّ كان هذه الليلة؟ كيف لها ألّا تشاركه ليلةً فيها الفرح مفقود، والعيد تأكله الغصّات والويلات وسط حالات الحصار الخانق والإحباط الدائم وتفاقم الأزمات؟ ألا يكفيه ما يكابده هو وآخرون كلّ يوم وكلّ لحظة من اختراقات؟ بشراً لا يزالون، يعيشونَ غربةً إنسانيّة عن كلّ ما هو إنسانيّ. تهديدٌ يوميّ لحياةٍ باتت ملامحها شبه مستحيلة. شيطان يُحكم قبضته على أكثر من مليون ونصف إنسان يعيشون داخل سجن يصارعون فيه البقاء لوجودٍ يرفض هذا الواقع واستمراريته.

قرأت رسالته وهي تبتسم بوجعٍ لهذا الكرم الطّائيّ الذي بعث به هاشم رغم الوجع ورغم الحصار. أراد أن يطمئنّ عن أحوالها، متمنّياً لها عاماً سعيداً يحمل لها ولعائلتها ولوطنها كلّ خير. لن تؤجّل ردّها إليه إلى يوم غد كما ستفعل مع آخرين. ستكتب له الآن.

مساؤك خيرٌ يا ابن غزّة هاشم.

يا ابن هذا البلد الجريح وهذه الأرض الثّكلى التي ارتوت وشبعت وأتخمت دماءً ولحوماً بشريّة. أتابع أخباركم من هنا يا صديقي وأشاطركم نزف القلب ووجع الدمع يا هاشم. سألتني عن حالي. أنا بخير ما دام وطني بخير. بين عام مضى وعام سيأتي أقيم وحدي هذا المساء. مثلكم تماماً. يحاصرني صقيعُ برلين وبردها، ألتحفُ معه الوحدة والصمت، ألتزم العزلة وسط نشاز أصوات المفرقعات وتوهّج أضواءٍ لم تعد تلائم عيونكم يا هاشم. فأحداقكم قد اعتادت وجع العتمة وذلّ الظلام يا صديقي.

ها هي برلين تغرق في الرّقص والحبّ والجنس هذا المساء. تموج في بحرٍ من الهمس واللّمس والقبلات، وأنتم تغرقون في بحرٍ من الظلمات تنزفون دماً وجراحاً وخلافات. فالسّنة الجديدة يا صديقي لا تعِدُ الفقراء بشيء، ولا المنكوبين بشيء، ولا المنسيّين المهمّشين بأيّ شيء. هي صكوكٌ تحمل وعوداً للأغنياء فقط ولراقصي الفالس ولروّاد الأوبرا ومراهني سباقات الخيل. لمن يأكلون الكافيار ويدخّنون السيجار الكوبي ويثملون انتشاءً حتّى الصباح. لا للّذين نسيهم الزّمن وتقاعس عنهم التاريخ.

قل لي بربك يا هاشم... هل ما زلتم تذكرون كيف يُمارس

الحبّ في ظلّ الجوع والفقر والحصار؟ وهل ما زلتم تعرفون كيف يكون طعم الفرح وطعم العيد وطعم الانتصار؟ هل لا يزال بحر غزّة أزرق جميلا... يعرف كيف يعزف للغيمات ألحان الصباح وكيف يُلقّم البجع الأبيض خبز الأمل وملح الصّمود؟ هل لا يزال يحمل لكم عهوداً بخبزٍ وسمكٍ ومعجزات يأتي بها رسولٌ إليكم أعجوبةً من السماء، ليسدّ بها رمق الأفواه وجوع البطون وشغف العيون؟

وغزّة العزّة... سيّدة البخور والعنبر والعطور. هل ما زالت عروساً جميلة؟ غزّة التاريخ العنيد والأسطورة الكبرى والكابوس الذي أرّق نوم الفزاعات. غزّة قصيدة الفقراء وملحمة المقاومة التي لا تنتهي وحكاية الحكايات. غزّة الشوكة المغروسة في حلق غاصبٍ محتلٍ لم تخنع له يوماً ولم ترضخ رغم جسدها الغارق في الوحل والطين والتراب.

وأنتم، ماذا فعلتم يا صديقي هذا المساء؟ وأيّ أمنياتٍ بعثتم بها إلى السماء؟ وأيّ رضا شكرتم به الله عن الذي كان؟! أما كان عليكم أن تفرحوا لأنّكم أصبحتم تتصدّرون عناوين الموت في جرائد الصباح وأخبار المساء؟ أو ربّما كان من الواجب أن تهلّلوا لموتٍ اصطفى مدينتكم نبيّةً للموت، ترتعش داخل جِرائها رعشة قهرٍ وذعرٍ أبديّة؟ فجميعهم في هذا العالم يعلم أنّ الموت في بلادكم أصبح هواءكم وطعام أطفالكم، وزاد نسائكم وشبابكم وشيوخكم، وأنّ حقوق موتكم باتت محفوظة في سجلّات الطّغاة، وأنّكم أصبحتم حالة من موت تلبسون فيها الأكفان كلّ صباح لتنتظروا معها جنائز المساء.

درّستُ طلّابي يا هاشم، أنّه ليس هناك من طفولةٍ في غزّة.

فالأطفال فيها يولدون كبارا ويموتون رجالا. أوصلت صرختهم إلى العالم:

يا هذا العالم لم نولد

كي نشهدَ قصفَ الطيّارات

لم نولد كي نبصرَ قهراً

حقٌّ يتوارى في الظّلمات

سنموتُ ولن نعرفَ شيئاً

عن حبٍّ أو أحلامِ بنات

عن قمرٍ أو نجمٍ يسطع

يتلألأ نورُه في الضّحِكات

لا نعرفُ شيئاً عن شعرٍ

عن لحنٍ أو حتّى وترٍ

عن لونٍ أو نكهةِ حبرٍ

لا نعرفُ نبضَ الأغنيّات

يا هذا العالم يكفينا

صمتٌ يقتلنا ويدمينا

لم نولد كي تحيا فينا

شهقاتُ الموتِ أو الزّفرات

يا عالم أخرج عن صمتكَ

أسمِعنا نبأ أو خبراً

من أهلِ الكهفِ يأتينا

ليعيد إلينا الأمنيّات

يا هذا العالم أنصفنا

فالموتُ قد صادرَ منّا

أجملَ أيّامِ طفولتنا

أيّام الدّهشةِ والأعياد

يا هذا العالم أخبرنا

هاتِ ما عندك طمئِنّا

أينَ الفرحُ...

وأينَ العدلُ...

وأين عبيرُ الحرّيات؟!

أخبرتهم يا هاشم أنّ غزّة عروسُ بحرٍ منسيّة قذفها ربابنتها إلى سواحل القهر وشواطئ الأحزان وتركوها هناك. وحدها هناك. تصارع الموت والجوع والحصار. لكنّها تحدّت، تصدّت، صمدت، مسطّرةً لغزاً في الصمود لقّن العالم كلّه معنى الصمود. فيا أيقونة الصّمود متى تصبحين مدينةً بلا شروط وفضاءً بلا شروط وبحراً بلا شروط؟

حفّظتُ طلّابي يا هاشم أنّ تاريخ غزّة سيبقى خالداً. وأنّكم ستبقون زرعاً يستعصي على مناجل الذلّ والمهانة حصاده. يا من سطّرتم أبجدية تليق بكم وحدكم، بصمودكم، رغم مرارة الملح العالق في محابركم. هو عام يمضي وآخر يأتي يا هاشم، وما لي إلّا أن أتمنّى لك ولغزّة الخير والحرية. قلبي ودعواتي لكم بمزيدٍ من الصّبر والصّمود يا صديقي.

تنهي رسالتها إليه. يجتاحها شعورٌ بالاسترخاء يبدأ بتثبيت قواعده في مرافئ ليلها. عشر دقائق وتعلن الساعة بدء عامها الجديد. ترتخي عضلاتها قليلا، يخفّ انقباضها، وفي العروق يسري شعورٌ من دفءٍ لزجٍ يرغمها على الاستسلام له. رغبةٌ ما في الاستماع إلى بعض الموسيقى تدفعها لمدّ يدها نحو منضدتها الصغيرة بهدف تناول أحد الأقراص الموسيقيّة المبعثرة هناك. بعشوائيّة يد تبحث في الفراغ عن شيء، تختار أحدها. لا يروق لها الاختيار. فهي ليست بمزاجٍ الآن للاستماع لأيّ من مقطوعات شوبرت أو سترافنسكي أو كلود ديبوسي الكلاسيكيّة رغم حبّها لهذا الفرنسيّ الأخير. تعاود الكرّة ربّما يحالفها الحظّ هذه المرة بما يطيب لها سماعه. يكون لها ما أرادت. تضع القرص في الجهاز، منتظرةً أن يبدأ «عليّ الدّوخي» عزفه على البيانو. تعود لتغمض عينيها وتبدأ رحلةً من الخيال راقت لها بعض سيناريوهاتها وهي تتخيّل معها ردود فعل بعضهم وهم يقرؤون رسائلها. تنتعش ذاكرتها بتذكّر ماضٍ جميل عاشته لم يبخل عليها بكثيرٍ من اللحظات الجميلة. يرتجف جفناها نشوةً لتلك الأوقات وهي تستمع لمقطوعته الموسيقية:

خذني إليك

قد حار نبضي في الهوى بين يديك

قد سال الورد دمعاً مرّاً شوقاً إليك

موتاً حياةً لا أبالي فقلبي لديك

خذني إليك.

تحلّق مع سحر الأنغام وتغفو قليلاً. تأخذها غفوتها إلى لحظة تصحو فيها وقد أمست برلين كلّها كتلة من نارٍ تشتعل بأضوائها وأصوات مفرقعاتها معلنةً بدء احتفالاتها، مبشّرةً بعامٍ جديد. تتململ في أريكتها محاولةً تحسّس هاتفها الغافي في مكانٍ ما على الأريكة. تلمحه ينام بجانبها مسترسلاً في نومه وصمته في ظلّ أضواء شقّتها الخافتة. تسارع إليه، تُمسك به مفرغةً حمولته من مخازنها وهي تزيل عنه وعنها عبئاً أثقل كاهل اثنيهما وقتاً من الزمن.

كانت الساعة قد جاوزت السابعة صباحاً، عندما تهيّأ لها أنّ منبّهاً ما في هذا العام الجديد قد لاحق رسائلها وأيقظها فجأةً لترى ما فعله بوحُها الأحمر بليلها يوم أمس.

بدت برلين هذا الصباح كمدينة أشباحٍ غفت على زند عامٍ قديم ولمّا تستفق منه بعد. بقيت هناك تغطّ في نومها، عند حدودِ زمنٍ أربكها بقديم دقائقه وسحرها بجديد ساعاته، مداعبةً أحلامها الصباحيّة بأجفانٍ تحاول الاستيقاظ واللّحاق بهذا الذي بدأ السّباق من جديد. لم تخلع عنها ثوب العيد ولم تمسح عن وجهها آثار مساحيقه. نامت بكامل حلّتها الاحتفاليّة وبريق فرحتها. تأخّرت في النّوم معلنةً أنّها في إجازةٍ، وفي الإجازات والأعياد يختلّ الوقت وتسقط دقّة مواعيده.

ضبابٌ كثيفٌ يكسو صباح العاصمة الجرمانيّة، وعتمةٌ تغلّف أجواءها الباردة سوى من بعض مصابيح لا تزال تشتعل سهراً منذ ليل أمس قد أطلقت أضواءها ونثرتها ومضاتٍ خفيفةً شقّت بها ضباب المدينة مخترقةً بلآلئها كثافة عتمتها. جميع من في هذه المدينة يغطّ في سباتٍ عميق وكأنّها مدينةٌ تفتقر لأيّة علامةٍ من علامات الحياة. حتّى الكلاب والقطط الأليفة التي اعتادت السّير في شوارعها في مثل هذه الساعة المبكّرة، لم تخرج اليوم للتنزّه مع

أصحابها كعادتها كلّ صباح. بقيت هي الأخرى منغمسةً في نومها تحلم بالعظم واللّحم والثّريد.

لا شكّ أنّ ليلة ميار مساء أمس كانت ليلةً ليلاء. جمعت من التناقضات ما جعلها تشكّل ظاهرة فلكيّة جديدة، تحتاج إلى اجتهادٍ فلكيّ من مختصّين ومهنيّين يقومون بتحليل ماهيّة هذا الانفجار الكونيّ والانشطار الوجوديّ الذي أمطر هاتفها بوابلٍ من زخّاتٍ شهابيّة عنيفة أصابت من حالفهم الحظّ باختيارها لهم هدفاً لرسائلها.

هل كان للنبيذ حقّاً سببٌ في ذلك؟ هذا المتهم الرّئيسي الذي طالما أسقطنا عليه وعلى إخوانه لاوعينا بكلّ ما يحمله هذا اللّاوعي من لغةٍ طلسميّةً تدخلنا أحياناً في متاهاتٍ وتساؤلاتٍ نحن في غنى عنها. هي لم ترتشف منه إلّا القليل. فهل كان عقلها الباطني بحاجة إلى هذه الكمية القليلة منه ليفيض بكلّ ما فاض به ليل أمس؟

بشبه إغفاءةٍ تراجع ميار تفاصيل ليلتها، تخبطاتها، بوحها العميق ورسائلها الغريبة، محاولةً ربط كلّ هذا في متسلسلة صحيحة تقنع بها نفسها أنّ ما فعلته هو عين الصّواب. الرياضيات مرة أخرى. يا للكارثة. ملاحقاتٌ مستمرةٌ من الأرقام تجعلها تصرخ في وجهها قائلةً:

اغربي عن وجهي. لا أريد أن أتبع أيّ منطقٍ في متسلسلاتك ولا في معادلاتك... كفاك مطاردةً لي.

تحاول جاهدةً مغادرة سريرها، مع محاولاتٍ جادّةٍ لرفع رأسها قليلاً وانتزاعه من حضن وسادةٍ قطنيّةٍ بيضاء نقشت بشموسٍ وأهلّةٍ زرقاء صغيرة، رفضت بكلّ قوّةٍ أن تتيح لرأسها

الانفصال عنها، جاذبةً هذا الصغير بخشونةٍ لا تلائم ما انتفخ به بطنها من ريشٍ ناعمٍ وثير. يخونها رأسها، تشعر بثقلٍ كبير تملّك كلّ عظمةٍ من عظامٍ جمجمتها التي بدت في تلك اللحظة كطبلةٍ فارغة شدّوا جلدها للمرة الألف. تمنح نفسها بعضاً من دقائق أخرى تتمطّى فيها في سريرها، ورأسها لا يزال يلاطم أمواج النوم كزورقٍ ثقبه سوس الماضي بحكاياته، فتسرّبت إليه المياه وغمرته مغرقةً ما فيه من وثائق ثمينة، بحيث لم يعد أحدٌ قادراً على رفعه أو زحزحته من مكانه.

فجأةً تتذكّر هاتفها الغارق في صمته فوق أحد رفوف مكتبتها الصغيرة. تصوّب عينيها القلقتين نحوه وكأنّها تذكّرت فجأةً ما قد يحمله لها من مفاجآتٍ وأقدار. تقفز بسرعةٍ من سريرها يملؤها توقٌ وفضولٌ كبير لفضّ أسرار هذا الصغير وقراءة محتوياته. يأخذ قلبها بالخفقان وهي تشرع في فتح صندوق الرسائل. يشتدّ توتّرها بينما تبدأ شاشتها بالتثاؤب استعداداً للنهوض.

هيّا... لا يمكنني الانتظار أكثر. حتّى هذه الثواني الصغيرة لم تعد تحتمل انتظارها. يضيء هاتفها أخيراً. تبدأ عشرات الرسائل تلوّح لها مذكرّة أنّها تنتظر ردّها منذ ليل أمس.

يستطيع جميعهم أن ينتظروا. ما يهمني الآن هما فقط.

بترقبٍّ غزا عينيها القلقتين، تبدأ بالبحث عمّا إذا كانت رسالتها إلى سارة قد وصلتها. ترتجف نبرات قلبها قليلاً. ترتبك عيناها لما بثّته لها شاشة هاتفها غير مصدّقةٍ أنّ رسالتها وصلت وتمّت قراءتها. حلمٌ أم علمٌ هذا الذي تراه أمامها؟ هذا يعني أنّ الرّقم ما زال قائماً لم يتغيّر. رقمها الذي زوّدتها به

سارة قبل خمسة عشر عاماً على تلك الذكرى كنوعٍ من تصرّفٍ حضاريّ يقدّمونه بعد محاولات «الاغتيال» ليساعدوا به الضحية.

سارة حالةٌ تذكّرني بالاستعمار. ذئبةٌ ترتدي ثوب حملٍ وديع. اقتراحها بتقديم المعونة والمساعدة لي ذكَرني تماماً بأولئك المستعمرين الذين يبدون في الظاهر كمثل راعٍ أمين يسعى من أجل مصلحة البلدان التي استعمرها ونهبها، وما مساعداته سوى طعمٍ يراد به اصطياد السمك. شيطانةٌ أرادت بإعطائها لي رقم هاتفها دسّ السمّ في العسل. تلقي بتنهيدةٍ طويلة بعيداً عن صدرها المتعب.

«أدفع نصف عمري لأرى عينيها وهي تصدّ رصاص حروفي. أمن المعقول أنّها تذكّرتني؟ لا أعتقد ذلك. لقد مرّ وقتٌ طويلٌ على تلك الحادثة كمرور مئات الطلاب في تاريخ وجودها في تلك الجامعة. مستحيلٌ أن تنجح في تذكّرنا جميعنا. ماذا تراها فاعلة الآن؟ هل ستتجاهل رسالتي وتمحوها وكأنّها لم تكن؟ أم ستقوم بالردّ عليها لاحقاً؟ أم ستحاول البحث عنّي وعقابي عقاباً يليق بعسكريّةٍ لا تنسى الإهانة، وممَّن؟»

أسئلةٌ تعصف بذهنها باحثةً لها عن جواب وليس هناك من جواب سوى أنّه تمّت قراءة الرسالة. تقف بضع ثوانٍ أمام رسالتها تتفحّص حروفها وهي تتخيّل مجدّداً ردّ فعل سارة.

نديم... بسرعة البرق تدخل مخزنَ رسائلها لترى إن كانت رسالتها قد وصلته. خيبة أمل كبرى. الرسالة لم تصله. أو على الأقلّ لم يتبينّ لها أنّه قرأها. هذا ما بثّته لها شاشتها. تشعر ببعض التوتّر والإحباط.

من الممكن جدّاً أنّه قام بتغيير رقمه خاصةً بعد هذه الأعوام

الطويلة جدّاً. أو أنّه لم ير الرسالة حتّى الآن وما زال غارقاً في النّوم بعد ليلة عيدٍ وسهرٍ طويلة. أو ربّما ينام الآن في أحضان إحداهنّ بعد ليلة صاخبة قضاها مع إحدى الجميلات. في هذه الحالة لن تعنيه الرسائل ولن تثير أيّ اهتمامٍ لديه يدفعه لقراءة أيّ منها.

موجةٌ أخرى من اللّوم وجلد الذات تجتاحها. ما الذي فعلته ليلة أمس؟ أيّ غباءٍ هذا الذي جعلني أكتب له بعد كلّ هذه السنوات الطوال؟ كان من المفضّل ألّا أثير زوبعةً في فنجانه الفارغ من الحبّ. لكن، كيف عرفت أنّ فنجانه فرغ من حبّي؟ الأفضل أن أنظر إلى الأمام، لن يجدي نفعاً أيّ لومٍ لنفسي. ما حصل قد حصل وانتهى أمره. سأنتظر وأرى.

تحاول بثّ الهدوء في نفسها متناسيةً أمر رسالتها إلى نديم. تشعر بحاجةٍ لبعض القهوة التي اعتادت ارتشافها كلّ صباح قبل أن تباشر بالردّ على جميع ما وصلها من رسائل. فلا يمكن للصّباح أن يستقيم ولا للمزاج أن يزهو دون ارتشاف فنجانٍ أو فنجانين من قهوة العم «أبو شاهين»، السّمراء المهيّلة التي حافظت ميار على شرائها من دكّانه الصغير المنتصب بشموخ تاريخه وحكاياته وسط حي «العجمي» في يافا. حيٌّ من أحياء يافا القديمة الصامدة التي استعصى على طوفان التهجير ابتلاعه، كابتلاعه لأحيائها الأخرى.

رجلٌ مسنٌّ مليءٌ بالحكايا والشجن واستحضار الماضي. ذاكرةٌ خصبةٌ حاضرة بكلّ تفاصيلها الزاخرة بالبهجة والاعتزاز رغم ما اعتراها من محطات ألم وجراحٍ غارت عميقاً في ثنايا هذه الوفيّة. لم تكن زياراتها لدكّانه لشراء القهوة فقط، كانت تُحبُ

الاستماع إليه وهو يحدّثها عن يافا القديمة، عن جميلة الجميلات، عروس فلسطين، أم الغريب ومحطّ آمال الفلسطينيين جميعهم ومنبع اعتزازهم وفخرهم. كان يخرج دائماً لاستقبالها مرحّباً بها مجرّد أن يلمحها مقبلةً من بعيد.

أهلاً بالدكتورة ميار... أهلاً بدكتورتنا المغتربة الجدعة. يا مليون أهلا وسهلاً.

كانت تبتهج جدّاً كلّما زارته وهي تراه يمسح آثار الغبار المتكدّس عن وجه يافا المغبرّ بحاضر التهويد وتغيير أسماء الأماكن وهدم الهويّة، كمسحه لغبارٍ غطّى كرسيّ قشّ قديم استقبلها به في كلّ مرةٍ زارت فيها دكانه. كان يبتهج لمجيئها هو الآخر وكأنّها تُحيي به ماضياً عريقاً تأبى ذاكرته أن تنساه أو أن تتنازل عنه.

بألم المقهورين كان يحدّثها عن يافا التي كانت. عن تاريخها ومعالمها التي اندثرت، وعن أحوالها التي تغيّرت. ساعات طويلة كان يجلس فيها يسرد قصص هذه العروس، واصفاً لها ولآخرين زاروا دكانه، أسواقها القديمة، باعثاً في صابونها وزيتونها وجلودها نسغاً من حياة. رغم بلوغ «أبو شاهين» الثانية والثّمانين من العمر، إلّا أنّ ذاكرته ظلّت حيّةً تنبض بحكايا هذه الحاضرة المدنيّة التي نضحت تقدّماً وحداثةً وازدهاراً أيّام كانت فلسطين تعجّ بحركاتها الأدبيّة والفنيّة والثقافيّة. كان يستذكر كلّ هذا وهو يشدّد على الأهمّ في حياة يافا، النكبة والاحتلال، قاصّاً على الجميع قصص التهجير ونزوح عائلات هذه المدينة البحريّة الجميلة التي أجبرت على ترك بيوتها وأملاكها وبيّاراتها على أملٍ أن تعود إليها يوماً ولمّا تعد إليها بعد. ورغم هذا الوجع الكبير،

تراه يتمسك بكلّ هذه المشاهد كتمسّك غريقٍ بقشّة، يتحدّث عنها بألم وأمل كيلا تهرب منه وتضيع، كما ضاعت من قبل يافا ومعها ضاعت كلّ فلسطين.

حضاراتٌ قديمةٌ كثيرة شهدتها يا ابنتي هذه الجميلة. بدءاً من الحضارة الأشوريّة فالفارسية فالمصريّة فالإغريقيّة فالرومانية فالبيزنطيّة فالإسلاميّة. جميع هذه الحضارات ساهمت في تطوّر المدينة ورسم معالمها عهداً بعد عهد. تلمع عيناه ببريق حضاراتها العريقة، وأصالة عزٍّ ذاقه أهلها متابعاً حديثه:

هذا نراه واضحاً في تركيبتها العمرانية في نسيجها الاجتماعي الذي كان. هناك عائلات عاشت فيها ما يقارب الخمسة آلاف سنة، وهناك عائلات وفدت إليها من برّ الشام، ومن العراق ومصر وغيرها. جميع هؤلاء وجدوا في يافا الحاضنة التي استقبلتهم والدّفيئة التي حضنتهم ووفّرت لهم كلّ حاجاتهم من مسكنٍ ورزقٍ وتعليم وتأسيسٍ لمستقبلٍ عائليّ واجتماعيّ وحياةٍ كريمة. لذلك لم يكن غريباً أن أطلقوا عليها اسم «أم الغريب»، لأنّها حضنت كلّ غريب لجأ إليها. يصمت قليلاً، يتهدّج صوته وهو يستعيد تلك العظمة في مخيّلةٍ أكل القهر بعضاً من جوانبها.

ليتكم عايشتم ذلك الزمن يا دكتورة وشهدتم ما كانت عليه يافا من تطورٍ وعمرانٍ رافقها على مدى عقودٍ طويلة. ليتكم شهدتم ما كانت عليه هذه اللّؤلؤة البحرية الساحرة. ينظر إلى البعيد، ماضياً في تذكّر ذلك الماضي الذي لا ينفكّ يسكن سراديب روحه.

الميناء، الكنائس، الأديرة، المساجد، الحمّامات، المصانع، المصابغ، الفنادق، المقاهي، النوادي الرياضية والكشفية والأدبية، البنوك، الشركات، المؤسّسات الإدارية وغيرها وغيرها، كلّ هذا عجّت به هذه الجميلة.

مطأطئاً رأسه حزناً وقهراً على ما مضى دون رجعة، يأخذ في التسبيح في مسبحةٍ قديمة صُنعت من خشب زيتونٍ بكى معه يافا عندما سقطت وتفرّق أهلها.

كلّ يوم يمرّ لي هنا، أشعر وكأنّني أموت معه ألف ميتة. هل حقّا هذا هو «العجمي» الذي كان يوماً؟ أيّ مصيرٍ قاتم آل إليه هذا الحيّ وأيّ تحوّلٍ أحدثوه اليوم في جسده وروحه؟ من حيّ عربيّ عريقٍ جمع جميع سكّان يافا تحت لوائه، إلى حيّ تمّ تهويده وتغيير معالمه بما يتلاءم وروحهم اليهوديّة والصهيونيّة. بيوتٌ لا تنتمي إلى المكان. سحناتٌ لا تنتمي إلى المكان. شوارع تزيّنها عناوين لأسماء شوّهت قلب يافا النابض بتاريخها الجميل. أصبحنا أقليّة محاصرة داخل غيتو ملأه العنف وأثقلته الجريمة. والأدهى من هذا كلّه، أنّ الأغلبيّة تشعر أنّها هي صاحبة الحقّ وصاحبة المكان. حتّى هذه البقيّة المتبقيّة لنا منه، لا يريدون لها أن تبقى. يريدون طمسها ودفن أيّ أثرٍ لنا فيها. فعلاً عندما نقول إنّ النّكبة ما زالت مستمرّة فإنّنا حقّاً لا نبالغ. هذه ليست شعارات فارغة لأنّ ما يحدث اليوم في يافا هو أبلغ دليل على صحّة هذه المقولة.

يصمتان ويطول صمتهما وهما ينظران خارجاً، إلى الروح الّتي غيّبها هذا الجسد الغريب الجديد. تحاول ميار مجدّداً إعادة شموخ رأسٍ وذاكرة طأطأهما الحزن والقهر، معقّبةً بكلّ زهوٍ واعتزاز:

تصديقا لكلامك يا عمّ «أبو شاهين»، أبي وجدّي طالما حدّثاني أيضاً عن المجتمع الفلسطينيّ في يافا قبل النكبة. كلاهما أكّدا كلامك. كان بالفعل مجتمعاً راقياً، متقدّماً ومزدهراً.

يصحو الرأس مجدّداً، يشمخ من جديد، وتعود الحماسة تلمع في عينيه المقهورتين، مطلقاً صوته الواثق بعظمة ما كان يوماً آملاً له أن يعود:

صحيح جدّاً ما تقولينه يا ابنتي. أغبط أولئك الذين عاصروا الحركات الفنيّة والثقافيّة التي سادت يافا آنذاك. حدّثني والدي رحمه الله عن عظمة ذلك الحراك الثقافيّ والفنيّ الذي كان. خذي مثلاً المسارح ودور السينما التي كانت تعجّ بها يافا. هل تعلمين أنّ مسرح الحمراء كان يتّسع لأكثر من ألف شخص؟ تصوّري ذلك. أمّا حفلات الغناء والطرب التي كان يحييها كبار المطربين أمثال محمد عبد الوهاب وأم كلثوم وأسمهان وسهام رفقي على مسارح يافا وفي متنزّهاتها فحدّثي ولا حرج. كل هذا شهدته يا ابنتي هذه العريقة وعاشه أهلها.

يحدّثها دون توقفٍ والغصّة تحرق قلب شيخوخةٍ ما زالت تنتظر العودَ والطبلة وحناجر الفرح لتعيد ليافا لحنها القديم وأغانيها المنسيّة.

حدّثني أيضاً، رحمه الله، أنّ الفرق الغنائيّة التي كانت تَفِد إلى فلسطين، كانت تنطلق عادةً من يافا، قبلتها الأولى، بعدها تتابع جولاتها وعروضها في سائر مدن فلسطين كالقدس وحيفا وغيرهما. حتّى أنّ بعض الناس لم تكن لتنتظر وصول هذه الفرق إلى بلدانها فتراها تهرول إلى يافا كي تنعم بآهات الستّ وتنهّدات عبد الوهاب منذ بدايتها. يطلق تنهيدةً طويلة تنتهي بضحكةٍ لها رنين ماضي أنساه ما سبقها من آه.

هناك يا دكتورة قصّة ظريفة بطلها عمّي الكبير «أبو نعمان». هذه القصّة أصبحت حكايةً من حكايا يافا المشهورةً تداولها النّاس طويلاً وذكرتها الألسن كثيراً. يضحك ملء شدقيه وهو يروي لها قصّة عمّه:

من فرط حبّه لأمّ كلثوم، ومنذ أن سمع بأنّها ستقيم حفلاً غنائيّاً في يافا، طالت لياليه واشتدّ أرقه وهو ينتظر حفلها بفارغ الصبر. وجاء اليوم الموعود، وبدأت التحضيرات لحفل الستّ تظهر على وجه المدينة وجسدها البحريّ المثير وكذلك على قلب العمّ أبو نعمان الذي لم تسعه حينها الفرحة، فلقاؤه بأم كلثوم بدا حلماً بعيداً سيتحقّق قريباً. يصل الحفل، وروائح الطّيب والمسك تفوح من جنباته ومن ملابسه الجميلة الفاخرة. هناك التقى الأصحاب والمعارف وبدأ وابل السلامات والتحيّات بينهم يغزو الأيادي والوجنات. ومع كلّ سلامٍ وتحيّة ألقاها أحدهم عليه، تعلو الضحكات وتشتد القهقهات مشيرةً إلى أمرٍ غريبٍ عجيبٍ لم يدركه العمّ العزيز في بادئ الأمر. يقف عمّنا مشدوهاً مدهوشاً أمام ما يجري وهو يصوّب نظراته الحانقة نحو من التفّ حوله من معارف وأصدقاء، وكأنّه يطالبهم بتفسيرٍ منطقيّ لهذا الضّحك الذي استفزّه ولم يرق له. وإذا بأحد الأصدقاء يتبرّع بتقديم تفسيرٍ له مشيراً إلى قدميه المضحكتين فيما يستمرّ الضّحك، ويغرق هذا ومعه آخرون في نوبةٍ من الضحك بدت وكأنّها أبديّةٌ لن تنتهي أبداً. ينظر عمّنا العزيز إلى قدميه، ملقياً نظرةً فاحصة نحوهما، وإذا به يُفاجأ أنّه قد نسي أن يخلع الشّبشب ولم ينتعل حذاءه الأسود البرّاق الذي اشتراه خصّيصاً لهذه المناسبة. تغمره الدّهشة ويسكنه ارتباكٌ كبير جعله يدرك السبب وراء هذه

الهستيريا الجماعيّة من الضّحك الذي لم يكن مفهوماً له. هذا ما فعله هيامه بالستّ أم كلثوم يا دكتورة.

يتابع ضحكه وهو يتذكّر أيّاماً خلت لم تترك له سوى الشّوق والحنين إلى زمنٍ جميلٍ ولّى من غير رجعة. تشاركه ميار انفعالاته وضحكه وحنينه إلى الماضي البعيد، ثمّ تبادره بضحكتها الرقيقة العذبة:

وماذا عنّا نحن يا عمّ أبو شاهين؟ ماذا عن الصحافة والإعلام؟ ألم يكن لنا نصيب ولو بسيط من كلّ هذه العظمة؟ تُستفزّ ذاكرته، ينطلق لسانه من جديد، وتبدأ تفاصيل كثيرة تنهمر من بين شفتيه دون انقطاع.

بالطبع يا ابنتي، لا شك أنّه كان لكم نصيب في هذا، ونصيب كبير أيضاً. خذي على سبيل المثال أوّل إذاعة تأسّست في فلسطين. كانت في يافا. كان هذا في الثلاثينيات من القرن العشرين. كان اسمها «الشرق الأدنى». هذه المحطة ملأت فراغاً إعلاميّاً هامّاً في حياة فلسطين كلّها كما لعبت دوراً كبيراً في تشجيع وتطوير العديد من الفنانين والأدباء والشعراء. تبدي إعجابها بما رمى إليها من معلومات إعلاميّة فيما مضى يحدّثها:

أمّا المطابع والصحف فكان لها نصيبٌ وافرٌ في رفد الحراك الثقافيّ الكبير. أشهر وأهمّ صحيفة في فلسطين والعالم العربي قاطبة كانت «جريدة فلسطين». هل سمعت عنها؟

تجيبه ميار وهي تسترجع بعضاً من معلوماتها الصحافية والتاريخية:

في الحقيقة قرأت عنها. ما أذكره أنّه تمّ تأسيسها في نهاية

الفترة العثمانية واستمرّ صدورها إلى ما بعد الحرب العالميّة الأولى. كانت من أهمّ الجرائد الفلسطينيّة وأوسعها انتشاراً.

صحيح يا ابنتي، لكن ما لم تذكريه أنّها استمرّت في الصدور في الأردن حتّى إلى ما قبل حرب حزيران سنة 1967. ومن المهمّ أيضا أن تعرفي أيّتها الدكتورة الصحافيّة، أنّ هذه الصحيفة كانت من أرقى صحف فلسطين وأكثرها تمثيلاً للرأي العام الفلسطيني. يطلق تنهيدةً عميقة وكأنّها زفرته الأخيرة قبل تسليم الروح وبلوغ نشوة الموت، قبل أن يُتابع قائلاً:

لكنّ المشروع الصهيوني دمّر كلّ هذا الجمال وهذه الحضارة، سرقها وادّعى أنّها أملاك غائبين. كان المخطّط الصهيوني واضحاً منذ البداية. تدمير المدن الفلسطينية بالكامل كيافا وحيفا وطبريّة وصفد وبيسان واللد والرملة وبير السبع كي لا يبقى هناك أيّ أساس اقتصادي أو إداري أو حضاري نستند إليه. كانت يافا أولى المدن المستهدفة، سعوا لتدميرها بالكامل. اسأليني لماذا؟ من أجل أن تزدهر مدينة تل أبيب، محوها لينهض المشروع الصهيوني في تل أبيب كأول وأهمّ مستعمرة عبرية يستوطنها هذا المشروع الاستيطاني. دمّر مدينة عريقة عمرها 5000 سنة، كي تعيش أخرى عمرها 45 سنة. هذا ما فعلوه. هكذا ابتلعت تل أبيب يافا وريفها. مائة وعشرون ألف إنسان لم يبقَ منهم سوى بضعة آلاف. هذا ما تبقّى لنا من يافا.

يبعث بتنهيدة موجوعةٍ لزمنٍ ثاكلٍ وهو يحصي دموع الغائبين الذين هُجّروا من هذه العروس الفلسطينية التي توسّدت كتف البحر يوماً، بثوبٍ طرزته فلسطين عزّاً وجمالاً ورخاء عيش.

طالت العودة المأمولة يا ابنتي. طالت كثيراً. فالبيوت لا تزال

تنتظر عودة من حفظوا المفاتيح معلّقة في أعناقهم وأعناق أبنائهم وأحفادهم يتوارثونها جيلاً بعد جيل، لعلّ جيلاً قادماً يشهد عودةً لم يشهدها آباؤه وأجداده.

تطلق هي الأخرى تنهيدةً طالما أطلقتها كلّما زارت شاطئ يافا ورأت معالمه التي غيّرتها معاول التهويد والتّشويه. تهويدٌ للأماكن والأسماء ولكلّ تفصيلٍ صبغ يافا مرّةً بعروبتها. فمن عمق البحر كانت تسمع أنّات وآهات من أجبروا على الرحيل يبكون اللجوء ويبكون يافا، وفي ثنايا الموج أصوات لمليون لاجئ خرج آباؤهم عنوةً حين حلّت بهم لعنة تلك السنة فتفرّق الأهل وتشتّت الأحبّة في ظلام نكبة طال ليلها.

بخطواتٍ كسولةٍ وقدمين حافيتين تتّجه نحو مطبخها، يلفّها قميص نومٍ أبيض قصير يظهر مفاتن جسدها الأسمر المتناسق، فيما يتدلّىً شعرها الأسود الطويل على كتفيها العاريتين بغنجٍ ودلالٍ مثيراً فيهما الدّفء وكثيراً من الغرور.

سكونٌ عميق يخيّم داخل المكان وخارجه، وعلى نفسها التي بدأت تخلع عنها حزن الأمس وشجن ذكرياته. فالقادم أمسى قريباً ولا بدّ لها أن تتهيّأ له جيّداً وتستعدّ. راحةٌ غريبةٌ تسكنها، وهدوءٌ نفسيّ شرع في إرخاء ستائره على أوّل أيّامها في العام الجديد. تباشر في إعداد قهوتها التي حرصت أن تكون حاضرةً دوماً في مطبخها وألّا ينقصها منها أيّ شيء. فللقهوة العربيّة في الغربة طعم الأهل والوطن، ومذاق حيّ العجمي وحكايا أبو شاهين.

هذه السمراء المحروقة هي فقط من يستطيع إنعاش يومي ومنحيَ القوة والنشاط. صدق من قال إنّها مفتاح النهار وأوّله، وهي هذا الصّمت الصباحيّ الباكر المتأنّي، لها مفعول السّحر في إصلاح الذاكرة، وهي كالحبّ قليلٌ منه لا يروي وكثيرٌ منه لا يُشبع.

تنتشي برائحة بنّها الشرقيّ المطحون، فيما تستمرّ يداها

بتقليبها رويداً رويداً وعيناها لا تنفكّان ترصدان ثورتها الأخيرة بانتظار أن تهدأ فورة غضبها ويهجع جحوظ عينيها.

«ثلاثة أيّام فقط تفصلني عن لقائي معهم. عليّ أن أكون على قدرٍ كبيرٍ من الجاهزيّة. يجب أن أتهيّأ لهذا المؤتمر بصورةٍ تشرّفني وتشرّف رسالتي. لا أعتقد أنّ المهمّة ستكون صعبة. فصاحب الحقّ يظلّ هو الأقوى».

«صاحب الحقّ يا ابنتي هو الأقوى دائماً». جملة أبيها لها. كثيراً ما ردّدها وآمن بها.

تنهي إعداد قهوتها، يعبق فضاء شقّتها برائحة هيلها وبنّها المحروق، تنتعش معها جميع حواسّها ما يجعلها تشعر برغبةٍ كبيرةٍ في الكتابة والتوثيق. تصبّ فنجاناً من هذه السمراء المهيّلة، ثمّ تمضي إلى أريكتها تحتسيها هناك كعادتها كلّ صباح.

برلين تعتزل الحياة اليوم وتختار الكسل والصّمت شعاراً لها. تلك عادتها في أوّل يومٍ لها من كلّ عام. كلّ ما في العاصمة الألمانية قد أغلق أبوابه اليوم وجميع من فيها ينعم بعطلةٍ رسميّة. ستكون هذه فرصةً جيدةً لميار تمنحها الوقت الكافي للقيام بتحضير ما يلزمها من أوراقٍ بحثيّة ستشارك بها في مؤتمرٍ دراسيّ سينعقد بعد عدة أيام في برلين. لقاءٌ سنويٌّ يعدّ من أهمّ اللقاءات التي تقوم بها كليّة الصحافة والإعلام في جامعة برلين الحرّة، جامعتها التي احتضنت زهر عمرها وأهدتها ألقابها الثلاثة، ومهنةً تعتاش منها كأستاذةٍ جامعيّة.

أتوقّع حضوراً صحافيا وإعلاميّاً مهيباً في هذا المؤتمر، خاصةً أنّ دولاً كثيرة قد تمّت دعوتها. هذا يعني أنّ برلين ستضجّ بالكثير من الصحافيين والإعلاميين الذي سيفدون إلى العاصمة

أيّام المؤتمر. لا شكّ أنّها ستكون فرصتي الثمينة التي لا تعوّض. سيُجلجل صوتي بكلّ ما أريد لهم أن يسمعوه.

تصبّ فنجاناً آخر من القهوة، بينما تتّجه عيناها نحو تلك الورقة التي ثبّتتها على جدار الثلاجة بواسطة قطعة صغيرة من المغناطيس حملت مجسّماً لمبنى الرايخستاغ، المقرّ الرسميّ للبرلمان الألماني بقبّته الزجاجيّة الضخمة وهيئته الفخمة، تضمّنت تفاصيل المؤتمر وسير برنامجه. طالما استهواها أمر شراء التذكارات السياحية بكلّ أنواعها وأشكالها الجذّابة المختلفة. ففي كلّ زيارةٍ قامت بها لدولةٍ أو مدينةٍ ما، كانت تسارع لاقتناء تذكارٍ أو اثنين تضمّهما لما لديها من تذكاراتٍ سابقة جعلت من لحظات سفرها ذكرى دائمة وصورة حاضرة في ذهنها. هذا المثبّت على الثلّاجة مثلاً، اقتنته من أحد الأكشاك المتواجدة بكثرة في شوارع العاصمة الألمانية برلين. هناك يجد الزائر عرضاً كبيراً من التذكارات تشير بمعظمها إلى مختلف المعالم في المدينة. الأسعار معقولة بل يميل بعضها إلى البخاسة. والهدف تشجيع السّياحة ودفع السيّاح للإقبال على الشراء من أجل إنعاش اقتصاد الدولة واقتصاد سكانها. أكوابٌ ملوّنة حملت صوراً لبوابة براندنبرغ ومبنى الرايخستاغ وقصر شارلتنبورغ، أقراصٌ خزفيّةٌ صنعت لتكون قواعد للفناجين والأوعية الساخنة، حاملات أوراق ملوّنة، سلاسل مفاتيح، فتّاحاتٌ معدنيّة لفتح شتّى أنواع المشروبات، وكثيرٌ من المغناطيسيّات اللّافتة للنظر والتي لا يمكن المرور عنها دون التعريج إلى أحد هذه الأكشاك وشراء ما تسمح به ميزانيّة كلّ زائر.

تسير ميار باتجاه الثلاجة. تنتزع عن جدارها ورقة الدعوة

وتعود ثانيةً إلى أريكتها تحمل قهوتها وحاسوبها والدعوة. تجلس على الصفراء التي كانت حتّى ليل أمس كتلةً من جمرٍ تلوّى عليها الجسد المثخن بالحزن ليلةً كاملة، ليخبو اليوم جمرها وتخمد نيرانه، وتصبح هذه أشبه ببساط ريحٍ اكتسى بوبر الإبل الصابرة العنيدة، العطشى لماءٍ يروي صبرها بعد مسيرةٍ طويلة في صحراء الوقت الثقيل. قليلاً ويحلّق بها بساط الريح نحو بوابات الفجر المنتظرة بزوغ شمسها العنيدة.

تعيد قراءة الدعوة قبل أن تباشر العمل والتحضير لمداخلتها التي يتعينّ عليها تقديمها أول أيّام المؤتمر.

كليّة الصحافة والإعلام ـ جامعة برلين الحرّة

تدعوكم للمشاركة في المؤتمر الدراسي السنوي الذي سيعقد يوم الاثنين الموافق 6-1-2020 ويستمرّ حتّى يوم الأربعاء الموافق 8-1-2020 في مبنى الجامعة الجديد في القاعة رقم 2 في الطابق الأول تحت عنوان:

«الإعلام الغربي في الشرق الأوسط ـ ما بين التّنوير والتشويه خلال القرنين الـ 20 والـ 21».

يبدأ المؤتمر أعماله الساعة التاسعة صباحاً من كلّ يوم ويستمرّ حتّى الخامسة بعد الظهر. يشارك في المؤتمر نخبة من الأساتذة الجامعيين ورجال الصحافة والإعلام.

برنامج المؤتمر:

الإثنين:........».

تمرّ بسرعةٍ على جميع الأسماء المشاركة وصولاً إلى اسمها وكأنّه حلمٌ يصعب عليها تصديقه. بعد كلّ هذه السنوات سيثمر

جهدها شهداً. ها هو اسمها يحتلّ مكانةً مرموقةً في المؤتمرات الأوروبيّة والعالميّة.

دكتورة ميار يوسف ـ دور الصحافة الغربيّة في فلسطين إبّان النكبة.

ترتشف آخر رشفةٍ من قهوتها وهي تقرأ أسماء الذين تمّت دعوتهم من قبل الجامعة كضيوف شرف على المؤتمر.

بروفيسور ستيف جيمس ـ بريطانيا.

بروفيسور دانيئيلا كريستوف ـ هنغاريا.

الصحافي والإعلامي عبد القادر محمّد ـ المغرب العربي.

تتوقّف هنا. تحدّق في الاسم التالي مليّاً. تجول بنظراتها في ثنايا حروفه. تقلّبها حرفاً حرفاً. ولسان حالها يقول:

أخيراً سنلتقي... هنا في برلين. في المدينة التي ضمّتني وحضنتني ومنحتني الحياة والحلم. الحياة التي لم تستطيعي كسرها والحلم الذي لم تستطيعي اغتياله!

تتابع قراءتها وعيناها تتحدّيان بثقةٍ وثباتٍ قادم الأسماء والأنفاس والحضور

بروفيسور سارة فنكلشتاين ـ إسرائيل.

أهلاً وسهلاً بك يا سارة. أهلاً بك ضيفةً عزيزةً في برلين. سيكون لقاءً تاريخيّاً لن تنساه كلتانا أبداً. أعدك بذلك. تحاول ضبط نفسها واستعادة تلك الملامح بالكامل، ثمّ تمضي تحدّث نفسها:

أيّة مصادفةٍ حملتك إلى هنا لتلتقيني مجدّداً بعد خمسة عشر

عاماً على تلك الذكرى المشؤومة؟ أيّ قدرٍ هذا الذي خطّط ورسم ونفّذ هذا اللقاء؟ بتجاهلٍ مقصود تعبر عن اسمها عبور بني إسرائيل بحر سيناء تاركين وراءهم فرعون وجنوده يغرقون ويهلكون في الرمل والسراب فيما لا تزال برلين تغرق في ثوبٍ من الشّخير والنوم.

لا بدّ من حمّام دافئٍ ينعش قلبي وفكري، سأتفرّغ بعده للردّ على جميع ما وصلني من رسائل والأهمّ من هذا كلّه لمهمّتي في التحضير لهذا المؤتمر.

تمرّ الساعات بطيئةً هادئة. طاقاتٌ إيجابيّةٌ وأجواءٌ من العمل المثمر ترمي بشباكها حول نهار أنجزت فيه ميار الكثير. يمتلئ داخلها تفاؤلاً وأملاً، تشعر بروحها خفيفة كريشة في مهبّ ريح تودّ التحليق والطيران بعيداً نحو المدى الواسع. فقد زال الانقباض الذي لازمها منذ أمس، وغمرتها حالةٌ من السعادة الغريبة لوجودٍ لم يشعرها بوجوده منذ زمن طويل.

تنظر في هاتفها. الساعة الآن قد جاوزت الثالثة بعد الظهر وبرلين لا تزال تغرق في صمتٍ مطبقٍ عميق. تشعر قليلاً بالنعاس وبجوعٍ بدأ ينهش معدتها. تهمّ بالقيام نحو مطبخها لتحضّر بعضاً من السباغيتي، أسهل الأطعمة صنعاً وأكثرها إحساساً بالشبع، وإذا بجرس هاتفها يتكتك لها منبّهاً بوصول رسالة جديدة. تلقي نظرةً سريعةً نحوه مخاطبةً صاحب الرسالة.

تستطيع الانتظار ريثما أسدّ رمقي بشيء.

تدخل مطبخها كي تباشر في عمل السباغيتي. عشرون دقيقة على الأكثر ويكون كلّ شيء جاهزاً. ما عليها سوى طهي

السباغيتي داخل ماءٍ مغليّ وقليل من الملح، وهذا يتطلّب بضع دقائق فقط، أمّا صلصة البندورة الخاصة بالسباغيتي فعادةً ما تقوم بشرائها جاهزةً لا تحتاج معها لأيّ نوعٍ من التحضير.

تجلس إلى مائدتها الصغيرة وقد ملأ نور النهار شقّتها بأشعّة شمسه التي بدت على غير عادتها في هذا الموسم الشتويّ الكئيب مشرقةً جميلة. تسكب لها بعضاً من هذه الصلصة الجميلة التي أنهتها لتوّها، يرافقها طبقٌ من سلطة الخضار الطازجة التي قامت بإعداده أثناء طهيها لهذه اللولبيّات العجينيّة، لتتذكّر فجأةً ما أحضره لها حسام من زيتونٍ أسود خصّصتها به أمّه من خير ما أعطت أرضهم هذه السنة. تقوم إلى أحد الأوعية الزجاجيّة المركونة بجانب الغاز، تضع لها بعضاً من حبات هذا الأسمر المكبوس بزيت الزيتون والمطعّم بالفيجن الذي تسلّلت رائحته إلى أنفها مدغدغةً رئتيها بحضورها الشهيّ، مضيفةً رونقاً لمائدتها وطعماً ألذّ لهذه الإيطاليّة الحمراء. لم ينسها حسام هذه المرة أيضاً. أو بالأحرى لم تنسها والدته. فحصّتها دائماً كانت حاضرة. لها في كلّ موسم زيتونٍ بعضٌ من أخضره وبعضٌ من أسوده تبعث بهما والدته كلّ سنة تعبيراً منها عن امتنانها الدائم وتقديرها لما تبذله ميار من اهتمامٍ ورعايةٍ لحسام.

منذ زمنٍ بعيدٍ لم تتناول طعامها بهذه الأريحية. فأيّامها في الفترة الأخيرة باتت عدّاءة في ماراتون اسمه الوقت. أشرس السارقين وأسلسهم نهباً للعمر. يجري وتجري معه لتلحق به ولا وقت للوقت يكنّ به ويستريح. تستسلم للمضغ والبلع بهدوءٍ تماهى مع هدوء موسيقى «ضوء القمر» المنبعثة من أنامل ذلك الموسيقيّ الألمانيّ العبقريّ الأصمّ. أنامل تعلو وتهبط كسيل أشعةٍ قمريّة

ألقت بنورها على الأرض راسمةً قصّته مع فتاة بون العمياء في معزوفةٍ هي أشبه بسحر ليالي الشتاء الأوروبيّة الغارقة في الثلج والنبيذ والحبّ. تنهي طعامها، تقوم إلى الأطباق تغسلها وهي تحدّث نفسها:

لم يبق لي سوى القليل. ساعة من الزمن تكفيني لإنهاء ما توجّب عليّ إنهاؤه. بإمكاني أخذ قيلولةٍ قبل أن أكمل مهمّتي.

تتذكّر هاتفها ورسالةً وصلتها أجّلها جوعها وتحضيرها للسباغيتي الشهيّ. تتناوله وهي تنظر عبر شاشته لتعرف صاحب الرسالة. تكاد لا تصدّق عينيها. يخفق قلبها بشدة من هول المفاجأة مكذّبةً ما بثّته لها شاشتها. اسمه ورقمه لا يزالان حيّين يرزقان. تسمع أنفاسهما... ها هما يبعثان من جديد رغم التكفين والدفن القديم.

يا إلهي... نديم... معقول؟

تخونها قدماها، تشعر بجفافٍ يقبض حلقها لا تقوى معه ولوج مخزن الرسائل لقراءة ما أرسله لها نديم. ما تعرفه هو أنّها لم تتوقّف يوماً عن حبّها له، وأنّ عليها أن تتحمّل أيّة نتيجة يفضي إليها تواصلها معه. فهي المسؤولة الأولى والأخيرة عن هذا. تتأزّر بالشجاعة، تدخل مخزن رسائلها لتقرأ ما أرسله لها نديم.

ميار؟ لا أصدّق. أنت؟ بعد كلّ هذه السنين؟ أمعقولٌ هذا؟ أين أنت أيّتها المجنونة؟ يا حبيبةً ضاعت مني وأضاعتني؟

يكفيها أن تعرف أنّها ما زالت حبيبته رغم القطيعة ورغم البعد، لتنسى ما مضى وتحلّق مع حبّها له من جديد. تسارع لتكتب له دون أن تفكّر للحظةٍ في العودة ولو خطوةً واحدة إلى الوراء.

نديم... كأنّي أشتمُّ عطرَ اشتياقِكَ يأتيني من بعيدِ المسافات، متحدّيًا حدودَ العمرِ وألمَ الغربةِ وأسرَ الاغتراب. فهل أردّه؟ هل أردّ عطركَ خائباً، أم أنثره في ثنايا روحي التّائقة لحبّك المجنون، وأغلق عليه أبوابَ فردَوسي وأعلن الحصار؟ سأعلن حالة الطّوارئ وأغلق جميع الأبواب والنوافذ والمطارات والمرافئ، وكلّ منفذٍ تفكّر روحي ولو للحظةٍ الهروب إليه. فسيول الشوق والحنين هرمت يا حبيبي، وبات العمر أقصر.

وكأنّهما افترقا بالأمس. وكأنّ سنين البعد جميعها صُهِرت بنارٍ لا تزال تشتعل ولهاً ولهفةً واشتياقا. فهل نسمّيه الحبّ؟

ميار. أودّ سماع صوتك. هل أستطيع الاتصال بك الآن؟

نديم... أتوق لسماع صوتك.

في طريقها لأخذ حمّامها الصباحيّ، تمرّ بنافذة شقتها المطلّة على الحيّ الذي سكنته حديثاً. تنظر عبرها لترى أنّ الشارع قد بدأ يستعيد حركته ونشاطه في مثل هذه الساعة المبكرة من كلّ صباح بعد أسبوعٍ حافلٍ من الإجازات والكسل والأعياد. ترمي بنظرها إلى البعيد وإذا بالغيوم تلبّد سماء العاصمة برماديّتها وكثافة تواجدها. سحبٌ تطارد بعضها البعض لتلحق بشمسٍ توارت تحسّباً من الأسود والتماسيح القادمة لابتلاعها. مداخن كثيرة انتشرت في فضاء برلين نافثةً دخانها بكثافةٍ في أجوائها، جاعلةً من المشهد أكثر ضبابية وأشدّ رماديّة وكأنّها في سباقٍ مع الغيوم: من يستطيع أن يجعل برلين اليوم تبدو أكثر كآبة. كم تثير مشاهد الدّخان المنبعث من فوّهات المداخن الحديديّة القديمة الحنين في قلبها. كم ستشتاق لهذا الدخان الأسود وإيقاعاته الباردة وهي تشقّ كلّ لحظة شتاءٍ عاشتها هنا. قليلاً ويصبح هذا كلّه في عداد الذكريات. ستتذكّره بشوقٍ وحنينٍ عندما تغادر برلين يوماً ما.

تنهي حمّامها، ينتعش جسدها داخل برنسٍ أبيض لفّها بحميميّةٍ ورفقٍ ممتصّاً ما تبقّى من قطرات ماءٍ دغدغت جسدها بتدحرجها المشاكس من أعلى العنق وحتّى أخمص القدمين،

مثيرةً فيها بعضاً من قشعريرةٍ وامتعاض. تتجه نحو مطبخها لإعداد قهوتها التي بدونها لا يكتمل صباحها ولا يستقيم، وإذا برسالته الصباحية تصلها عبر نغمةٍ خاصةٍ به وحده. كم اختلفت صباحاتها منذ أن عاد نديم يدقّ ترانيم عشقها القديم. أصبح للحياة طعمٌ آخر لم تذقه منذ أمدٍ بعيد.

صباح الورد يا حبيبتي... آمل أن تكوني قد وفّقت في النوم جيّداً هذه الليلة.

يهديها صباحاً جميلاً كالورد، متمنّياً لها نهاراً مثمراً ومؤتمراً ناجحاً، مذكّراً ميار ألّا تنسى أن تطمئنه عنها حال انتهاء المؤتمر.

تبتسم لقدرها القديم الجديد وهي تعيد إليه الصباح بأجمل منه.

صباح من جعل صباحاتي تعود لتتنفّس الحبّ من جديد. صباحك حبيبي. كلّ شيء على ما يرام أنا بخير. اطمئن سأكون معك على اتّصال حال انتهائي من المؤتمر.

تبعث برسالتها إليه وهي تفكّر في صحّة خطوتها القادمة. عليها أن تدرس الأمر جيّداً قبل اتخاذ أيّ قرارٍ يقضي بمغادرتها برلين والعودة إلى البلاد بصورةٍ نهائيّة. كانت تعلم جيّداً أنّه ليس لنديم أيّ شأنٍ في هذا، وأنّ عودتها إلى البلاد هي مسألة وقتٍ فقط لا غير. لا بدّ لها وأن تعود يوماً لعشّها الذي غادرته قبل خمسة عشر عاماً عندما أطلقت لهما وعدها أنّها عائدة. لم تعتد أبداً أن تدير ظهرها للوعود ولهما من أجل مصلحةٍ شخصية أو أهواءٍ ذاتيّة. كيف يمكنها أن تتجاهل وجودهما وتنسى والدين مسنينّ، اضطرا مرغمين قطف زهرتهما الوحيدة وزرعها في

أرضٍ بعيدةٍ وتربةٍ غريبة لم تترك لهما غير عبيرها يعبق في كل ركنٍ من أركان البيت. أيّ وزرٍ هذا الذي حمّلوها إيّاه، وأيّ قرارٍ صعبٍ عليها اتخاذه آجلاً أم عاجلاً. سيكون من الصعب جدّاً الانفصال عن عملها ووظيفتها على الأقلّ في هذه المرحلة الآنيّة فعقد عملها مع الجامعة ينتهي بعد سنة. عليها أن تُخطّط للقادم بكلّ جديّة ومسؤوليّة، عليها أن تعوم بين ضفّتي النهر بمهارةٍ دون أن تدّمر ما أحرزته، حتّى الآن، وظيفة مرموقة وإنجازاتٍ أكاديميّةً مشرّفة، ودون أن تخلّ بوعدها لهما.

ترتدي ثيابها وهي تستعرض أمامها كلّ تفصيلٍ صغيرٍ رافق رحلتها الطويلة. تشعر بالفخر والاعتزاز والرضا عن كلّ إنجازٍ حصّلته حتّى الآن وعن قدرٍ ساقها يوماً إلى برلين.

تزعجنا أحياناً أقدارنا. نلومها ونسبّ الزمن صابّين جام غضبنا على القدر. ماذا لو تصوّرنا أنفسنا خارج متناول هذا الأخير؟ ماذا لو منحنا إمكانية اختيارنا لأقدارنا؟ هل في هذا ضمانٌ لنا، لسعادتنا وهناء عيشنا؟ ما أصعب هذه المهمّة التي لا يجدي التّفكير فيها أبدا! أتفهّم الآن ما قالته لي جدّتي ذات يوم: «يا ستّي ما حدا بعرف درب السعادة منين». على ما يبدو صدقت جدّتي في قولها هذا.

تقف أمام المرآة ملقيةً نظرةً سريعةً على هندامها وزينتها، وحقيبة يدٍ جلديّةٍ سوداء حملتها باعتزاز أنثى تعرف كيف تختار ما يليق بها وبحدث هذا اليوم. قوامٌ فاتنٌ غاب داخل بنطالٍ من الصّوف الأسود المنشّى، وجاكيت أسود وأبيض قصير طابق بكلاسيكيّته قماش البنطال مبتعداً عن فوضى تناسق الألوان والأقمشة. تهمّ بالخروج، فجأةً تتذكّر... نسيت أن تضع قرطيها،

تعود، تضعهما وتلقي نظرةً أخيرة على ثيابها وشعرها. تُغلق باب الشّقّة وتغادر.

بدت في قمّة أناقتها وشموخها وهي تغذّ الخطى نحو قاعة المؤتمرات الصحافيّة. سارت وفي عنقها رائحة زيتونٍ وليمونٍ ووطن رغم ال «كوكو شانيل» الذي أشاعه عنقها عطراً ساحراً طوّق به ثيابها وشعرها وما حولها بشذاه الأخّاذ.

تصل القاعة قبل بدء المؤتمر بقليل، هناك تلتقي زملاءها وطلابها الذين جاؤوا خصّيصاً ليستمعوا إلى مداخلتها ويشاركوها يومها هذا. كم أحبّها طلّابها وكم عشقوا روحها الجميلة وعبقريّتها التعليميّة التي أذهلت بها الجميع. صحيحٌ أنّها أستاذة حديثة العهد بالمهنة، لكنها استطاعت، وخلال وقتٍ قصير لم يتعدّ السنة، أن تثبت جدارتها ومهنيّتها للجميع. مهنيّةٌ عالية وأسلوبٌ شائق في التعليم، وتعاملٌ حضاريٌّ قرّبها من طلّابها وزملائها على حدّ سواء، جعل الطلاب يسارعون للالتحاق بمحاضراتها والانتساب لدوراتها التعليمية. فغصّت بهم قاعات محاضراتها، وضجّت أروقة الجامعة بالحديث عن هذه الأستاذة الفلسطينية الجميلة التي أشاد بمهنيّتها الجميع. بدت ميار كأجمل السفيرات لبلادٍ بلا سفارة.

تأخذ القاعة بالامتلاء، وتأخذ هي بالبحث عنها داخل هذا الحشد من الضيوف والطلاب والأساتذة. عيناها لا تنفكّان تبحثان عن ذلك الوجه الذي تركته قبل أعوامٍ كثيرة عند منعطف زمنٍ ما بين الكهولة والشيخوخة. كثيرٌ من طلّابها يقتربون منها ليحظوا بحديثٍ خاطفٍ يجرونه معها ريثما يفتتح المؤتمر أعماله. بعض الطالبات لا يخفينَ إعجابهنّ بمظهرها الأنيق، فتراهنّ لا يتردّدن

في امتداح ذوقها واختيارها لملابس هذا اليوم، مشيرات إلى أنّهنّ لم يعتدن رؤيتها بهذه الكلاسيكية وهذا النمط الرسميّ من الثياب. فلباسها اليوميّ اتّسم بالبساطة والعفوية لكنّها حافظت فيه دوماً على أناقةٍ ورقيّ رغم بساطته. أحد الطلاب يمتدح عطرها وأخرى تشيد بحقيبتها والجميع من حولها يحيط بها ممسكاً بقهوته أو بكوب عصيرٍ تناوله عن طاولةٍ صغيرة وضعت عند مدخل القاعة ضمّت مشروبات ساخنة وأخرى باردة وبعضاً من كعيكاتٍ صغيرة كنوعٍ من التضييفات.

بابتسامتها المعهودة تشكر لهم إطراءاتهم متابعةً حديثها معهم بكلّ لباقةٍ واهتمام، دون الإخلال بنظام عينيها وهما تبحثان في البعيد عن سارة خارج هذه المساحة الضيقة المشبعة برائحة القهوة الألمانيّة والعطور المنعشة التي اختلطت فيها الأنوثة والرجولة وزهر الصّباح. كانت تبحث عنها خارج زمنٍ نسيت للحظةٍ أنّه لم يعد مطابقاً أبداً للّذي كان، لذلك الذي عرفته يوماً. فعمّن تبحث ميار؟ عن أيّ صورةٍ تبحث وعن أيّ زمنٍ تفتّش ابنة يافا؟ عن صورةٍ تركتها يوماً في يد رسّام عابثٍ اسمه الوقت جلس باسترخاء يعبث بخطوطها وتعرّجاتها وألوانها خمسة عشر عاماً ضارباً بريشته شقّاً هنا وأخدوداً هناك؟

يتّخذ الجميع أماكنهم وسط ضوضاء بدأ هديرها يهدأ مشيراً إلى أحد أساتذة كلية الصحافة والإعلام الذي اعتلى المنصّة عريفاً لهذا اليوم. يرحّب بالحاضرين من أساتذة وطلّاب وصحافيين وإعلاميين وضيوف آخرين، معلناً بدء هذا اليوم الدراسي بكلمةٍ يلقيها عميد كليّة الصّحافة والإعلام.

يصفّق الجميع استقبالاً واحتراماً لعميد الكلية الذي اعتلى

المنصّة مرحّباً بالجميع شاكراً لهم حضورهم ومشاركتهم هذه الأيّام الدراسية، متمنيّاً لهم مؤتمراً ناجحاً ومثرياً، وقضاء أمتع الأوقات وأجملها في هذه العاصمة الجميلة. بعد تقديمه الشكر والترحيب بالجميع، يقدّم مداخلة قصيرة حول ما تقوم به الكلّيّة من نشاطاتٍ وفعاليّاتٍ دراسيّة مستعرضاً ما حصدته الكليّة خلال الأعوام العشرة الأخيرة من تطوّراتٍ وقفزات نوعيّة ميّزتها وأثرت مسيرتها البحثيّة ما جعلها تتصدّر الأمكنة الأولى بين كلّيّات الصحافة والإعلام في أوروبا كلّها داعماً حديثه بشرائح توضيحيّة بثّتها شاشةٌ عملاقةٌ نصبت خلفه. ينهي مداخلته. يصفّق له الجميع كجزء من البروتوكول منتظرين المداخلة التالية. يعتلي عريف المؤتمر المنصّة مرّة أخرى، يشكر بدوره عميد الكلّيّة مقدّماً المتحدّث التالي وهو أحد المستشرقين الألمان الذين بحثوا ظاهرة الاستشراق وفكرة كونه منظومة فكرية جاءت لتخدم أهدافاً استخبارية غربية مهّدت الطريق لمعرفة كل ما يتعلّق بالحياة العربية والإسلامية، بقصد إحكام القبضة على البلدان المستعمَرة وتدمير بنيتها الكونيّة، وبالتالي تنفيذ جميع المخطّطات الاستعماريّة عن طريق هذه المنظومة الفكريّة التي تسمّى استشراق. أمّا سؤال البحث الذي سيطرحه ويُجيب عنه هذا المستشرق اليوم فيتعلّق بكون ما إذا كانت الصحافة والإعلام أحد هذه الميادين التي شملها الاستشراق كشموله لميادين أخرى عديدة.

ينهي المستشرق مداخلته التي شدّت الحاضرين بموضوعها وطرحها المثير. يصفّق له الجميع معبّرين عن إعجابهم بما قدّمه من طروحاتٍ وكشوفات بحثيّة أدهشت كثيرين. يدور لغطٌ بين الحاضرين يلتقطون فيه الأنفاس قليلاً ريثما يظهر العريف مجدّداً

لمتابعة برنامج هذا اليوم. يعود العريف ليعتلي المنصّة، شاكراً بدوره المتحدّث مشيداً بمداخلته وبطروحاته البحثيّة التي أدهش بها الجميع وأثار تساؤلاتهم التي تمّ تأجيلها حتى فترة النقاش والإجابة عن الأسئلة.

ينظر إليها العريف، حيث جلست في الصّف الأماميّ، يبتسم لها كإشارةٍ منه أن قد حان دورها لتقديم مداخلتها.

والآن أدعو الدكتورة ميار يوسف لتقديم مداخلتها حول دور الصحافة الغربيّة في فلسطين إبّان النكبة. ثم قدّم نبذةً قصيرة عن هذه الأستاذة الشابّة، شملت بعضاً من تفاصيلها الشخصية وتفاصيلها المهنية الأكاديميّة. تنشدّ الانظار إليها، يجتاح القاعة تصفيقٌ حارٌّ لافتٌ للنظر، يبعث به طلابها إليها، جاعلاً من عيون الحاضرين راصداً جويّاً قفز صوبها ليرى من تكون صاحبة هذا الإعجاب المنهمر تصفيقاً وحماساً.

بخطى راسخة تتقدّم نحو المنصّة تُتابعها عيون الحاضرين خطوةً بخطوة. تقف بكلّ عنفوانها وسطوة حضورها، حاملةً معها صدق قضيّتها لتقول كلمة شعبٍ صامدٍ ما زال يحلم بلحظة الحرية والتحرير. كانتصاب زيتونةٍ تجذّرت عميقاً في الأرض، انتصبت ميار. كشموخ بيارات يافا العصيّة على الغياب والنسيان، شمخت ميار. لا عواصف التّهجير استطاعت اقتلاعها ولا أيدي الغزاة نجحت في تلويث زيتها ورصّ زيتونها وعصر برتقالها الأشمّ. تصمت قليلاً قبل أن تبدأ مداخلتها وهي تبعث بنظراتها الواثقة إلى كلّ عينٍ وعينٍ تواجدت في المكان. يسود القاعةَ سكونٌ لا يسمع فيه سوى صوت حنجرةٍ أطلقت وجعها وأحلامها ويقينها بقادمٍ أفضل، وغدٍ يعيد إلى شعبها وأرضها الحقّ والحلم. جميع من في

القاعة جلس ينتظر بفارغ الصبر أن تبدأ هذه السمراء الفاتنة مداخلتها. لحظات قليلة، وينطلق الصّوت القادم من رحم فلسطين يدوّي في فضاءات المؤتمر مزلزلاً بنبراته الواثقة ضمير كلّ إنسانٍ حرّ.

أيّها العالم الحرّ...

عندما كنتم تشيّدون صرحكم التعليميّ العريق هذا، كان شعبي يشرّد، وأرضي تنهب، والحقّ في وطني يُذبح على عتبات التاريخ وأزمنة التّهجير والنزوح واللجوء. عندما كُنتُم تلصقون شعاركم «الحقيقة، والعدالة، والحرية - Veritas, Iustitia, Libertas» على جدران هذا الصّرح العظيم، كانت الحقيقة في فلسطين تغتصب، والعدالة غائبة تغطّ في نومٍ عميق، والحريّة تصرخ بأعلى الصوت، وما من مصغٍ وما من مجيب. في الوقت الذي كنتم ترسمون فيه الفجر إشراقاً وعلماً وحريّات، كانت لعنات التاريخ ومحن التهجير وروائح الموت تطارد شعبي مجتاحةً بظلامها فجر وطني. رقمٌ عصيٌّ على النسيان. ألف وتسعمائة وثمانٍ وأربعون. رقمٌ حقّقتموه حلماً وصنعتموه حقيقةً وستبقون تتذكّرونه تاريخ بناءٍ وإعمارٍ وحريّة. أمّا أنا فسأذكره كما شعبي، عام نكبةٍ وويلاتٍ ومحاولاتٍ لطمس هويّة. أيّ مفارقة هذه وأيّ مصير اختلفنا فيه أنا وأنتم. تقاطعٌ زمنيّ لذاكرة قسّمت رغيفها بين الفرح والألم تاركةً للأقدار رسم هذا الرقم الصعب على محاور الذكرى لي ولكم. فقبل يومين فقط، حلّت الذكرى الثانية والسبعون لتفجير أحد مباني يافا العريقة. يافا بلدي ومسقط رأسي ورأس آبائي وأجدادي. كان هذا في الرابع من كانون الثاني من عام 1948. سيارة مملوءةٌ بالمتفجّرات تضعها العصابات الصهيونية بجانب مبنى «السرايا»، فتدمّره وتدمّر ما جاوره من بنايات. يُقتل

عشرات الفلسطينيين في هذه الحادثة ويُجرح الكثيرون، في مسلسلٍ دمويّ من الظلم والوجع لا يزال مستمرّاً، ينخر عظام فلسطين وتاريخها لعناتٍ وآهاتٍ وويلات. فكيف تريدوننا أن ننسى؟ وهل لنا أن ننسى؟ حتّى وإن تمّ الاعتذار لنا يوماً، فالاعتذار، كما قال روبرت فروست، يزيل نصف الوجع، أمّا نصفه الآخر فتحتفظ به الذاكرة بصمت. تصمت قليلاً وهي تبعث بنظراتها نحو طلّابها الجالسين في الصفوف الخلفية بينما يسود القاعة صمتٌ أشبه بصمت القبور.

أمّا أنتم أعزّائي الطلبة، فهل تذكرون ما قاله جوته عن الذاكرة؟

«نحن بجبلتنا نصدّق أبعد الأشياء عن التصديق، ومتى نقشت في الذاكرة فالويل لمن يحاول محوها».

وماذا أيّها الحاضرون عن ذاكرةٍ هي أقرب من الصّدق نفسه إلى نفسه؟ ماذا عن ذاكرةٍ نقشت بألوان الدّم والتهجير واللجوء وما زالت أقدامها الدّامية تجوب الطرقات بحثاً عن وطنٍ يؤويها يُنسيها الوجع ويُنسيها الدّم؟ ماذا عن وطنٍ أثقلته الذّاكرة بنكبات أهلها وويلاتهم وآهاتهم، فهل ينسى؟ الويل لمن ينسى، والويل لمن يحاول محو قضيّتنا وطمس معالمها. لست هنا لأستدرّ عطفكم أو أستجدي تعاطفكم، فنحن أصحاب حقّ ولو طال نيله. لكنّني نذرت نفسي أن أكون سفيرةً لبلادي، لقضيّتي، لمهنتي ولإنسانيّتي. لا أريد لشعبي ووطني سوى الحقيقة والعدالة والحرية. شعاركم الذي تبنيتموه، آمنتم به، وسعيتم إلى تطبيقه في هذا الصّرح العظيم.

عندما جئت بلادكم قبل خمسة عشر عاماً، استقبلتني برلين

وضمّتني إليها حاضنةً حلمي الذي أرادت إحداهنّ له الموت قبل عقدٍ من الظلم. بل هي عقودٌ من الظّلم والتزوير والتّشويه. لم تستطع هذه أن تغتال الحلم ولا أن تغتال الأمل الكامن فيه. لها أقول ولكلّ من يفكّر أن يغتال الحلم أو يدوسه بأقدامه، لن تسقط الأحلام أبداً ولن يقتل اليأس ربيعنا القادم. ربيعنا الآتي لا محالة ولو طال الانتظار.

شكري الجزيل وتقديري لإصغائكم. أنتقل الآن إلى مداخلتي.

تنهي مداخلتها التي استمرّت خمساً وأربعين دقيقة، كان الجميع فيها في حالة صمتٍ وذهول. تنهال عاصفة من التصفيق يقف فيها الجميع احتراماً لها ولذكرى حملتها معها هذا اليوم. يستمرّ التصفيق بكلّ قوّةٍ وحماسٍ أحاطها به طلابها وأصدقاؤها الذين فاجؤوها بحضورهم. منهم الفلسطينيّ والعراقيّ والمصريّ والسوريّ واليمنيّ والجزائريّ بالإضافة إلى أصدقاء ألمان آخرين جاؤوا لنصرة قضية اعتبروها قضيتهم.

يقف الجميع يصفّق لها وقد خانت بعضهم دموعه فبكى، إلّا شخصاً واحداً بقي جالساً في مكانه، مشدوهاً بما رآه، مسحوراً بما سمعه من خطابٍ ناريّ وحماسٍ كوسموبوليتيّ، جعله يدرك أنّها هي صاحبة الرسالة، وجعل ميار تدرك أنّها هي، سارة فنكلشتاين «الكابتن طيار»... العجوز.

أربعون دقيقة وتصل مطار تيجل الدولي في برلين Flughafen Berlin-Tegel. لطالما اعتادت أن تسافر منه حتّى لو اقتضى الأمر أحياناً أن تزحزح موعد سفرتها قليلاً بما يتلاءم وبرنامج رحلاته الجوية المغادرة إلى تل أبيب.

تجلس ميار في المقعد الخلفيّ لسيارة أجرةٍ بيضاء صغيرة من نوع مرسيدس، كانت قد اتفقت مع سائقها مسبقاً بالحضور إلى شقّتها في الساعة الثامنة صباحاً ليقلّها إلى المطار. قرارٌ سريعٌ اتّخذته قبل عدّة أيام يقضي بسفرها إلى البلاد حال انتهاء أعمال المؤتمر. كان الشّوق قاتلاً بحيث لم يستطيعا تأجيل اللقاء. أراداه حيث افترقا، في يافا. كان بإمكان نديم أن يأتي إليها، إلى برلين، لكن للحبّ طعمٌ آخر يتنفّسه العاشقان على أرض الوطن. لم تخبر والديها بنيّتها. أرادت أن تجعل زيارتها الخاطفة مفاجأةً لهما. من المؤكّد أنّهما سيفرحان كثيراً بهذه الزيارة، وهي مناسبة جيدة أيضاً لها تراهما فيها وتطمئنّ عليهما. تقدّم طلباً خاصّاً لعميد الكلّيّة تطلب فيه إجازةً لبضعة أيام تزور فيها البلاد. يتمّ قبول طلبها فتقوم بعدها بحجز تذكرةٍ على الخطوط الجوية لشركة ايزي جت Easy jet المسافرة إلى تل أبيب.

تنطلق السيارة من الحيّ الذي تقيم فيه ميار، شاقّةً سكونه

وضباب برلين الغافي على مداخنها وأسطح بيوتها وعماراتها الشاهقة. الأجواء في الخارج باردة جداً، ودرجات الحرارة في العاصمة الألمانيّة تحت الصفر كعادتها في شهر كانون الثاني من كل سنة. ثلوجٌ بيضاء كثيفة تكسو المدينة مثيرة في العين جدلاً ودهشةً حول ملامح كثيرة في هذه المدينة تباين جمال تفاصيلها واختلف عنه كثيراً في الفصول الأخرى من السنة. حلّةٌ شتويةٌ زهت ببياضها الناصع اللّامع سيأتي الربيع لاحقاً ويخلعها عنها مستبدلاً بياضها بألوانه الزاهية المشرقة التي لن تدوم هي الأخرى إلّا قليلاً، فهي تعلم جيّداً أنّها كما الشتاء، ستغادر جسد المدينة مفسحةً الطريق لهذا الرسّام الماهر أن يضرب ريشته فيها صابغاً حلّتها بألوان صيفه وخريفه مبهراً بها الأنظار، ساحراً بها العيون، ناثراً من أنفاسه السّمائيّة على الأرض نفحات من دهشة وشهقاتٍ تُشدَهُ لها الأفواه فاغرةً عند رؤية هذا الجمال المتباين.

تبدو برلين هادئة هذا الصّباح إلّا من مطرٍ غزير أغرق شوارعها وأجواءها الصباحية برذاذه البرّاق. السيارة تسير على مهلٍ قاطعةً الطريق المؤدّي إلى المطار بكلّ أريحيّة، فليس هناك من أزمات سير خانقة تشوّش سير المركبات وتُهدر وقت مسافريها. معظم من في العاصمة عاد إلى عمله ودراسته خاصةً طلاب المدارس والجامعات. السائق مسترسلٌ في الاستماع لأحد البرامج الألمانية الصباحية، وميار صامتةٌ تتأمّل نهار هذا اليوم بما يحمله من تفاصيل طغت على الأجواء خارجاً. عينٌ لها على الطريق وأخرى ترصد حركة مسّاحات زجاج السيارة الأماميّ وهي تحاول اتقاء المطر المنهمر بسرعةٍ وخفّةٍ راقصة. كم اختلفت ملامح الطريق في هذا اليوم الشتوي الماطر عنها في أيّام

الصيف أو الربيع أو الخريف. هكذا هي برلين. وجوهٌ متعدّدة لمدينةٍ واحدة.

كم يثير شتاء برلين الحنين فيها إلى يافا التي لم تعتد أن تزورها في الشتاء. فمعظم زياراتها إلى البلاد كانت تتمّ في الصّيف. تزامناً مع عطلتها الصيفيّة في شهري تموز وآب. هناك كانت تلتقي بالشّمس والبحر والأقارب والأصحاب، وتنعم بليلٍ طويلٍ من السهر والسمر والذكريات. هما زيارتان فقط قامت فيهما بزيارة يافا شتاءً طوال فترة مكوثها في برلين. كان ذلك في بداية عهدها الدراسي منذ زمنٍ بعيد جدّاً.

تصل المطار والأجواء الماطرة ما زالت ترافقها. يركن سائق السيارة سيارته في المكان المخصص لسيارات الأجرة، يسارع إلى فتح صندوق سيارته الخلفيّ لينزل منها حقيبة سفرها. تشكره ميار بدورها متمنّيةً له نهاراً جميلاً وعودةً ميمونة إلى العاصمة.

مدجّجةً بملابسها الشتويّة الثقيلة، معطف طويل واقٍ من البرد والمطر، وقبعة صوفيّة غطّت بها رأسها وشعرها، وشال صوفيّ لفّته حول عنقها. تقطع ميار البوابة الرئيسيّة المؤديّة إلى صالة استقبال المغادرين تجرّ أمامها حقيبة سفرها، وقد نثر المطر عليها بعض خيراته، وحقيبة يدٍ صغيرة حملتها في يدها.

الصالة تعجّ بالمسافرين، وهي تحاول إيجاد مقعدٍ فارغٍ داخل الصالة تركن إليه ريثما تخلع عنها بعضاً من ملابسها التي أثقلتها وقيّدت حركة جسدها. تجد لها مقعداً، تتّجه نحوه بسرعةٍ قبل أن يملأه أحدهم. تقوم بخلع معطفها وقبعتها، تضعهما داخل حقيبتها الكبيرة وتمضي بخفّة ورشاقةٍ أكثر نحو المكان المخصّص لإتمام إجراءات السفر والمغادرة.

تأخذ مكانها بين المسافرين المصطفّين والمنتظرين دورهم في المكان المعدّ لفحص الجوازات، منتظرةً بهدوءٍ وصبرٍ إنهاء جميع هذه الإجراءات التي تطول عادةً عندما يكون المطار في حالة اكتظاظٍ وازدحام كبيرين. يحين دورها، تتقدّم لختم جوازها وتسليم حقيبتها متمنيّةً اللحظة التي يتمّ فيها استلام الحقيبة كي تتحرّر منها وتستريح. تنهي هذا الإجراء بسلام وهي تهدي موظّفة الرحلات الألمانيّة ابتسامةً لطيفةً. تسلّمها الموظّفة بطاقة سفرها الخاصّة برقم مقعدها متمنيّةً لها رحلة آمنةً وهادئة رقمها 8.

لا يزال لديّ متّسعٌ من الوقت ريثما يحين موعد إقلاع الطائرة. بعض التجوال داخل «السوق الحرة» لن يضرّني بشيء. مضت تحدّث نفسها.

هي بحاجةٍ لهذا الوقت المتبقّي. ساعةٌ من الزمن تكفيها لشراء بعض الشوكولاتة لوالديها، وإيجاد عطرٍ رجاليّ يناسب عشقاً قديماً وحبيباً جديداً ستلتقيه مجدّداً بعد ساعاتٍ. تنهي مشترياتها وهي تبتسم لهداياها برضا طفلةٍ صغيرة حملت قلبها بين يديها، لتتنبّه فجأةً أنّ الوقت دهمها دون أن تشعر. تندفع نحو البوابة المخصّصة لرحلة تل أبيب حاثّةً خطاها لئلاً تتأخّر عن الموعد المحدّد.

في الصالة الصغيرة للبوابة رقم 2، جلس جميع المسافرين ينتظرون الإشارة من موظفي بوّابة العبور بالتوجه إليهم للقيام بفحص أخير قبل مغادرة المطار نهائيّاً والإقلاع. كغيرها من المسافرين، تتّخذ ميار مكاناً لها على أحد المقاعد المنتشرة في الصالة ريثما يباشر الموظفون استقبالهم لجميع المغادرين. بتلقائيةٍ وعفويّة عينين أرهقتهما هذه الإجراءات الطويلة، تجول

بنظرها في فضاء الصالة مصوّبةً نظرها باتّجاه المسافرين المنتشرين هنا وهناك، الجالسين منهم والواقفين. وإذا بها فجأةً تلمحها من بعيد. كانت تجلس مع أحد الأشخاص المرافقين لها يتحدّثان بانهماكٍ وحماسٍ شديدين. تدقّق النظر مرة أخرى لتتأكّد أنّ عينيها لا تخوناها. هي بلحمها وشحمها. سارة فنكلشتاين. لم تتخيّل أنّها ستلتقيها هنا. ولم تفكّر ولو للحظة واحدة أنّه من الممكن أن تسافرا معاً على متن طائرةٍ واحدة. أهي مصادفةٌ أم ترتيب قدر؟ ولماذا يبدو الأمر غريباً؟ من الطبيعيّ جدا، وبعد أن أنهى المؤتمر أعماله، أن يغادر الضيوف برلين كلّ إلى بلده. لم تفكّر ميار في هذا أبداً. ترمقها ميار بنظراتٍ فاحصة طالت كلّ تفصيلٍ فيها؛ شكلها الذي تغيّر، جسدها، وجهها، شقوق شيخوختها، حقيبة يدها، حذاؤها، ملابسها، وأنفها الذي لم يتغيّر.

أيّ قدرٍ ساقني اليوم لتشاركني «الكابتن طيّار» رحلتي الجوية هذه. كم تغيّرت منذ أن تركتها. هرمت كثيراً. ضعف نظرها أيضاً. يبدو هذا جليّاً من نظارتها الطبيّة السميكة. أمّا لغة جسدها فلا تزال كما هي. تنضح عنجهيّةً وتعالياً. لكنّني استطعت أن أُسقِط أنفها المتعالي من عليائه. نعم استطعت ذلك. وأمام الجميع. عندما دوت حروفي معلنةً قصّة تاريخٍ حاولوا طمسه، كاشفةً لها وجهها الحقيقيّ وللعالم كلّه محاولات التزوير والتشويه وقلب الحقائق.

تتابع ميار من بعيدٍ كلّ حركةٍ قامت بها سارة بينما لم تنتبه الأخيرة للعينين اللتين راقبتا كلّ نفسٍ من أنفاسها. فانهماكها وانغماسها في الحديث مع مرافقها هذا جعلها تغيب عمّا يدور حولها من تفاصيل.

قصدت أن تكون آخر من يصعد درج الطائرة. تبتسم للمضيفة وهي تناولها تذكرة سفرها الحاملة للرقم 8. تشير المضيفة إلى المكان المحدّد وهي تلقي التحية عليها باللّغة الألمانيّة. تبدأ ميار بالتقدّم داخل الطائرة التي امتلأت تقريباً بجميع المسافرين. بعضهم لا يزال يسير أمامها ببطءٍ شديد، وآخرون يحاولون جاهدين إيجاد مكانٍ لأغراضهم وحقائبهم الصغيرة داخل الصناديق العلويّة المعدّة لذلك ما جعل حركة تقدّمها بطيئة جدّا. خطوةً واحدة، تقف بعدها قليلاً، تليها أخرى، يتبعها توقّف آخر ثمّ أخرى وإذا بهما تلتقيان هذه المرّة وجهاً لوجه. في لقاءٍ أقرب من بياض العين على سواده عند مقعدٍ حمل الرقم 4. هناك جلست سارة ومعها ذلك الشخص الذي رافقها طوال الوقت، وآخر لا يبدو أنّ هناك أيّة علاقة تربطه بهما.

كان القدر ضيّقاً جداً هذه المرّة وقريباً بحيث لم يترك مجالاً لكلتيهما إلّا التمعّن والتحديق الواحدة منهما في وجه الأخرى وفي تفاصيل زمنٍ لم يُنسِ على ما يبدو أيّا منهما تلك الوجوه وتلك الذكرى. وجهٌ أطلّ من الأعلى على آخر جلس ربّما يلوك ذكرياته العسكريّة معتزّاً بنفسه وببطولاته الجليلة وهو يحلّق في أجواء القتل والبطش والحروب، وآخر حمل معه قضيّته وذاكرته وهموم

شعبه، تحصّن بإنجازاته ونجاحاته وحضوره العالميّ، حتّى بدا عملاقاً داس بقدميه رأس العسكر وأرتاله ونهجه الوحشيّ. من المؤكّد أنّه كان بودّ «الكابتن طيّار» أن يكون جالساً الآن يسترجع ذكرياته خلف كرسيّ القيادة، يتهيّأ للانطلاق نحو أهدافٍ رسموها له مستعيداً أيّام الصّبا والبدلات العسكرية والحروب. أو لعلّهُ كان يحلم بأن يكون عائداً الآن من مؤتمرٍ عالميٍّ دعي إليه، وهو يحمل في جعبته الكثير من الغنائم السياسيّة التي لم يحقّق فيه مبتغاه، لأنّ شفتين وعينين لم يتوقّع أن يلقاهما أبداً داهمتاه على حين غرّة، أسقطتا حلمه الكاذب من علياء عظمته، وأعادتاه مهزوماً بعد أن احتلّتا ببريقهما الآسر ذاكرة الحاضرين وذاكرته العسكرية إلى أبد الآبدين. فحروف ميار، سواء تلك التي خطّتها لسارة أو تلك التي نثرتها في أجواء المؤتمر، لم تترك مكاناً لأيّة ذاكرة أخرى غير ذاكرة حروفٍ نّاريّةٍ نطقت بها هذه الفلسطينيّة الجميلة. تتقارب الأنفاس، تتشابك العيون وتتعارك في صمتٍ بدا أشدّ فتكاً من ضرب السّكاكين.

أهذه أنت؟ مرّة أخرى؟ ربما نطقت بها عينا سارة وكأنّها ضاقت ذرعاً بقدرٍ أخذ يلاحقها في كلّ مكان.

ترمقها ميار بنظراتٍ حملت معها أنفاس المهجّرين واللاجئين والمنكوبين، صانعةً منها سجناً طوّق سارة بنيرانٍ لن يستطيع «الكابتن طيّار» الإفلات منها والنّجاة مهما حاول وفعل، وكأنّ لسان عينيها يقول، جميلٌ أنّك تذكرتني يا سارة، هذا وحده يكفيني. تُشيحُ ميار بنظرها عنها، تستمرّ في التقدّم داخل الطائرة وصولاً إلى مكانها في المقعد رقم 8 حيث جلس شخصان أحدهما ألمانيّ والآخر يبدو إسرائيليّاً، اضطرّا للوقوف كي يفسحا لها المجال في اتّخاذ مكانها بمحاذاة النافذة.

الجميع في مقاعدهم استعداداً للانطلاق. تبدأ الطائرة بالزّحف رويداً رويداً قبل أن تتهيّأ للإقلاع والتّحليق والجميع يسوده الصمت والسكون، فللحظات الإقلاع رهبة عند الجميع. تنظر ميار عبر النافذة الصغيرة لترى أنّ كلّ شيء في الخارج قد اكتسى بالأبيض ما زاد من ضربات القلب ورهبة التحليق. يزور خيالها الوطن، تبتسم له، فيختفي خوفُ المكانِ ورهبةُ فضائهِ، وصوتُ محرّكٍ طالما أربكَ قلبها لدى كلّ سفرةٍ قامت بها. تتذكّر أنّها بضع ساعاتٍ فقط وتلتقيهم فيها، وتلتقيه. تهدأ نفسها، تستكين روحها وهي تبثّ في نفسها طاقاتها الإيجابية كنوعٍ من ترويض النفس على الاسترخاء والتأمّل.

تنطلق الطائرة في مسارها المباشر من مطار برلين إلى مطار تل أبيب، شاقّة ظهيرة هذا اليوم الغائم وعلى متنها مئات الركاب ومئات الحقائب وآلاف التفاصيل الشخصية الخاصّة بكلّ واحدٍ وواحدة من هؤلاء المسافرين. الطائرة تشقّ الأجواء بهديرها المرعب عبر الخطوط الجوية للـ easy jet، والجميع صامتٌ ينتظر اللحظة التي يستقرّ فيها هذا العملاق الحديديّ في الأجواء ويثبت، كي تطمئنّ قلوبهم ويهدأ بالهم وتعود حالتهم الإنسانيّة إلى طبيعتها. بعد الإقلاع بقليل، يبادرها الشاب الألمانيّ الجالس إلى جانبها بالحديث مستفسراً عمّا تقرأه، بعد أن أثار انتباهه مقالاً كتب باللغة الألمانيّة كانت قد أمسكت به وبدأت بقراءته. بدا لطيفاً معها في توجّهه وطريقة طلبه، فقد لمحته منذ البداية يبتسم لها وهو يُفسحُ لها مكاناً كي تجلسَ بجانبه. بلطافتها المعهودة تجيبه عن سؤاله ليتّسع بعدها الحديث ويطول في فرصةٍ جيّدة لكليهما قتلا فيها الوقت واختصرا ثقل السفر.

راح يتأمّل وجهها بإعجابٍ لم يعمد إلى إخفائه، كما لم يُخفِ دهشته من كونها ليست أوروبيّة، رغم ملامحها السمراء الجميلة. تمكنّها من اللّغة الألمانية وإلمامها بالثقافة والحضارة الغربيّة جعلاه يتوه في أصلها.

حدّثته طويلاً عن مسيرتها العلميّة في برلين وعملها كأستاذةٍ جامعيّة في جامعة برلين الحرّة. عن يافا، وعن عائلتها، وعن فلسطينيّتها التي شكّلت لها دوماً مصدر تباهٍ واعتزاز، وعن قضيّة شعبها التي ما زالت عالقة. حديثٌ لن ينساه هذا الشّاب الألمانيّ الذي تجلّت فلسطين أمامه، أنوثةً وعنفواناً وثقافةً وطريقاً واضحاً في «كيف يُصان الوطن».

لم يشعرا بالوقت، وإذا بالمضيفة تعلن بصوتها الجهوريّ عن اقتراب الطائرة من الوصول طالبةً من جميع المسافرين الالتزام والتقيّد بالتعليمات وأوّلها ربط الأحزمة. يقوم الجميع بربط أحزمتهم ويعود الصّمت يحتلّ الوجوه والفراغ. الساعة الآن تشير إلى الخامسة إلّا الرّبع بعد الظهر. عشرون دقيقة ويصلون مطار تل أبيب. الضّباب يغلّف الأجواء في الخارج برماديتّه الكثيفة، وبوادر عتمةٍ بدأت تسطو على السماء وعلى الفضاء. الطّائر العملاق يهتزّ يمنةً ويسرة داخل هذه الفقاعة الضبابيّة الكئيبة مثيراً الهلع والفزع في قلوب كثيرين. عبر النافذة الصغيرة التي غطّى زجاجها البخار، تنظر ميار خارجاً في محاولةٍ منها لرؤية أيّ ضوءٍ أو علامةٍ تبشّر باقترابهم من تل أبيب. كانت تبحث لها عن شعاع ضوءٍ يطمئن قلبها في هذه اللحظات الحرجة ما قبل الهبوط، لكنّ الضباب يستمرّ في احتلال الفضاء كلّه، والطائر العملاق لا يزال يحلّق على ارتفاعٍ شاهقٍ يحول دون رؤية أيّة

علامةٍ تدلّ على الاقتراب أو الوصول. صمتٌ شديدٌ يسود المكان، لا يسمع معه سوى بكاء طفلٍ صغير يحاول والداه طوال الوقت إسكاته، وترقّبٌ حذرٌ ينتظر فيه الجميع لحظة تطلق الغيوم فيها سراح فريستها نحو سماءٍ أشدّ صفاءً وأكثر وضوحاً.

تبدأ الطائرة بتخفيف سرعتها استعداداً للهبوط، مبتعدةً عن غيوم أخذت تفكّ أسر هذا الطائر الكبير من براثن قبضتها الخانقة، مطلقةً أضواءها خارجاً كإعلانٍ منها عن اقترابها للوصول. تستمرّ حالة الصمت والترقّب بين المسافرين ومعها يستمرّ وجه ميار في الالتصاق أكثر فأكثر عبر زجاج النافذة وهي تنظر نحو الأسفل، نحو البحر المزبدّ الذي بدا في هذه اللحظة أكثر وضوحاً لكنّه أكثر غضباً. تهدأ الأنفاس قليلاً وقد بدأت أضواء المدينة الكبيرة وأنوارها تتلألأ من بعيدٍ منيرةً مساء البلاد بألوان مصابيحها الصفراء والبيضاء. كانت تل أبيب تتهادى في غيّها وغرورها وسطوع حضورها الذي أدخل إلى قلوب الإسرائيليين المسافرين على متن هذه الطائرة فرحةً واعتزازاً بها، وباستقبالها الحاضن لهم، والذي يدعم وجودهم على هذه الأرض. بينما شرعت ميار في البحث عن يافا وسط هذا المنديل من الأضواء والأنوار الكثيفة. بدت يافا نقطةً في ذاكرة بعد أن كانت هي كلّ الذاكرة. تطلق ميار تنهيدةً طويلة أثارت انتباه جارها الألمانيّ، ما جعلها تعود لتجدّد حديثها معه واصفةً له شعورها في هذه اللحظات. لحظات المواجهة والاصطدام مجدّداً بهذا الواقع المركّب الأليم الذي لن ينصفك يوماً كعربيٍّ فلسطينيّ يعيش في هذه الدولة.

تهبط الطائرة بسلام. يتنفس الجميع الصعداء منتظرين فتح

باب الطائرة ومغادرة المكان. في هذه الأثناء تعود الهواتف النقّالة لتضيء الشاشات ويعود المسافرون لينشغلوا مجدّداً في تفحّص هواتفهم ريثما يُسمح لهم بالوقوف ومغادرة الطائرة. كباقي المسافرين تقوم ميار بتشغيل هاتفها وإذا برسالةٍ تصلها منه.

أنتظرك في صالة الاستقبال... سأرى إن كنت ستعرفينني. مختتماً جملته بوجهين ضاحكين وقلب أحمر.

سآتيك مدجّجةً بمعطفٍ أسود طويل وقبّعة صوفٍ برتقاليّة وسأرى إن كنت ستعرفني. واختتمت جملتها بوجهٍ غامزٍ وقلب برتقاليّ.

تغادر ميار الطائرة وهي تودّع الشاب الألمانيّ متمنيّةً له قضاء أوقات سعيدة في البلاد. يشكرها بدوره مثنياً على ما قدّمته له من معلوماتٍ يحتاجها في رحلته، متمنّياً لها قضاء أوقات جميلة في أحضان العائلة والأصدقاء.

ساعة من الزمن وتنتهي من جميع الإجراءات الأمنيّة والرسمية المطلوبة. تغادر آخر المحطات وهي تجرّ حقيبتها أمامها باتجاه بوابة الخروج. يأخذ قلبها بالخفقان وهي تخطو آخر خطواتها باتّجاه صالة استقبال الوافدين حيث ينتظرها نديم. مأخوذة بالشّوق والارتباك، رأته يلوّح لها من بعيد. كان ينتظرها كانتظاره لها يوم غنّى الحبّ لهما أغنيته الخالدة على شاطئ يافا. تسير نحوه وقد علت شفتيها ابتسامة أربكها خفق قلبها السريع.

ـ لم يتغيّر كثيرا. ما زال وسيماً. بل زاده الشّيب وسامةً

ووقاراً. تشعر برغبةٍ في البكاء وهي تجرّ قدميها نحوه وسط جمهور المسافرين المحيطين بها من كلّ جانب.

ـ كم تغيّرت. تبدو في لباسها هذا كفتاةٍ أوروبيّةٍ لم أكن لأعرفها أبداً لولا أنّها أرسلت تخبرني كيف ستبدو عند اللقاء... هجس في نفسه.

خطوتان ويصبح الحلم حقيقة. خطوة واحدة وتلتقي الأنفاس من جديد. نصف خطوة وإذا به يحضنها وكأنّها لم تغادره يوماً. ينظر إليها وهو يكاد لا يصدّق أنّها هي. يأخذ في تأمّل وجهها، يتفحّص جميع تفاصيله وملامحه القديمة خوف أن يكون الزمن قد بدّل بعضها، وقد غمر الشوق عينيه وربط الحبّ لسانه فلم يعد يستطيع النطق بأيّ شيء. يتناول منها الحقيبة وهو لا يزال صامتاً يحدّق فيها غير مصدّقٍ أنّها تلك الحبيبة التي لم ينسها يوماً، ومعه، بعد كلّ هذه السنين من البعد والغياب الطويل.

ـ ألا تقول لي الحمد لله على سلامتك؟

تقولها ضاحكةً وهي تحاول كسر جليد الصمت الذي انتصب بينهما.

ـ ألف الحمد لله على سلامتك. يقولها وهو لا يزال يحضن عينيها بنظراته الملتاعة شوقاً إليها.

ـ كيف كانت رحلتك؟ هل أتعبك السفر؟

ـ على العكس تماماً. كانت الرحلة مريحةً لم أشعر معها بمضيّ الوقت. سأحدّثك لاحقاً عن هذا. أين سيارتك؟

ـ حاولت ركنها قريباً من هنا. خفت أن تمطر... وأنا أغار على حبيبتي من المطر.

ينظر إليها نظرةً ذكّرتها بتلك النظرة القديمة التي سحرتها يوماً وأوقعتها في شباك حبّه. تبتسم له ابتسامة حملت معها حبّاً كبيراً حفظته له رغم البعد ورغم السنين.

يغادران صالة الوافدين وهما يسيران جنباً إلى جنب باتجاه بوابة الخروج. كان الازدحام كبيراً في الخارج ما جعلهما يدركان أنّها تمطر. يُتابعان السير باتّجاه البوابة، وتتابع نظراتهما أولئك الذين التجؤوا إلى إحدى القبب الاسمنتية في الخارج، يحتمون بها وينتظرون أن يهدأ المطر قليلاً كي يستطيعوا بعدها مواصلة الطريق. حاضناً كتفها بذراعه، يعبران معاً البوابة الخارجية، يبحثان عن مكانٍ يلوذان فيه ريثما يهدأ المطر قليلاً، قبل أن يتابعا سيرهما حيث تنتظرهما سيارة نديم.

كآخرين هي الأخرى وقفت تنتظر هدوء المطر. تلمحها ميار من بعيد تقف لوحدها دون مرافقها. بدت وكأنّها تراقبهما منذ أن اجتازا البوابة الخارجية معاً.

- نديم... انظر إلى تلك السيدة التي تقف على يسارنا... تلك التي ترتدي معطفاً رماديا مخطّطاً بالأحمر هل تتذكّرها؟

ينظر نديم نحو السيدة، يتفحّص وجهها، مبدياً استغرابه من سؤال ميار.

- لا يبدو لي أنّني أعرفها... لحظة... وجهها مألوفٌ وكأنّني رأيته من قبل، لكنّني لا أذكر أين؟

- هل تذكر سارة؟ سارة فنكلشتاين. هل يقول لك هذا الاسم شيئا؟

- سارة فنكلشتاين... من الجامعة؟

- نعم. تلك التي نصحتني بترك التعليم لصالح الزواج. هل تذكر ذلك؟ كيف لك أن تنساها يا نديم؟

- أنسى؟ عليّ أن أذهب لأغتالها الآن. فقد تسبّبت لي بضرر عمره خمسة عشر عاماً. استفزّتك حضرتها، فقمت حضرتك بمغادرة البلاد وتركي دون أيّ سابق إنذار. أرجوك ميار لا أرغب في استعادة تلك اللحظات.

تستمرّ السيّدتان في التحديق الواحدة في الأخرى والجميع ينتظر ساعة الإفراج، والتّحرر من هذا القيد الماطر.

يهدأ المطر ويبدأ الجميع بالتحرّك استعداداً لمغادرة المكان. بحركةٍ مجنونةٍ منها وغير متوقعة فاجأت بها نديم وأبقته مشدوهاً، تمدّ ميار يدها نحو يده، تمسك بها وترفعها إلى الأعلى مصوّبةً نظرها نحو سارة قائلةً باللغة العبرية:

- أنظري إلى يدي. إلى هذه اليد التي أرغمتها يوماً على الانسحاب والمغادرة. ها هي قد عادت إليه. إلى مكانها الطبيعيّ... إلى الوطن الذي لا تنازل عنه أبداً يا سارة.

في اللحظة التي تهمّ سارة فيها بالردّ، تكون ميار قد ابتعدت ومعها نديم متابعين سيرهما نحو السيّارة.

- ما الذي فعلته؟ هل جننت؟ كان من الممكن أن تستدعي لك الأمن أو الشرطة؟

غير آبهةٍ بما قال:

- نديم... خذني إلى البحر... اشتقت له كثيراً... أودّ أن أراه معك...

- الآن ميار؟ في هذه الأجواء الماطرة والمعتمة؟ دعينا نذهب أوّلاً إلى أحد المطاعم الموجودة على الشاطئ فأنا هالكٌ من جوعي وأعتقد أنّك كذلك. ونحن نحتاج أن نتحدّث. أليس كذلك؟

- أرجوك نديم... هي بضع دقائق فقط أراه فيها، أشمّ رائحته، وأعتذر له.

ينظر إليها وشوقه إليها يكاد يقتله. يقترب منها، تشعر بأنفاسه تغزو وجهها، شعرها، عنقها، تتجمّد الكلمات في عروقها، تتوقّف عقارب الزمن في ساعات حاضرهما ليغيبا بعدها في قبلةٍ تختصر شوقاً عمره خمسة عشر عاماً.

هاج وماج فرحاً وهو يراهما مقبلين نحوه يحضنهما ذلك العشق القديم. عرفهما من رائحة الحبّ الكبير الذي كان شاهداً عليه يوم التقيا ويوم افترقا. على هذا الشاطئ الذي لا تزال رماله وأصدافه وطيوره تنتظرهما، عادا ليكملا رسم اللوحة بألوان العودة والحبّ واللقاء. كان غضب البحر يوم افترقا يفوق غضب الأرض يوم زلزلت زلزالها. لم يرق له حينها فراقهما لكنّه كان واثقاً من عودتهما إليه معاً ذات يوم. فمن يشهر حبّاً أمام هذا العظيم، لا يستطيع الفكاك منه أو الهروب. هكذا هو البحر. قيدٌ سحريٌّ أبديٌّ لسطوة قدرٍ ورهبة حضور.

وقفا صامتين أمامه لا ينبسان ببنت شفة. انضمّا إلى جوقة الصمت الذي لفّ المكان. لم يسمعا في الأجواء سوى هدير موجٍ ولم يريا سوى عتمة شتاء حالكة اخترقتها بعض الأضواء المنبثقة من مصابيح ثبّتت على رمال الشاطئ بدت كفزّاعات ليلٍ أو أشباحٍ خرجت لتوّها من البحر. وقف خلفها وهي تنظر صامتةً صوب هذا العميق، مطوّقاً خاصرتيها بذراعيه، ضاغطاً عليهما برفق عاشقٍ تيّمه العشق وبراه الشّوق، قبل أن يهمس في أذنها قائلاً:

ـ أحبّك...

قالها غير منتظرٍ منها جواباً أو ردّاً، فوجودها معه في هذه اللحظات يقول كلّ شيء. تستمرّ في تأمّلها لهذا الأسود الهائج، بينما يستمرّ هو في مداعبة شعرها وعنقها بأنفاسه المشتعلة تلهّفاً واشتياقاً لها. فجأة ودون أيّة مقدّمات تتغيّر نبرة صوته لتصبح أشدّ حدّةً:

- ميار... لن تفلتي منّي بعد الآن. هل تفهمين؟ حتّى إن تجرّأت وحاولت ذلك... فسألقي بك هنا، في البحر.

قالها وهو يضغط عظام جسدها النحيف بذراعيه الممتلئتين. مثيرةً بعض امتعاضٍ من حركته هذه، تبتسم له بأنوثةٍ طالما أرّقت نومه بطلّتها السمراء الرقيقة.

- نديم... أكاد لا أصدّق كلّ ما يحدث لنا الآن. أنا وأنت هنا معاً. على شاطئ البحر... في يافا... بعد خمس عشرة سنة على الغياب!! لا أصدّق هذا، كأنّني أعيش حلماً لا أريد الاستيقاظ منه.

- ومن قال إنّي أريدك أن تستيقظي منه أيتّها الدكتورة العظيمة؟

يقولها بهمسٍ يثير أنوثتها النائمة وجنون حبّها القديم له.

- واعلمي أنّني لن أنتظر منك بعد الآن أيّة قرارات. منذ هذه اللحظة أنا الذي سيقرّر كلّ شيء. هل تفهمين؟

قالها ممازحاً.

- مدهش جدّاً. وهل لي أن أعرف ما هي قراراتك يا حضرة السيّد نديم؟

- أن نتزوّج حالاً... لم يعد أمامنا وقت!

يحضنها وهو يطوّق جسدها بخوفٍ غريبٍ دهمه فجأة، الرّعب من أن يفقدها ثانيةً.

- أريدك معي في كلّ ما تبقّى لنا من رمق عمر.

- نديم... هل تعتقد أنّ الأمر بهذه السهولة؟ أنت تعلم جيداً كم هو مركّبٌ واقعي اليوم وكذلك واقعك. اترك المزاح جانباً. علينا أن نفكّر ملياً قبل الإقدام على أيّة خطوةٍ من شأنها أن تقودنا إلى الندم. هذه خمسة عشر عاماً يا نديم. ليست سنةً أو اثنتين.

- ميار... سأندم إن تركتك تفلتين مني بعد الآن. أشعر في هذه اللحظة أنّ حبّي إليك يكاد يكون جنوناً.

تلقي برأسها إلى الوراء حتّى يلامس رأسها أعلى صدره فتلفح أنفاسه عنقها وخدّها الأيمن.

- أريدك معي زوجةً وحبيبةً وصديقةً أبديّة. كم أشتاق لطفلٍ منك ميار. كما وعدتني يوماً. هل تذكرين ذلك؟ أردناها بنتاً. تشبهك تماماً. هكذا اتفقنا حينها. واتفقنا أن نسميها يافا.

تغيب عن عالمها معه، تغرق في صمتٍ طويل فصلها عن واقع البحر واللقاء والحبّ وكأنّما شقّ روحها نصفين. نصفٌ هنا ونصفٌ هناك، حيث ذكرياتها معهم. في المكان الذي عاشت فيه تفاصيل حياةٍ أخرى عمرها خمسة عشر عاماً.

- يافا... ما أجمل هذا الاسم. طفلتنا الجميلة سيكون اسمها يافا. لن نجد اسماً أجمل من هذا.

يقولها وهو يردّد الاسم مزهواً بطفلته التي لم تولد بعد. تلتفت إليه نصف التفاتةٍ بينما لا تزال ذراعاه تحضنانها من الخلف، وقد ملأت الدموع عينيها.

- نديم...

- نعم يا حبيبتي...

- أنت تعلم جيداً ماذا تعني لي يافا. وتعرف كم أحبّ هذا الاسم. لكن إن حدث وتزوجنا وأنجبنا بنتاً فسنسمّيها...

- ماذا يا حبيبتي؟

يقولها ونظراته تبعث بتساؤلاتها إلى ميار تطلب تفسيراً لهذا الموقف الغريب.

تنهمر الدموع من عينيها فتحرق قلبه الذي بات يحمل بين يديه طفلةً تنتظر اسماً وعدته به حبيبة قديمة.

- ما بك ميار تكلمي...

- سأسمّيها...

- ماذا ميار؟

- سأسمّيها حلا...

ترتخي ذراعاه بعيداً عن خاصرتيها وقلبها، تمسي أنفاسه الّتي داعبت منذ قليلٍ وجهها أبعد، يعلو ضجيج البحر، يتكسّر موجه فوق رمل الحكاية القديمة، حاملاً معه حكايةً جديدة لعينين دمشقيّتين احتشدت فيهما كلّ مآذن الشّام وحمائم الشام وورده البلديّ، ولوحة چوبلين نسجتها أمّها لعاشقين قديمين جمعهما الموج والبحر وشروق شمس.